الزمن المُمزَّق

ثروت أباظة

الزمن المُمزَّق

تأليف
ثروت أباظة

هنـــداوي

الزمن المُمزَّق

ثروت أباظة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٢ ٢٨٩٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ ثروت أباظة.

المحتويات

السلطان والبهلوان	٩
ملبسٌ أجرب لزمنٍ ممزَّق	١٥
الحرية مسئولية الفرد	١٩
هل هم منتهون؟	٢٣
لا يُخلِف الله وعدَه	٢٧
حين تتحطَّم الحقيقة	٣٣
وجهان لعملةٍ واحدة	٣٧
غُربة الزمان والمكان	٤١
أطفال	٤٥
حريقٌ وكوبُ ماء	٤٩
حتى أبطال أفغانستان!	٥٣
لا اقتصاد بغير ثقة	٥٩
عالي الصوت لم يزل	٦٣
أعجَبُ واعجَبْ معي	٦٧
بين النظرية والتطبيق	٧٣
إيجابٌ ولا قبول	٧٧
مقدِّمة ونتيجة	٨١
حكمتَ فلم تُنصِف	٨٥
خلقَه، فسوَّاه، فعدلَه	٨٩
لستَ وحيدًا	٩٣

ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق ٩٥
خطابٌ في موعده ٩٩
ما أجمل هذا الحريق! ١٠٣
وتأكلون التراث أكلًا لَمًّا ١٠٧
حَيْرة مع مليمٍ ناقص ١٠٩
اتنين فلاج وهات مليم ١١٣
سقط الصنم ولم تسقط القاعدة ١١٧
لا نخاف إلا الله ١١٩
الخبرة والإدارة ١٢٣
كل سلامٍ عندهم حرب ١٢٧
الأدبُ حياة ١٣١
الأدب والسياسة ١٣٣
الكتابةُ لوجه الوطنِ والحق ١٣٧
بين الفَخْر والجَخ ١٣٩
الصوت المرتفع والتليفون والفن ١٤٣
الشخصيةُ المثاليةُ في الفنِّ الدرامي ١٤٧
بين الأدب والدين والعلم ١٥١
الدراما الشعرية في رؤيةٍ جديدة ١٥٥
وقد عادَت العَقْرب ... ١٥٩
الكلمة العربية ١٦١
الناسُ والملائكة ١٦٧
لم يتَّسِعِ الوقت ١٧١
اللغة في القصة والرواية رؤية وليست بحثًا ١٧٥
أبياتٌ من الشِّعر ١٧٩
هيبة الكُتاب ١٨٣
كتاب السادات ١٨٥
وبالحق نزل ١٨٩
سيدة اللغات ١٩٣

صورةٌ قلمية، الثور المذءوب ١٩٧
قردة ٢٠١
تحطيم الهواء ٢٠٣
ما أبعدَ الثقافة عن اللافتات! ٢٠٧

السلطان والبهلوان

هذه قصةٌ طوتها يد النسيان من قصص ألف ليلة وليلة، ورُبَّمَا رواها الرواة ولكنها لم يكن لها حظ الإثبات بين دفَّتَي كتاب، ولستُ أدري أسمعتُها فأرويها؟ أم تخيَّلتُها كما يتخيَّل المؤلِّفون فسعيتُ إليك بها؟ أقصُّها عليك فيما تعوَّدتُ أن أقُص عليك.

يُحكى أنَّه في زمنٍ من الأزمان وَلِي الحكمَ سلطانٌ طاغية جبار، لا يطيب له الحكم إلا بالحديد والنار، يقتل الناس لأهون الأسباب، ويغتصب الأموال، فهي له أسلاب، ويستحلُّ كلَّ حرام، ويُعامل الناس بالإجرام، نشَر جواسيسه في كل مكان، وبثَّ عيونه بجميع الأركان، والويل والثبور لمن قال لا إله إلا الله، فالموت ينتظر كل أهله وذوي قرباه. أمر السلطان ألا يُغادر أحدٌ البلاد، ومعه أمواله، فاضطُر كل فرد في الشعب أن يرضى بحاله، وأقفل جميعهم فمه حتى لا يُريق الجبَّار معه، وصار الناس لا يتكلمون إلا همسًا، فإذا مررت بالديار، فلن تسمع حسًّا، وامتنعوا عن الاجتماع في الأماكن العامَّة؛ فقد كانوا يخشَون إذا اجتمعوا أن تقع عليهم الطامَّة، وكان المكان الوحيد الذي يُضطَرون أن يحتشدوا فيه هو السوق، وهو مكانٌ مرموق، لا يجرؤ فيه أحد أن يتكلَّم في غير التجارة؛ فقد كانوا يعلمون أنَّ الجواسيس قد تكون في جِداره، وأن عيون السلطان تُحْصِي أنفاسهم، وتكاد تُمسِك الكلمة التي تدور في أذهانهم.

وكان للسلطان وزير على شاكلته، يُحبِّب إليه كل ظلم، ويُحِل له كل قبيح، فإذا حَرَّمَ اللهُ هو يُبيح، وإن منع الشرع فهو يُتيح، كان كلبًا عقورًا، ويظل طول ليله مخمورًا، حتى إذا صحا الصباح، لا يشعرُ به الوزير إذا لاح؛ فهو من خمر الأمس سكران، وإن بدا وكأنَّه يقظان، فهو مفتوح الأجفان، ولكن بعقلٍ نعسان، يلوحُ لمن يراه كأنه يفهم ما يُقال، بينما هو من السُّكْر في شر حال.

نزل السلطان والوزير إلى السوق مُتخفِّيَين، يريدان أن يريا الناس رأي عيان. ولم يطُل انتظارهما فسرعان ما شهدا الناس لا تقول إلا ما يسُر الطاغية، وما يجعل نفسه راضية، ولم يُحاول واحدٌ منهما أن يشهد الحزن الذي يتحرك فيه الناس، ولا البؤس الذي يُسيطر عليهم من شدة اليأس؛ فعَين الطاغية ومعاونيه لا ترى إلا ما يرضيها ويرضيه.

وبينما السلطان والوزير يتخذان من مكانهما ستارًا خفيًّا، رأيا بهلوانًا يطوي السوق طيًّا، ويقف إلى جانب حصانٍ هزيل له صاحبٌ أشد منه هزالًا، فهو في وقفته يميل، واقتربَت رأس البهلوان من المالك المتهالك، ثم اعتدل الرأسان، وقد وضحَت أمامهما المسالك، وبدأ البهلوان يصيح، مفتريًا صفاتِ البطولة للحصان القبيح، فهو الأسد الواثب، وهو في الميدان هو الغالب، وتقاطر الناس من كل حَدب وتجمَّعوا حوله من كل صَوب، وراح هو يجعل الحديث في كذبٍ مفضوح ويُسوِّيه، حتى وجد الحصان من يشتريه، وفرِح البائعُ أي فرح، وأعطى البهلوانَ نصيبًا من الثمن فأكرَم وسجَح.

ثم رأى السلطان البهلوان ينتقل إلى حمار، شأنه شأن الحصان الواهن الضعيف، ويقول عن الحمار فيُزيل من هُزاله وإلى قوَّته يزيد ويضيف، ويُباع الحمار ويجني البهلوان الثمار، ويتكرَّر فعل البهلوان والسلطان والوزير مندهشان.

قال السلطان لوزيره: أريد هذا البهلوان.

وقال الوزير: لك الأمر وعليَّ الطاعة، ولكن هل لي أن أسأل سؤالًا حائرًا في نفسي، لا يجد إجابة؟

وقال السلطان: القاعدة الأصلية أنك لا تملك السؤال، فهو ليس من حقك، ولكن وقد قلتَ ما قلت؛ فإنك أثرتَ في نفسي حب الاستطلاع.

فاسأل سؤالك على سبيل الاستثناء لا القاعدة، والاستثناء كما تعلم لا يُقاس عليه، ولا يُتوسَّع فيه.

– فيم تريد هذا البهلوان الحقير، وهو إنسانٌ لا قيمة له، لم نسمع منه إلا كذبًا، ولم يقل إلا الزور والبهتان؟

– كنتُ أحسب أنكَ فهمت.

– لا وحياتك ما فهمت.

– لو لم تكن طُولَ ليلك سكرانًا، ما فاتكَ ما قصدتُ له، ولا غبيتَ ما هدفتُ إليه.

– أنا الآن على الأقل لستُ في حالة سكر.

– بل أنتَ في حالة خُمارٍ دائم من مُخلفات السُّكر، ومما بك من الخمر، فشرابُ المساء تبدو عليك آثارٌ منه شديدة في الصباح.

– لا أستطيع أن أعارضك.

– ولا يستطيع أحد.

– ولكنني ما زلتُ لا أرى فيم تريد البهلوان.

– ألم تَرَ كيف هو ماهر في إتمام الصفقات؟!

– ولكنك يا مولاي السلطان لا تعقد صفقات؛ فإنك إذا أردتَ شيئًا من ملك غيرك أخذتَه بالأمر من غير شراء، وإن أردتَ أن تبيع فرضتَ الثمن ونلتَه، فما انتفاع عندك ولا شراء.

– ومن قال لك إنني أريده لبيع أو شراء؟

– ففيم إذن؟

– إذا خالط هذا البهلوان الناس، ودخل إلى البيوت وراح يمتدح السلطان، جعل الناسَ يُصدِّقون مديحه، ولا يكرهون السلطان ولا يُبغِضونه.

– ومنذ متى يا مولاي تهتم برضاء الناس أو سخطهم؟

– أليس من الأحكم أنْ أصنع بهم ما أشاء، ومع ذلك أجعلهم يمدحون بدلًا من أن يذُمُّوا؟

– وهل يجرؤ أحدٌ على ذمِّك؟

– إنهم جميعًا يذمُّون السلطان في دخيلة نفوسهم.

– وماذا يهمُّك من دخيلة النفوس؟

– إن تكن راضية خيرٌ من أن تكون ساخطة.

– وهل تظنها سترضى؟

– رُبَّما.

– أيستطيع هذا البهلوان أن يصل إلى خافية الصدور؟

– يستطيع على الأقل أن يجعلهم يلتمسون العذر لأنفسهم، فلا تبدو نفوسهم أمامهم مهينة، ويُهيِّئون لأنفسهم أنهم يقبلون حكمي، وهم به راضون، وأنهم ليسوا جبناء، ولا ضعفاءَ مهازيل.

– قلتَ الصواب يا مولاي السلطان.

– فالتمس لي هذا البهلوان.

– سأُحضره من فوره، ولكن هل أخبره من يريده؟

– بل اكتم حقيقتي عنه.

– فماذا أقول؟!
– قل تاجر من كبار التجار، واسع الثراء موفور المال.
وانصرف الوزير الوسنان، وما لبث أن عاد بالبهلوان، ووضَعه بين يدَي السلطان.
– ما اسمك أيها البهلوان؟
– عبدك يا مولاي.
– أوَعَرفتَني؟!
– منذُ شرَّفتَ السوق يا مولاي.
– يا لكَ من داهية!
– دهائي كله ملكُك.
– إذن فأنت تعرف فيمَ أريدك.
– إذا لم أكن عرفتُ من أوَّلِ وهلة، فلستُ جديرًا باستدعائك لي.
– فهل تستطيع أن تقوم بما انتدبتُك له؟
– وأكثر.
– قبل أن تذهب إلى الأكثر، قل لي فيمَ أردتُك لأختبر مقدار ذكائك.
– تريدني أن أجعل الناس يمتدحونك في دخيلة نفوسهم، كما يُطيعونك في جهير أقوالهم.
– أصبتَ، فهل تستطيع؟
– لك أن تُجَرِّبَنِي.
– وما الأكثر؟
– أن أجعلكَ أنتَ دائم السرور موفور الحبور.
– بالكذب والتحايل؟
– بل براوية دخائل الناس ومخبوء أسرارهم، وكل ظريفٍ وطريف من أحوال معيشتهم.
– هل أنت أيضًا صاحب حكاية؟
– لن أقول لا، أو نعم حتى تشهد لي.
– ولكنكَ لم تقل ما اسمك.
– خادمك الأمين حسونة هنداوي.
– ومتى تبدأ عملك؟
– لقد بدأته فعلًا يا مولاي.

وضحك السلطان في سرور واستظراف، واستأذن حسونة في إلطاف، وما لبث أن بدأ العمل في غير تأخُّر ولا مهل وراح يندسُّ بين الجموع، ويختلق المحامد للسلطان ويذيع. ولم يلحظ الأبله الموهوم أنَّ الناس تستمع إليه في وجوم، وأنها تدعو للسلطان في الظاهر؛ لأنها لا تملك أن تقول ما يدور بالخاطر. وكلما فشا حسونة في الشعب ضحك السلطان من القلب، وجهل أنه قد يستطيع أن يُضحِك سلطانًا، ولكنه لا يستطيع أن يخدع إنسانًا.

ومَرَّ الزَّمان واستدار، وجاء موعد السلطان الجبار، القاهر فوق عباده، والذي لا يخرج شيءٌ عن مراده.

وانقلب الحال إلى حالٍ جديد، وانتهى زمن حسونة والوزير غير الرشيد، وذهب الوزير إلى كسرة من زاوية النسيان، ولكن حسونة أراد أن يُغالب الزمان، فنزل إلى الناس في السوق، فإذا هم يضربونه ضربًا لم يذُقه مخلوق، وهو يجري أمامهم مذعورًا، ويتخاضَع لهم مذلولًا مدحورًا.

وأصبح دأب حسونة منذ ذلك اليوم، أن يظل قابعًا في بيته بعض الوقت، ثم يعود إلى الناس أملًا في أن يكونوا قد نسُوا ما أحاطهم به من وهم، ولكنهم كلما عاد اتخذوه ضربًا وشتمًا، وحملوه ما يطيقون ولا يطيق غمًّا وهمًّا، وظل في هذه الحالة وسنَّته، حتى توارى في تربته.

وهكذا ترى أن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة. قصة وقعت في يدي بعد أن أخطأت طريقها إلى مؤلِّفي ألف ليلة وليلة، نقلتُها إليك راجيًا رضاءك، أملًا أن تقع من نفسك في خير مكان.

ملبسٌ أجرب لزمنٍ ممزَّق

ما هذا الزمان الذي أصبحَت فيه القذارة هي مظهر الأناقة، والصعلكة هي التطور، والملابس الممزَّقة هي مجاراة العصر، ومظهر إشراقه وجماله؟ لقد تمزَّق العصر وظهر تمزُّقه على الملابس، وأصبحَت القيم هي الأخرى جرباء فأصبح الملبس أجرب.

رأيتُ نساءً حليقاتِ الشعر كأنهن الرِّجال، بل رأيتُ في التليفزيون الفرنسي امرأةً ملونة بلا شعر على الإطلاق، وما زال كثيرٌ من الشباب — وإن كان أقل من ذي قبل — يُطلِقون شعورهم فما أثار منظر اشمئزازي قَدْر منظر المرأة بلا شعر، ومرآي الرجل يُطلق لشعره العِنان.

ورأيتُ في لوزان آنسةً كان يُمكن أن تكون جميلة، ولكنها راحت تُحارب ما وهب الله لها من جمال بشتى الوسائل والحيل، حتى نجحَت فيما قصدَت، وبلغَت من أهداف القبح ما سعت إليه، فشعرٌ منكوش يوحي بالقذارة، وملبسها مترهل عن عمد لا عن فقر، فواضحٌ أنه قد كلَّفها من المال كثيرًا، وإن كان لم يُكلِّفها من الذوق شيئًا.

ورأيتُ شبابًا لحاهم مُهملة فلا هي حليقة ولا هي مطلَقة، وإنما شيء بين الاثنَين لا أدري كيف يحافظون عليه على حاله هذه دون تغيير.

وأرى كثيرًا من مُدَّعي الفن يُطلقون لحاهم، علم الله أنهم يريدون أن يلفتوا إليهم الأنظار، وقعدَت بهم مواهبهم أن يلفتوا الشهرة إليهم بأعمالهم، فحاولوا ذلك بلحاهم، ولن يهب الله فنًّا لمجرد لحية.

وإن كانوا يتحجَّجون بالحرية؛ فإنَّ أحدًا لا يمنعهم أن يصنعوا بشعورهم وملابسهم ومظهرهم ما يشاءون، ولكن ما داموا يرون أنهم مارسوا حريتهم بهذا القَدْر فليسمحوا لنا أن نقول نحن أيضًا رأينا مستعملين حقَّنا في الحرية نفسها.

إنكم تثيرون القرف والاشمئزاز والتقزُّز، وإن كان هذا ما سعيتم إليه فبشراكم قد بلغتم من الدنيا مُناكم، وبئست المُنى.

وهنيئًا لكم ومنكم الأجرب الذي اغتال الزعيم الوحيد الذي حقَّق نصرًا للعرب في العصر الحديث، وبأيدي أقوامٍ يدَّعون حرصهم على دين العرب.

وعَلِم الله ما دعاهم إلى القتل إلا التكالُب على الفانية، وليس النظر إلى الباقية، والحرص على الدنيا والرفض للعليا، والسعي إلى المنصب والرئاسة، والتحكُّم في عباد الله بما لا يرضي الله.

هنيئًا لكم زمنُكم الأجرب الذي سمح لهنات الناس وبُغاتِهم أن يهاجموا الأئمة الشم الذين أدَّوا رسالاتهم أكرمَ ما تُؤدَّى الرسالة، وأوفى ما يكون القيام بالأمانة.

فهذا عميدُ الأدب العربي الحديث الذي تخرَّج الأدب الحديث على يدَيه، طه حسين، يُواجه حملةً ضارية من المجاهيل الضائعين، يريدون هدمَ مجده، ونسفَ ركنه، ومحو الشامخ من بنائه، ويصيح بهم الحق أنَّ ما سطَّره التاريخ لا يمحوه الصغار، ولا حتى الكبار.

وهذا شاعر الأجيال الحديثة جميعها شوقي يعتدي على عرشه الهوف والحمقى، ومدَّعو الشعر، يريدون أن ينزلوه عنه، ويجذبوه من قمته التي لم يقتعدها شاعرٌ قبله، ولا شاعرٌ بعده، هناك في زاوية الشعر العربي كله، ووسيلتهم إلى ذلك كلامٌ لا هو من الشعر ولا هو من النثر، ولا هو شكل ولا هو معنًى، وإنما ترجَّح بين السقم والضحالة، وبين العي والفهامة، وبين العجمة والفصحى، وبين العربية باللفظ والغربية بالفكر والانتماء.

زمانٌ أجرب اتخذ الملبس الأجرب لقيمٍ جرباء، ولفظٍ أكثر جربًا.

الفن فيه صوتٌ لا يؤدي معنًى، ونغمٌ ناشز، وصخب في غير حلاوة، وضجة في غير طرب.

يقول المغني الهذاء والسخف، والألفاظ التي لا تُركِّب جملة، والحروف التي لا تُكوِّن لفظًا، فتنسكب عليه أموال الإعجاب، ويصبح اسمه علمًا على عصره. وقد وافق فنُّه طبقَة وتلاءم غناؤه وتفاهة الزمن، وتواكبا واصطحبا واشتُهر غليظ الصوت بجمال النغمة، وأصبحَت الحشرجة طربًا، والقبح حسنًا والخرف فنًّا.

زمانٌ سقطَت فيه القيم وعلا فيه الانحطاط، وهان فيه الرفيع من شيمنا، وساد فيه الدنيء من أخلاقنا.

وسقطَت المثل الرفيعة؛ ليحيا المال وحده بغير عِنان من شرف يلوي به عن السرف، أو مسحة من ضمير توقف جبروته وطغيانه، فهو وحده المعبود، وهو وحده السيد المتصرف، بطانته الجهل والجنس والجبروت، والتكبر بلا كبرياء، والترفُّع بلا رفعة، والتطاول بلا طَول، والاعتداء على كل مقدَّس، والقتل لكل فضيلة، أو فاضل. والبُعد كل البُعد عن المرحمة، والحب والإنسانية، ولا أقول النورانية، فهيهات.

لهم الله المؤمنون المحسنون من أبناء العصر؛ فلولا إيمانُهم بالله عميق، لم يَبقَ فيها من خير، ولتركوها مختارين رافضين أن ينتظروا حتى يطويهم ما أصبَحوا يتوقون إليه، لينقلهم هناك عند عزيزٍ رفيع السموات، صاحب العرش والكرسي، حيث تُرعى عنده — وعنده وحده سبحانه — حرماتٌ شاء أن تُصان، وإنها ببعض قليلٍ من عباده مصونة، وإن رَغِم أنف الزمن الأجرب.

الحرية مسئولية الفرد

إنَّ أعباء الحرية على الفرد لا مثيل لها في الدكتاتورية؛ ففي ظل الدكتاتورية يقول الديكتاتور للشعب بالعمل لا بالإعلان لا شأن لك أيها الشعب بدولتك، اعتبر نفسك مفصولًا عني كل الانفصال، أنت أيها الشعب لك أن تأكل وتشرب وتتزوج، وتجد ضرورات حياتك التي لا غنى لك عنها، حتى تبقى حيًّا على ظهر الأرض، أمَّا الدولة فلا شأن لك بها مُطلقًا. أنا الديكتاتور المسئول وحدي عن الدولة، وعن أموالها أُنفِقها بالصورة التي تطيب لي، وأنا وحدي الذي أُحدِّد صلات الدولة بالدول الأخرى، فأنا لي أن أسُب الدولة ورئيسها، ولي أن أُسالم، ولي وحدي أن أُحارب، وأنا وحدي الذي أُعلن هذه الحروب، وأنا وحدي الذي يعرف مدى فائدتها، أو أضرارها، وأنا أعلم أنكَ أيها الشعب ستُقدِّم لي أبناءك لأقتلهم في ساحة القتال، ولكن ما العجب في ذلك؟! إن الموت هو النهاية الطبيعية لكل المخلوقات، فأي بأسٍ أن أُحدِّد أنا الموعد الذي يموت فيه مَن أشاء مِن أبناء شعبي؟ وأعلم أن الحرب ستُكلِّف الدولة أموالًا لا طاقة لها بها، ولكن أنا المسئول عن أموال هذه الدولة جميعًا، فقد أبيع أرصدة الذهب بها، وقد أستدين لأحارب، وقد أقبل السلاح المُتخلف بأثمان السلاح المتطوِّر. كل هذا شأني أنا وحدي وليس شأنك.

وما دمتُ قد سألتُكَ في استفتاء، وقبلتَ أن أكون رئيسكَ فحتمًا عليك أن تترك لي وحدي حق التصرف في حياتك ومماتك، وما دام الموت والحياة أصبحا من حقي؛ فإنَّ حرية الأفراد — من باب أولى — من خالص حقي أحبس ما أشاء، وأعتقل من أشاء، وأُثبِّتُ حكمي بكل الوسائل التي أراها صالحة لذلك، وإن أدى ذلك إلى أن يعتدي أعواني على الأعراض، وما دمتَ قبلتَ أن يتعدَّى أعواني على الأعراض فمن الطبيعي — من باب أولى — أن أُصادر أموال من أشاء، وأمنع من أشاء عن العمل، ومن حقي — لا شك — أن أمنع أي إنسانٍ في

الدولة أن يُفكِّر ما دمتُ أنا أفكِّر، وما حاجتك أيها الشعب إلى التفكير ما دمتُ أنا أفكِّر لك، وأنا أفكِّر لك بموجب الاستفتاء الذي خوَّلتَني به هذا الحق، ولستُ أقبل منكَ أن تدَّعي أن هذا الاستفتاء قد تم بالقهر والقوة والجبروت، وإن ادَّعى أحدٌ من الشعب ذلك فمن حقي أنا الشعب، فأنا — كما تعلم — أنا الشعب، أن أُنزل به ما أشاء من عقاب.

وهكذا يُصبِح الشعب في ظل الدكتاتورية مُتخففًا من كل الأعباء، وهو لا يستطيع أن يقول رأيًا حتى ولو حاول ذلك، ولهذا لم يكن عجبًا أن يلجأ الكُتاب — وهم صوت الإنسان وروَّاد الحرية في كل العصور — إلى كتابة ما يريدون قوله بالرمز في أي شكل يستجيب لهم، وكم من مقالة كانت رمزًا! وكم من رواية! وكم من قصة! أما الشعب فقد كانت لغته مختلفة عن لغة الكُتاب، كانوا يُطلِقون النكتة ليُعبِّروا بها عن رأيهم فيما يقاسونه من أهوال.

وكان الإعلام في الدولة يصدر عن لسانٍ واحد، لا يختلف في ذلك جريدة عن جريدة، كما لا تختلف الصحافة عن الإذاعة المرئية، أو الإذاعة المرئية عن الإذاعة المسموعة، كانت كلمة واحدة لكل يوم، وأينما قلَّبتَ وجهكَ فلن ترى إلا هذه الكلمة، وأينما حوَّلتَ فلن تسمع إلا هذه الكلمة، وكل كلمة يقولها الديكتاتور هي الشعار وهي الحكمة، وهي الرأس، وهي الأول والآخر، وهي كتاب التفرُّد بالحكم ودستوره وآياته.

تلك هي الدكتاتورية، وكل ديكتاتورية إلى زوال؛ لأنَّ الديكتاتور مهما يكن عاتيًا طاغوتًا جبارًا لا يزيد على إنسانٍ يقع عليه ما يقع على الإنسان؛ فهو ليس الأحد، ولا هو الصمد، وهو يلد وهو يُولد، إذن فهو يموت وتجري عليه قواميس الحياة، كما يُجريها ملك الناس، إله الناس، القاهر فوق عباده.

وحينئذٍ تعود الحياة إلى الحرية، وهي في عودتها ذات صخب وضجيج، وذات أصواتٍ مرتفعة، تكاد تحسب أنها لن تهدأ أبد الدهر.

ومع الصخب والضجيج تُشاع الحدود، ويصبح الإنسان الذي عاش فترة من عمره مَقْصيًّا عن شئون الدولة، مطالبًا أن يتدخَّل في كل شيء سواء عنده أن يكون عالمًا بما يتكلَّم فيه، أو غير عالم، المهم أن يتكلم. وهنا تتضح الحقيقة الكبرى، فإذا كانت المسئولية في ظل الدكتاتورية على الديكتاتور وحده، فإنها في ظل الحرية والديمقراطية مسئولية كل فرد من الشعب.

والمسئولية ذات أصول لأن للحرية أصولًا، والحرية بلا أصول فوضَى عارمة تُؤدِّي بمصالح الدولة إلى الخراب.

وأوَّل هذه الأصول أن يكون كل فرد مُلتزمًا بالقانون، والقانون حق وواجب، فإذا حاول الفرد في ظل الحرية أن ينال حقه ولا يؤدي واجبه مالت الموازين في الدولة جميعًا.

ومن أصول الديمقراطية أن يحاسب الإنسان نفسه على كلمة يقولها، أو يكتبها؛ لأنه بكلمته التي أصبحَت حرة يخاطب الشعب كله، بل وشعوب العالم أجمع؛ فالدولة اليوم لا تعيش وحدها، وإنما الذي يجري بها يُؤثِّر في مجريات الأمور في شتى أنحاء العالم. ونوجِّه هذا الحديث إلى بعضٍ من الذين يحاضرون الناس، ويعلنون أنهم يُعبِّرون عن رأيهم هم، ولا بأس بهم في ذلك، ولكن لا بد أن يكونوا على درايةٍ وافية بما يعلنون، وإلا رفضَت الحرية ما يقولون، والحرية هنا هي الشعب.

إننا نحن الكُتاب أحرار من كل القيود الخارجية، ونحن في نفس الوقت مقيَّدون بقيود نفرضها على أنفسنا هي في ذاتها أعظم ثقلًا من قيود العالم أجمع. إننا مقيدون بثقة الناس في أشخاصنا وفيما نكتب. ونحن نعلم كل العلم أننا إذا كتبنا حرفًا من غير اقتناعٍ شريف به عفيف، فإنَّ الناس ستفقد ثقتها في كل ما نكتبه.

ونحن نعلم أنَّ الثقة في الكاتب لا تتكوَّن إلا في عشرات السنين، وأن هذه الثقة نفسها قد يفقدها الكاتب في لفظةٍ واحدة يشعُر القراء أنها صادرة عن غير اقتناعٍ نقي في نفوسنا.

فإذا قُدِّر لكاتبٍ منا أن يتولى منصبًا فعلى الكاتب حتمًا أن يكون رأيه مرتبطًا بهذا المنصب، فإذا أراد أن يسترد حريته فعليه أن يستقيل، فلا يُقبل مثلًا من مدير مكتب وزير الاقتصاد أن يُحاضر في ندوةٍ عامة، أو يكتب مقالًا في جريدة يختلف فيه مع الوزير، مُدعيًا أنه يُعبِّر عن رأيه الخاص، فإن أحدًا لن يُصَدِّق أنَّ ما يقوله إنما هو رأيه الخاص. لقد فقد الحق في أن يكون صاحب رأيٍ خاص معلَن يوم قبل وظيفته في مكتب وزير الاقتصاد، فإذا أراد أن يقول رأيه الخاص فعليه أن يستقيل أولًا؛ لأن رأيه هذا قد يقلب موازين الاقتصاد في الدولة كلها.

إن الحرية المتاحة في أمريكا واسعةٌ فضفاضة، ولكننا لم نسمع أنَّ موظفًا عامًّا قال رأيًا وادَّعى أنه رأيه الخاص، وليس رأي المنصب الذي يُمثِّله، وإن قال فإن أحدًا لن يُصدِّقه، وعلى كلٍّ فإن هذا لم يحدُث قط ولن يحدث أبدًا.

فليس الأمر مجرد رأيٍ يُقال إنما هو سياساتُ دولةٍ يقوم عليها اقتصادها ومستقبلها، ومستقبل صِلاتها مع دول العالم أجمع، ومستقبل صِلاتها مع الشركات العالمية بهذه الدول وصِلات الأفراد بها أيضًا.

إنَّ للحرية حدودًا إذا اختلطَت أصبحَت فوضى، وإن الحرية تُعطي الشعور بالإنسانية لأفراد الشعب، وتمنحُه عظمة الإحساس بالانتماء للدولة التي يعيش تحت سمائها، وهي في نفس الوقت تفرض عليه واجباتٍ، ولكل وظيفة حقوقها وواجباتها.

فالذي نقبله من الموظف العادي لا نقبله من القاضي مثلًا. لا يستطيع القاضي أو أعضاء النيابة أن يظهروا في المحلات العامة بمظهرٍ غير لائق، ولا يجوز لهم ما يجوز لغيرهم من لهوٍ ومُتَع. إنَّ المجتمع الذي وهب لهم الاحترام فرض عليهم الوقار والاحترام واحترام الذات.

والطبيب الذي يدخل بيوت الناس إذا عُرف عنه أنه صاحب نساء مثلًا سقط قَدْره، وما يفعله كل إنسان ممارسًا لحريته لا يستطيع الإنسان الذي أصاب بعض الشهرة أن يفعله.

لكل وظيفةٍ في الحياة حدودها التي يتحتَّم على شاغلها أن يقف عندها، ويظل دائمًا حرًّا كل الحرية، إذا وجد أن القيود التي تفرضها عليه وظيفتُه أكثر مما يُطيق، فإن له بتوقيعٍ واحد منه أن يترك هذه الوظيفة إلى غيرها، يستطيع أن يتحمَّل واجباتها وقيودها وكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له.

هل هم منتهون؟

للقلم وجمة، وبعد الحادثات يسود صمتٌ فيه ألم، وفيه تفكير، وفيه ذهول، ويصيب القلمَ في أيدينا وجوم؛ فهو ذو نبض وذو حياة. ومن كان ذا نبضٍ وذا حياة يصيبه الوجوم كما يصيبنا. وماذا أنت قائل لقومك اليوم؟ أما الأحداث فقد تناولَتها الأقلام جميعًا، ولم يعُد في جنباتها مجال للقول إلا أن يكون القول وجومًا، وهمومًا، وحزنًا، ومع الوجوم يثور التفكير ويغتلي. وننظر في الجرائد القومية التي صدَرَت بعد الحوادث فنجدها على حالها، وكأنها لم تشهد الأيدي الخائنة تُحرِّك النفوس الجاهلة، وتُعاوِد تشعل الفتنة في أرجاء مصر جميعًا.

أعداء مصر الملحدون المنتمون لغير ترابها الداعون لغير حبها، تتصدَّر صورهم وأحاديثهم بعض الجرائد القومية.

وكأن لم يكن بالأمس القريب حريقٌ هم مشعلوه بأحاديثهم وكتاباتهم قبل أن ينشَب، وهم الذين أشعلوه بخيانتهم وبمؤامراتهم في الليل. وسيلتهم إليه الرشوة الحقيرة، ينهالون بها على نفوسٍ مأفونة، لا علم لها يقف بها عن الشر، ولا خُلق لها يردُّها عن التمرُّد، ولا كرامة لها تمنعها عن الرشوة، ولا وطنية لها تَزعُها عن إشعال الحريق في وطنها، ولا عقل يذودها عن أن تُحرق نفسها في عملٍ انتحاري جماعي، فما أحرق هؤلاء الغوغائيون إلا أنفسهم، وهل مصر إلا هم لو كانوا يعقلون؟

وتُطالعني صفحاتُ الشيوعيين في الجرائد القومية، يُحلِّلون ويتحلَّلون، ويُفلسفون ويُناعمون، وينافقون في غير خجل، ويكذبون في غير حياء، ويقولون غير ما يعتقدون، في تبجُّح لا يأتي إلا لقومٍ باعوا إيمانهم بالإلحاد، وباعوا أوطانهم بالخيانة، ولا ألوم إلا الجريدة التي تسمح لهم؛ فالصحف اليوم في عصر الحرية هي المسئولة وحدها لا تقف على كتفَيها سلطة، ولا تتخلَّل أصابعها رقابة من خارجها، وإنما ضمير الجريدة وحده هو الفيصل، والحسُّ السياسي هو صاحب القرار.

فليقل الشيوعيون ما شاءوا أن يقولوا في صحفهم، وما هي بالقليلة العدد، أمَّا أن يفرضوا علينا في جرائدَ تنتمي بجميعها إلى مصر، فتلك كبيرةٌ لا تُغتفَر. وهم يعلمون أنَّ هذا الذي يفعلون أثار نفوس الناس في مصر جميعها، وأثار مخاوف المهتمين بشئون مصر في خارجها، سواء من أبناء مصر أو كانوا من الذين يُفكِّرون في القدوم إليها، ليستثمروا أو ليجعلوا من ربوع مصر وآثارها مكانًا لسياحتهم الآمنة، أو لسباحتهم التي تريد أن ترى آثار مصر، التي يعتبرها العلماء متحف العالم أجمع.

هم يعلمون ذلك. وكان من الطبيعي أن يعودوا إلى العقل منهم والرشاد، بعد هذه الفتنة الباغية التي شهدتها مصر، ولكن لا عقل ولا رشاد. ولا تزال صفحاتهم كما كانت قبل الفتنة بل هي أشد سوءًا وأكثر سوادًا واحمرارًا، ولكَ أن تختار أي اللونَين شئت.

كان عليهم أن يعلموا أنَّ مصر ترفض هذه الفتنة وتُحاربها؛ لأنَّ مصر وقفَت بجانب جيشها الشرعي، ولم تقف بجانب المعتدين المجرمين الآثمين، كما يتمنى الملحدون المنتمون لغير مصر.

ولو لم يكن الشعب المصري يؤيد رئيسه ويتمسك به لكانت الفرصة أمامه مُواتيةً أعظمَ ما تكون المواتاة، ولأحرقوا مع المُحرقين، ولأتلفوا مع المتلفين، ولدمَّروا مع المُدمِّرين.

ولكن الشعب المصري لم يُحرق ولا هو أتلف ولا دمَّر. والشعب المصري أيضًا لم يتخذ موقفًا سلبيًّا، ولم يبتعد عن الأحداث في غير مبالاة، وإنما وقف المصري عونًا على المفتونين، وعلى المُحرقين، وعلى المتلفين المدمِّرين.

الشعب المصري اليوم يُحس أن مصر بلاده. وما كان ليشعُر بذلك لو كان رئيسه جبارًا طاغية منفردًا وحده بالسلطان، مُبعدًا الشعب عن أي رأيٍ في مصير البلاد.

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية، ويشهد الشعب معي، أنكَ لم تكن في يومٍ ما طاغوتًا، ولا منفردًا برأي، ولا متباعدًا عن الشعب، ولا مُتكبِّرًا عليه.

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية، ويشهد الشعب معي، أنكَ لم تُمسك على شعبك سلاحًا، ولا كنتَ عليه سوط عذاب، ولا حاولتَ أن تخرق الأرض وتبلغ الجبال طولًا.

وأشهد يا رئيس الجمهورية أنك لم تُصعِّر خدَّك للناس، ولا مِلتَ عنهم تهاونًا أو متكبرًا عليهم، بل أنتَ منذ عرفناك ذو تواضُع في غير ضعف، وذو كبرياء في غير تكبُّر، وذو حديثٍ سلس المجرى قريب المأخذ، لا تقف في مجراه صخور من الافتعال أو التصنُّع، أو التخلُّق بغير خلاقك، بل أنتَ دائمًا على سجيَّتك المصرية الأصيلة، إن ثُرتَ فلمصر وليس على مصر، وإن غضبتَ فلشعب مصر ولم تكن غضبتُك يومًا على شعب مصر.

لم نعرف في عهدك أن مصريًّا زَجَّ به الزبانية العُتاة إلى معتقل. وما سمعنا يومًا أن شخصًا قُتل خفيةً عن الناس في أطواء المعتقل، حتى إذا سأل عنه ذووه قيل لهم هرب فهو مجهول المصير. ولم تَستولِ حكومتك على أموال الناس، ولم تتعرَّض سلطةٌ في عهدك لأحدٍ تستلب كرامته؛ فالعرض في عهدك مصون. ولم يسمع أحد أن كلابًا أو آدميين اعتدَوا على أعراض نساء أو رجال باسم الدولة في عهدك المبارك.

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية أنكَ أعطيتَ المعارضة الطريق المفتوح على مصراعَيه، وأن كثيرًا منهم حفروا هذا الطريق بالأكاذيب والإثارة، وبعضهم دمَّره بالافتراء والتآمر والخيانة، فلم تُغلِق يومًا جريدةً معارضة، ولا أنتَ حتى منعتَ جريدةً قومية أن تقول كل ما يَعِن لكُتابها أن يقولوا، بعد أن كانت الأصوات كلها تصدُر عن بوقٍ واحد.

ولقد حذَّرتَ ولم تُهدِّد، وبصَّرتَ ولم تصادر، وكنتَ صادقًا في تحذيرك وتبصيرك، ولكن هل وعى الآخرون الدرس؟ وهل ارعَوى غاويهم أو رشَد سادرهم؟ لا أظن.

أحسبُ يا رئيس الجمهورية أنكَ كنتَ ترى المستقبل يوم قلتَ مراتٍ اخشَوا العواقب، واحرصوا على ألا تُشعلوا فتنةً لن تصيب الذين ظلموا وحدهم.

وهاج هائج المعارضة، ووجَّه بعضهم حديثه إليكَ في محاولاتٍ صبيانية للبطولة الزائفة من أن يختاروا الصدق طريقًا للرأي، والأمانة وسيلة للمعارضة، راحوا يُفسِّرون حديثك أنه تهديدٌ يغاير الديمقراطية والحرية.

وا أسفي لهم فهم لا يعقلون!

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية أنكَ لم ترمِ مصير مصر إلى شَركِ الحروب وأهوالها ومصائبها بغير داعٍ لها إلا الأمل في زعامة أو رغبة في مجدٍ شخصي مزيَّف؛ فأموال مصر في عهدك آمنة في مستقرها، وإن اعتدى عليها لص أو منحرف كنتَ له بالمرصاد. لم تحمِ يومًا قريبًا، وإن كان أخًا، ولا تستَّرتَ على مُعتدٍ وإن كان منكَ في أقرب مكان. ولو أنَّ الشعب قارن بين كل ما سرقه السارقون، وما انتهبه المجرمون في عهد الحرية، وبين نفقات يومٍ واحد في أي حرب من الحروب لكانت المقارنة وكأنها بين إبرة وصاروخ، أو بين نقطة ماء ومحيط؛ هذا إن لم نذكُر الدماء التي نزفَت، والتي هي أغلى ما عَرفَته البشرية.

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية، أنك لم تكذِب الشعب في يومٍ من الأيام، ولم تخدَعه، ولم تَعِد وعدًا أنت تعرف أنكَ لن تُنفِّذه، ولم تُعيِّر الشعب المصري أنه كان بلا كرامة، ولم تُحاول يومًا أن تُهوِّن من عظمة شعب مصر، ولم تستخفَّه أو تَستهِن به.

وأشهدُ يا رئيس الجمهورية، أنكَ منذ تولَّيتَ وأنتَ تعرف أنك واحدٌ منا، يُسعدك ما يُسعدنا ويُضنيك ما يُضنينا، تحيا حياتَكَ في غير سَرَف ولا مظاهر، في كرامةٍ تليق بإنسان، تمشي على الأرض هونًا فلا مختالٌ أنت فخور ولا مثَّال أنت ولا أنت ذو شَره.

لهذا يا رئيس الجمهورية كان الشعب معك لا عليك؛ لأنه يعرف عن يقينٍ أنك معه لا عليه، ولو كنتَ فظًّا غليظ القلب لانفضَّ من حولك، ولما وقف حولك وحول وطنه يذود عن حياضه، ويُدافع عن آماله، ويردُّ الخونة المعتدين في إصرار وثبات وشجاعة وصمود.

ونحن يا رئيس الجمهورية اليوم ننتظر نتائج التحقيقات. وليس لنا أن نقول ما لا نعلم، ولكن من حقنا أن نُفكِّر وأن نستنتج وأن نتوقَّع، وأن نرى المقدِّمات لعلها تصل بنا إلى الحقائق.

إنَّ المتمرِّدين مجرمون لا شك في إجرامهم، ولكن المجرم الأكبر ما زال خافيًا عن العيون، وإن كانت بعض ملامحَ منه بدأت تُطِل علينا. من بين هذه الملامح تلك الجنيهات في جيوب الفقراء الثائرين، من أين جاءوا بها، وكيف توالت أرقامها تصيحُ إنها من مصدر واحد، وما المصدر؟ هذه واحدة من الملامح.

وبعد الملامح التي تدُل على المجرم الأكبر جاءت واقعةٌ عظيمة الدلالة؛ هذه السيدة المصرية العظيمة التي تقفل شباكها، ولم تهرب إلى العمق، من سراديب بيتها، وإنما وقفَت في النافذة تُصوِّر الأحداث، وهي تعلم تمام العلم أن هؤلاء المجانين لو رأَوها أو رآها واحدٌ منهم لكان القتل هو أهون مصيرٍ لها. هذا إذا لم يصحبه حرق لعمارتها كلها، وأهلها وذويها وجيرانها جميعًا.

صورةٌ من حب المصريين لمصر، تحمل صورةً للخونة الذين لا نريد أن نصرِّح بما نستنتجه في شأنهم، وإن كان أمرهم معروفًا للجميع، ولكن الأمر في يد العدالة فمن حقها علينا أن ننتظر كلماتها في ثقة كاملة بأمانتها وذكائها في وقتٍ معًا. وبعدُ فمن حقنا اليوم أن نقول مع شوقي:

أرى مصر يلهو بحد السلاحِ ... ويلعبُ بالنارِ ولدانُها
وراح بغير مجالِ العقولِ ... يُجيلُ السياسةَ غلمانُها
وما القتلُ تحيا عليه البلادُ ... ولا همَّة القول عمرانُها
فأين النبوغُ وأين العلومُ ... وأين الفنونُ وإتقانُها؟
وأينَ من الربحِ قِسطُ الرجالِ ... إذا كان في الخُلق خُسرانُها؟
لقد عبثَت بالنياقِ الحُداةُ ... ونام عن الإبْل رُعيانُها

لا يُخلِف الله وعدَه

أنا من المقتنعين كل الاقتناع أن رئيس التحرير هو وحده المسئول عن السياسة العامة للجريدة. وطبيعي أنَّ رئيس التحرير يعنيه غاية العناية أن تُحقِّق الجريدة التي يرأس تحريرها النجاح الأدبي والمادي معًا؛ ولذلك فهو بطبيعة الهدف الذي يتغياه يُبعِد نفسه كل البعد عن إساءة استعمال الحق المخوَّل له بالقانون وبالأعراف الصحفية.

وأشهد أن إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام من هؤلاء الذين لا يسيئون استعمال حقوق رئيس التحرير. ولعل القُراء لا يحتاجون في هذا إلى دليل؛ فنحن نكتب ما نشاء في حريةٍ تامة، ولكن يحدث — ونادرًا ما يحدث — أن يتصل رئيس التحرير بواحدٍ منا يطلب إليه في أدبٍ جم أن يُخفِّف من حدَّة مقالة أو عبارة، أو قد يحدث مرةً كل عامٍ أو عامَين أو أكثر أن يطلب رئيس تحرير الأهرام أن يكتب أحد كُتاب الأهرام مقالًا آخر غير الذي كتبه. وطبيعيٌّ أن يغضب الكاتب، ولكن هذا الأمر حين يحدث إنما يتصل بالسياسة العامة للجريدة، التي يقع على رئيس التحرير وحده واجب توجيهها. وأنا أدري بما أعرفه من خُلق إبراهيم نافع أي حرجٍ يشعر به وهو يطلب إلى الكاتب هذا المطلب العسير.

ولعلكَ سائلٌ نفسك فيمَ هذا الحديث اليوم! الواقع أنَّ مقالة الأستاذ سيد ياسين التي نُشرَت في صفحة الأدب الأسبوع الماضي، وصلَتْني متأخرة، فبادرتُ بطلب جَمْعها، وعزمتُ في نفسي أن أردَّ على ما جاء فيها اليوم، وكان طبيعيًّا أن أُخبر الأستاذ إبراهيم نافع بما تتجه إليه نيَّتي؛ فكلانا كاتب في الأهرام. ومن الطبيعي أن يكون رئيس التحرير على درايةٍ بما يكتبه كلٌّ منا ردًّا على الآخر، أو تعليقًا عليه. وهكذا رأيتُ — ولأول مرة — أن أُنبئ الأستاذ إبراهيم نافع بما أنتويه من أنني أجَّلتُ ردِّي على الأستاذ سيد ياسين إلى الأسبوع التالي، فإذا هو في أدبٍ جم يرجو أن نُوقِف النقاش عند هذا الحد.

وقد كان الأستاذ إبراهيم من الرقَّة والعذوبة بحيث لم أستطع مناقشته، وصبَّرتُ نفسي وقرأتُ المقال، فإذا الأستاذ سيد يُعفيني من الرد تمامًا، فهو لم يزد في مقاله على أنه صنَّفَني وصنَّف نفسه بالصورة التي يطيب له أن يُطالع بها نفسه. ولو كان الأستاذ سيد ياسين قد تفَضَّل فناقش ما جاء في مقالتي لكنتُ عاودت الكَرَّة، ورجوتُ رئيس التحرير أن يسمح لي بالمناقشة.

ولكن الأستاذ سيد لم يناقشني، وإنما صنَّفَني، فيا أستاذ إبراهيم نافع، أنا إذن أستجيب لطلبك، وأكُفُّ قلمي عن الرد، ولن أُراجعكَ، لا ولن أُناقشك؛ فأنت وحدك المسئول عن مقدار الحجم الذي ينبغي للنقاش بين كُتاب جريدتنا الكبرى.

فلنَضرِب صفحًا عن هذا. ودعونا نلقي نظرةً على أُمنا التي تتجاذبها صراعاتٌ من الشعارات البعيدة عن الحرية، في وقتٍ لا حياة لنا فيه إلا بالجدية، والويل لنا أقصى الويل إذا ظللنا نمضغ الألفاظ الجوفاء التي ألقت بهَزْلها وهُزالها على كُبريات المرافق في حياتنا، فإذا نحن نصيرُ إلى هذا الذي صرنا إليه.

ما بال أقوامٍ يثور ثائرهم وتحفر معاطسهم وتبرق أقلامهم بالترَّهات إذا ذكَر كاتب أو نائب في مجلس الشعب أو الشورى كلمة القطاع العام؟!

أي عفريتٍ كافر خبيث ألقى في رُوعِهم أنَّ مصر تستطيع أن تستغني عن القطاع العام كل القطاع؟ هيهات! قسمًا ما ارتعدَت مفاصلهم، ولا وجلَت قلوبهم إلا بما يعلمون كل العلم ما جرَّه القطاع العام بصورته الحالية من خراب ودمار على الاقتصاد، وأخلاق أبنائنا الذين عملوا فيه، فظنوا أنه مرتع للسرقة والإتلاف والرشوة والاختلاس.

أمَّا القطاع العام كفكرة فلا يُمكن أن يُلغى؛ ففي إلغائه انهيار لاقتصادنا لا شك فيه، ولكن ألا ينبغي علينا وجوبًا أن نجعل منه مصدر كسب لا خسارة، ومورد دخل لا مصرف إنفاق، وإذا نحن لم نفعل فما مصيرنا؟! وما مصير علاقتنا بالدول التي تُقدِّم إلينا الأموال معوناتٍ أو قروضًا؟! أما القطاع العام في ذاته فهو مبدأٌ معمول به في كل الدول الديمقراطية، وما من دولةٍ في العالم تخلو من القطاع العام. وقد درسنا في كلية الحقوق نظام الريجي الذي كان معمولًا به في فرنسا، وقد كانت الدول في ظل هذا النظام تحتكر صناعة الكبريت، وفي ثلث القرن الأخير اتسع حجم القطاع العام في فرنسا اتساعًا كبيرًا، وشمل الكثير بل والكثير جدًّا من الصناعات الكبرى.

وكذلك الأمر في إنجلترا، وكذلك في جميع البلاد التي تعمل في نظام الحكم الحر أو الديمقراطي. ولا أعرف دولةً على وجه الأرض تستغني عن القطاع العام أو ترفضه. ولو أننا استقصينا بالإحصاء لتأكَّد هذا الذي أذهبُ إليه.

وإنما ندعو في مصر إلى أمرٍ آخر بعيدٍ كلَّ البعد عن إلغاء القطاع العام جميعه. إنَّ كل ما نرجوه أن يبحث أئمة الاقتصاد وأساتذته فيما يجدر بالدولة أن تجعل منه قطاعًا عامًّا، وما يجمُل بها أن تتركَه للقطاع الخاص.

وأعتقد أن أحدًا لا يستطيع أن يُناقش أن الصناعات الكبرى لا بد أن تكون من القطاع العام، مثال ذلك الحديد والصلب والغزل والنسيج، وكل ما ترى الدولة بالنظرة الاقتصادية الواعية أنه يُحقق للدولة الفائدة الكبرى. وليس من الحتم أن تتمثَّل الفائدة في الناحية المالية فقط، بل قد يكون بقاء هذه المؤسسات في إطار ملكية الدولة أمرًا يتصل بما هو أهم من المال، مثال ذلك الإذاعة والتليفزيون والتليفونات والسكك الحديدية.

ومن المؤسسات الهامة في مصر، على سبيل المثال لا الحصر، شركات الأقطان التي فرضَت لها الدولة ضريبةً خفية تصل إلى قرابة خمسمائة جنيه على الفدان الواحد، وبطبيعة الحال أصبحَت هذه المؤسسات تردُّ على الدولة مبالغَ خيالية، لا نستطيع بأي حالٍ من الأحوال أن ننقصها من ميزانيتها، وإلا انهار الاقتصاد المصري كله. وهكذا نرى أننا لا نفكِّر مطلقًا أن تنظر الدولة المصرية إلى الدول الأخرى فيما تُبقيه في قطاعها العام، وما تُعفيه منه؛ فليس في العالم الحر — فيما أعتقد — دولة تستولي على محاصيل الأرض بالثمن الذي تفرضه إلا في مصر.

ولكن لا بأس فقد أصبح ضرورةً لا غنى عنها.

فوَلْولةُ المنتفعين وأصحاب اللافتات، وأبناء الشعارات، كلما ذُكر القطاع العام بنوعٍ من التهريج مَرنوا عليه، وأصبح ذلك دأبهم، مرضٌ أصيبوا به، وليس لهم منه شفاء. إذن، فلنتجه بالحديث إلى الجانب الآخر من القطاع العام.

هل حقَّقَت الفنادق ما كان يجب أن تُحقِّقه من أرباح، ومن طيب سمعة، ومن اجتذاب سائحين؟ علم الله أن أميرًا عربيًّا ينزل الآن بأحد الفنادق، ويصرُخ من سوء الخدمات في الفنادق صُراخًا يكاد يصل إلى بلاده. يطلُب الطلب، وتمر الساعات وينساه قبل أن يستجيب له المسئول. وتُرسَل إليه الرسائل، فتظل في حيازة مَن تسلَّمها من موظفي الفندق يومًا ويومَين، قبل أن تصل ليد الأمير أو مرافقيه، والطعام في الفندق لا يُسيغه أحد، إلى غير هذا مما نعلم جميعًا.

ولكن أبناء الشعارات يصرخون حذارِ أن يقترب أحدٌ من القطاع العام، أو يمس ذِكْره بكلمة. يناقشون الإيمان! نعم الإيمان، ويرفضون أن يمس أحدٌ قدسية القطاع العام.

هل قدَّر الله لكَ أن تدخل محلًّا تجاريًّا من محلات القطاع العام؟ لا شك أنكَ فعلتَ. وإني أسألكَ بربكَ — رجلًا كنتَ أو كان القارئ سيدة — هل شعرتَ أن مكانًا ما من مناحي الحياة جميعًا يمتهن إنسانيتكَ كما يمتهن إنسانيتكَ محلٌّ تجاري من محالِّ القطاع العام؟ ولِمَ لا والبائع لا رقيب عليه من ضمير، وهو سينال مرتَّبه سواء اشتريتَ أو لم تشترِ، وليس من أحد في المحل جميعًا يهمه أن يزداد البيع؛ فالمحل يفقد الحافز الشخصي فقدانًا تامًّا.

وأذكُر هذه المتاجر حين كانت بيد أصحابها، وأذكر صيدناوي باشا صاحب محلات صيدناوي، واقفًا على باب المتجر الخارجي، وتمر به امرأةٌ خارجة من المتجر، وهي في الملاءة الملفوفة، وفي يدها طفلها، ويقترب منها صيدناوي بمنتهى الأدب.

– لماذا لم تشترِ شيئًا يا سيدتي؟

وتقول السيدة: لم أجد ما أريد.

– وما الذي تريدينه؟

تقوله له: لقد كنتُ أريد مترًا من قماشٍ مُعيَّن رخيص الثمن. فإذا بالباشا يقول لها في أدب: موجود عندنا. تفضلي معي.

ويذهب إلى القسم الخاص ببيع هذا القماش، ويجد لها ما تريد، ويُنزِل عقابه على العامل الذي استهان بالسيدة وبمطلبها.

اذهب أنتَ اليوم إلى متجرٍ من متاجر القطاع العام، واطلُب شراء أغلى ما عندهم من أي بضاعة، وستكون سعيد الحظ إن وجدتَ إنسانًا يُكلمك كإنسان.

إنني أتصوَّر أن تكون الدولة منتجةً للصناعات الكبرى، ولكن لماذا تكون الدولة وسيطًا بين المصانع والمستوردين والجمهور في نظامٍ يدَّعي الحرية الاقتصادية؟

لقد شهدنا الدولة المصرية تبيع سندويتشات الفول والطعمية. وهكذا لم يكن عجيبًا أن تبيع الكباب والفراخ المشوية.

أيهما أجدى على الدولة أن تكون التجارة حرة وتفرض ضرائبها التصاعدية على التجار، ويدخل الربح المؤكَّد إلى خزائن الدولة، أم تنزل الدولة منافسًا للتجار، وتخسر الخسائر الفادحة التي أصبحَت حديث الناس في العالم أجمع؟

ويتباكى المتباكون على العاملين في القطاع العام! لكم الويل يوم يُحشر المنافقون إلى جهنم وبئس المصير. هل وجد هؤلاء العمال مكانًا في القطاع الخاص وتركوه إلى القطاع العام؟ إنَّ العمال جميعًا يعلمون أن دخلهم في القطاع الخاص سيكون أضعاف ما يتقاضَونه من القطاع العام. وإذا كانت الدولة في القطاع العام تُعيِّن أصحاب الشفاعات، فإنَّ القطاع الخاص يجعل العامل يشعر بأهميته لأنَّه محتاج إليه فعلًا بغير وساطة أو شفاعة.

وبعدُ، فما هذا إلا مثلٌ أضربه، له مئات الأشباه والأمثال. وأساتذة الاقتصاد وجهابذته أقدَر مني على دراسة القطاعات الخاسرة جميعًا. وهم أيضًا قادرون بعون الله على جعل مصارف الخسارة موارد كسب للدولة، لو أننا ردَدنا عنهم الرعب الذي يثيره أصحاب الحناجر الكاذبة والشعارات الملفَّقة، والذين لا عمل لهم إلا تخريب الاقتصاد المصري، ليزرعوا أشجارهم التي لا تنمو إلا في الأرض الخراب! فليعمل الاقتصاديون بحرية العلماء، وشجاعة الوطنيين، وليكونوا على ثقة أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا. بهذا وعد عباده. ولا يخلف سبحانه وعدًا.

حين تتحطَّم الحقيقة

كانت دعوة جمعَت الكثيرين من أصحاب الرأي. وبدأنا نتجمَّع. وكان من أوائل الذين جاءوا صديقٌ صاحب نظرة وعمق. وما إن اجتمع بعض المدعوين حتى بدأ الحديث، وراح الصديق صاحب النظرة العميقة يقول، وقال كثيرًا.

الشيوعيون يسيطرون على وجه الإعلام المصري، وليس الأمر مجرد ظهورهم بعنف وإصرار، وليس هو مجرد إلحاحٍ شيوعي على شعب يكره الشيوعيين، وإنما الأمر أخطر من ذلك، وأجل شأنًا؛ حيث إنَّ الإعلام هو واجهة مصر كلها، وواجهة مصر هو اقتصادها. ويُحدثنا العاملون في السفارات الأجنبية أنهم يتابعون كل ما يُقال في الإعلام المصري في شتى المناحي، وهم يكتفون بالأخبار؛ ولذلك فهم يُدهشون لماذا يتجه الإعلام هذا الاتجاه الشيوعي؟ الأدب الآن شيوعي ومُسيطر، وهذه أشياء لها دلالاتٌ خطيرة، وخاصة على الاقتصاد، وعلى الشباب الذي لم يختر بعدُ طريقة، وهذا الشباب يريد أن ينتشر وسيُضطَر أن يتلوَّن بالشيوعية؛ ليجد أمامه المجال مفتوحًا للنشر.

ولم نجد بدًّا أن نُوافق القائل في كل ما قال؛ فجميع الحاضرين كانوا يشعرون بأن الذي يقوله هو الحقيقة الكاملة.

ويعود إلى الحديث:

وهكذا حين اطمأن الشيوعيون إلى مكانتهم في الإعلام المصري، تفشَّوا في الجامعات تفشيًا لم يتمتعوا به في حياتهم كلها، ولا أظنهم يتمتعون به في أي دولة من دول العالم. وها هم أولاء يتاجرون بمصر، ويستغلون الأحداث الفردية التي لا تحمل أي مدلول؛ ليُقيِّموا الأبطال وليجعلوا أنصارهم يُحرِّكون الاضطرابات كل يوم. ويذيع زملاؤهم من العملاء في المحطات الأجنبية الأكاذيب، ويُهوِّلون من شأن التحركات الطلابية، ويجعلون منها ثوراتٍ شعبية. وهذه التصرفات كلها متصلة الحلقات، فيؤيدهم فيها أعداء الحكم،

والطامعون فيه، والحاصلون على الأموال من الدول التي تُكِنُّ لمصر الديمقراطية كل عداء، تلك الدول التي تنفق في سبيل إثارة القلاقل في مصر الأموال المجنونة في انهمارٍ لا ينقطع سيله. ويُحاول هُواة البطولات الزائفة أن يركبوا الموجة ويبلغوا من هواياتهم البطولية، ما يُتيحه لهم المتطرفون من الملحدين وغير الملحدين. وليس يعنيهم أنَّ الناس منهم يسخرون، وهم يجعلون أنفسهم أشبه بالقراقوزات ويبتعدون بتصرفاتهم الرعناء السخيفة عن ساحة الساسة المحترفين. وهكذا تَرونَ أن كل هذه الأمور لم تأتِ عفوًا، وإنما هي مؤامراتٌ حُبكَت عُقدتُها بأيدٍ متمرسة في حبك المؤامرات. وهل هناك أكثر تمرُّسًا من المتطرفين، ملحدين وغير ملحدين، في حبك المؤامرات؟ ولا يستطيع أحدٌ منا أن يناقش ما يقول صديقنا؛ فجميعنا يرى أنَّ ما يقول صدقٌ لا شك فيه، وحق لا يحتمل النقاش. ويعود إلى القول: ويزداد الأمر سوءًا حين نجد من يمتدح أيامَ الطغيان، والاعتداء على الأعراض والأنفس والأموال، بل إن بعضهم يُهدِّد من يحاول أن يتنقَّص من عظمة هذه الأيام وجلالها، ويقول في وقاحةٍ لم نَرَ لها مثيلًا في العالم: كأن الاعتداء على الأعراض والأموال وعلى الأنفس قد وقع على كل فردٍ في مصر! وهو يعلم أنه ما دام قد وقع على فردٍ واحد، فكأنما وقع على مصر جميعها. وأذكر أنني قرأتُ كتابًا لكاتبٍ فرنسي يُقدِّس نابليون بونابرت، ويُعجب به في كل ما صنعه، ولكنه حين يصل إلى الحرية يقول إن بونابرت كان طاغية، إلى درجة أن عدد الصحفيين الذين اعتُقلوا في عهده كان أربعين صحفيًّا. وأذكُر أنَّ الكاهن الأكبر لعهد الطغيان في مصر دافَع عن عهده في جريدة الأهالي قائلًا ما معناه: ما هذه الضجَّة الكبرى التي يضجُّونها عن المعتقلين؟ إن كل الذين كانوا في السجن عند وفاة الرئيس الأسبق لم يتجاوزوا الأربعة عشر ألف سجين! ويأتي الكاتب الآخر المدافع عن أيام الطغيان، فيرى أنه ما دام الاعتداء على الأعراض والأنفس والأموال لم يقع على كل فردٍ من أفراد مصر فهو مقبولٌ مباح لا عيب فيه، ولا ضرر منه. وهو بعد ذلك يُهدِّد. ما له لا يفعل وهو ربيب عهد القهر والتهديد؟!

ويصمتُ الجميع ولا يجدون شيئًا يجبرون به إلا الأسى والحزن. ويعود الصديق إلى الكلام: ويزيد الأمر سوءًا أن الأحكام حين تصدُر لا تُنفَّذ من فورها، فيحسب المجرمون أنهم يستطيعون أن يتمادَوا في غيهم ويمرحوا ما شاء لهم إجرامهم. ونسمع عن لصوصٍ سرقوا المال، وتتطاول السنوات قبل أن نسمع خبرًا عن مواجهتهم، ثم نجدهم يتحصَّنون بشتى الحيل حتى يُؤجِّلوا مواجهة القضاء. والقضاء نفسه بطيء، ولعله الجهة الوحيدة المعذورة في هذا البطء؛ فالعاملون في السلطة القضائية هم أقل بكثيرٍ مما يُعرض عليهم،

ولكن هذا البطء يجعل الشعب يتململ، ولا يستطيع أحد أن يلومه، إذا ظن أن العقاب لا يقع على من يستحق في الموعد المعقول. والأدهى من ذلك أن التراخي في مواجهة اللصوص يُشجع الآخرين على قبول الرشوة حتى أصبح الأمر ظاهرةً عامة، الاستثناء فيها يدعو إلى الإجلال والإكبار، وغاية الاحترام. وقد كان ينبغي أن يكون عكس ذلك، فتكون الأمانة هي أصل، والرشوة هي الاستثناء. وأنتم تعرفون كم يُؤثِّر هذا على سمعة مصر عند المستثمرين، كما تعرفون أن الاستثمار يُعتبر هو العمود الأول في آمالنا الاقتصادية اليوم. ونوافق، ويستطرد الصديق: فإذا نظرنا إلى الصحف المعارضة نجدها تذكُر وقائع بذاتها الإجابة عليها إذا لم تكن حقيقة غاية في البساطة واليسر، ولكن لا تقرأ تكذيبًا، فإذا نُشر فهو يستخفي في خجل، وكأنه هو الأكذوبة. تُرى ألم يصبح الشرف للذمة أمرًا ذا أهمية، وأصبح الحفاظ على نقاء السمعة أمرًا لا يستحق أي عناء؟ فإن يكن الأمر كذلك — وكم أرجو ألا يكون — فما لنا لا نقرأ إلا تكذيباتٍ نادرة، وتظل الاتهاماتُ فادحةً تُصيب كرامة الكبار الموظَّفين في مقتل دون أي تكذيب؟ وقبل أن يُتِم الصديقُ حديثه؛ فقد كان يبدو أنه يحمل في جعبته أكثر مما أفضى به، أقبل أحد الوزراء كان مدعوًّا إلى مكاننا هذا، وجاء متأخرًا كعادة الوزراء، كان الله في عونهم، يشهدون من المناسبات ما تنوء به العصبة ذات العدد. ولم يُكمِل الصديق الحديث بطبيعة الحال، وانتقل الكلام إلى موضوعاتٍ أخرى، ووجدتُ الصديق يقول حديثًا غير الذي كان يقول. ولم أعجَب؛ فمن الطبيعي في دعوةٍ اجتماعية وليست سياسية ألا نحاول أن نُسيء إلى أحدٍ من المدعوين؛ فهم إنما جاءوا جميعهم لينسوا أعمالهم، ويُروِّحوا عن أنفسهم، فليس عجيبًا أن يحاول الجالسون جميعًا أن يختاروا من الأحاديث ما لا يُثير جدلًا. وتَفرَّق الحديث بددًا، وأخذ كلٌّ منا بطرف. وبعد أن كُنَّا جميعًا أذنًا واحدة نسمع ما يقول الصديق، أصبحنا آذانًا وألسنة، وتناسَينا مآسينا العامة والخاصة، وسمرنا، وانصرف كلٌّ منا إلى شأنه.

صديقنا هذا ليس كاتبًا وليس صحفيًّا، ولكنه يكتب في الصحف من حين إلى آخر مقالاتٍ يُشارك بها في الرأي العام. قرأتُ مقالًا نشره بعد اجتماعنا هذا.

وما أعجَبَ ما قرأتُ له!

إنه يقول في مقاله أشياء تتناقَض كل المناقضة مع كل الذي قاله لنا في أُمسيتنا تلك. إنه يخاف الشيوعيين والمتطرفين، وينافقهم، وبالقطع هو لا يخاف الحكومة؛ فالحكومة اليوم أصبحت لا تخيف أحدًا. ويلٌ لنا من أنفسنا إذن.

إذا كان الفلاسفة قالوا إن الحقيقة لا بد أن تكون واحدة، وإذا كانت اليوم قد أصابتها قنبلة النفاق، فأصبحَت جُذاذاتٍ وقِطعًا صغيرةً متناثرة على شتى الأفواه، وفي كل جهات العالم.

وإذا كانت الحقيقةُ اليوم عاجزةً أن تكون واحدةً في مفهومها العام.

فلا بد، لا بد، أن تَظلَّ الحقيقة واحدةً بالنسبة للشخص الواحد. كيف تكون الحقيقة شتى حقائق بالنسبة للشخص الواحد، وكيف يستطيع شخصٌ واحد أن يُعِد حقيقةً لحديث الأصدقاء، وحقيقةً أخرى لحديث المسئولين، وحقيقةً ثالثة للنشر في الصحف وعلى الناس؟

أين الحقيقة يا أخي وما نقول جميعًا؟!

وإذا كان أصحاب الرأي لا يحافظون على الحقيقة الواحدة فمن يحافظ؟!

تولَّاني حزنٌ شديد وأنا أقرأ مقال الصديق؛ فأنا لا أتصور أن شخصًا له علمه يصنع بنفسه هذا الذي صنَعه.

ماذا هو قائل إذا التقى بي أو بأحد الذين شَهِدوه وهو يقول آراءه الصريحة الصادقة في ليلتنا تلك؟

أغلبُ الأمر أن أمثال هؤلاء لا يعتمدون على حياء الآخرين؛ فأنا لا أستطيع أنْ أقولَ له مواجهة أيُّها الصديق أنت منافق، ولكنني لا شك أستطيع أن أنقل أمره إلى النَّاس جميعًا، وأحتفظ باسمه لا أذيعه في هذه المرة، ولكنني أشفع الحديث بتهديد. لا تأمن أيها المنافق أن أذيع اسمكَ إذا تكرَّر منكَ ما رأيت؛ فإن أصحاب الأقلام مسئولون أن يُقدِّموا الحقيقة كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة إلى قُرائهم وإلى التاريخ في وقتٍ معًا.

وجهان لعملةٍ واحدة

كنتُ أحسبُ أن الكتابة في موضوعٍ ينبغي ألا تزيد على مرةٍ واحدة أو مرتَين على أكثر تقدير. وكنتُ أحسبُ أن المهتمين بالحياة العامة يتابعون عن كثبٍ ما يكتبه الكُتاب، ولكن يبدو أنني كنتُ ساذجًا في حُسباني هذا غاية السذاجة. والدليل على ذلك كتبتُ مرةً عن صلة بالأدب والسياسة فلم تكفِ، ووجدتُ من يُجادلُني في هذا الشأن، فكتبتُ ثانية فلم ينتهِ الجدل، فكتبتُ ثالثةً واعتقدتُ أنني وفَّيتُ الموضوع حقَّه في جميع أبعاده، وأنني لن أجد من يُناقِش هذا الأمر مرةً أخرى معي على الأقل.

ولكن خذلَتني الحقيقة، وتبيَّنتُ أنني كنتُ فيما أظُنه واهمًا؛ فقد فاجأني أستاذٌ فاضل من أكثر الناس صلةً بالحياة العامة، بل هو من العاملين في غمارها، بل لا عمل له إلا هذه الحياة العامَّة؛ فهو كاتبٌ مُتمكِّن، وصحفيٌّ ذو مكانة، وأنا من المُعجَبين بما يكتُب، ومن المُعجَبين به صديقًا وإنسانًا وصحفيًّا.

فاجأني صديقي برأيٍ له عن الصفحة التي أشرُفُ بالقيام بأمرها في الأهرام؛ فهو يقول إنك تكتبُ في هذه الصفحة السياسية، بينما القُراء ينتظرون أن يقرءوا فيها أدبًا، ومساحة السياسة في الأهرام ضخمة، بينما الأدب ليس له إلا نصيبٌ قليل، وصفحتُكَ تُمثِّل جانبًا ضخمًا من هذا النصيب، فإذا كتبتَ مقالاتكَ في السياسة أسهمتَ في إضعاف هذا النصيب.

وناقشتُ الصديق، ثم رأيتُ أن حُجتي ينبغي لها أن تكون للناس كافةً وليس للصديق وحده.

وبادئ ذي بدء، أنا لستُ أستاذًا جامعيًّا أكتُب في الأدب الخالص؛ فإن أحدًا لا ينتظر مني أن أكتُب فصلًا في خصائص الشعر الجاهلي، أو أكتُب مقارنةً بين الأدب في العصر العباسي الأول وبين الأدب في العصر الحديث.

كما أن أحدًا لا ينتظر مني — وأنا الروائي والقصَّاص — أن أكتُب فصلًا في نقد رواية أو مجموعةٍ قصصية. وحين أفعل ذلك أدخُل في ميدانٍ ليس لي؛ لأنَّ النقد حين أكتُبه أفعل ذلك عن تذوُّقٍ شخصي، وليس عن المبادئ الأكاديمية. وأنا نفسي كاتبُ روايةٍ وقصة، ومن الطبيعي أن أكون من بين المتعرِّضين لنقد النقَّاد، وليس من المفروض أن أكون أنا نفسي ناقدًا.

والواقع أن المقالات النقدية القليلة التي أكتُبها هي على سبيل التنويه، وليست على سبيل النقد المنهجي المتخصِّص؛ فلهذا النوع من النقد أساتذتُه المهيَّئون له بثقافتهم ودراستهم وطريقهم الذي اختاروه في الحياة. وإذا كان بعضهم يميل مع الهوى، ومع الصداقات، ومع المذاهب الأيديولوجية التي يعتنقها، فهذا لا ينفي أن للنقد أهلَه. وإذا كان أغلبهم لا يقوم بواجبه من متابعة الأعمال الأدبية التي تظهر في حياتنا، فهذا لا ينفي أن للنقد كُتَّابه.

ومن المؤكَّد الذي لا شكَّ فيه أنني لستُ من بينهم. والآن أعود إلى صديقي الذي دهمَني برأيه، فأي نوعٍ من الأدب الخالص تُريدني أن أكتب؟

أنا أعرف.

الذي ينبغي لي في ميدان الأدب الخالص، ولا ينبغي لي غيره أن أكتب رواية.

وأحسبُ يا صديقي أنني لا أتكاسل عن هذا ما أسعفَتني الفكرة؛ فالرواية ليست بحثًا، وإنما هي فكرةٌ تطرقُ ذهن الكاتب، ويظل بها وتظل حتى يرى أنها تصلُح أن تكون رواية فيكتبها.

والذي ينبغي لي في ميدان الأدب الخالص أن أكتبه قصةٌ قصيرة أو صورةٌ قلمية. وأحسبُ يا صديقي، أنني أفعل ذلك ما وافَتني فكرة القصة أو الصورة القلمية، ولكن الأمر ليس يسيرًا. وأنا في هذا الشأن لستُ مطلق الإرادة، إنما أنا أتلقَّى الفكرة وحيًا، فإن لم تأتِ فهيهاتَ لي أن أكتُب افتعالًا، أو تَعسُّفًا، ولكن الأمر يا صديقي أخطرُ من هذا وأجلُّ شأنًا، كيف استطعتَ وأنت تعمل في الصحافة وفي الأدب أن تضع هذه التفرِقة بين الأدب والسياسة؟

إن الأدب إذا انفصل عن السياسة أصبح أدبًا ميتًا غير جدير بالوجود؛ فالأديب شاهدٌ على عصره، والأديب أديبٌ بأسلوبه في كل موضوعٍ يتناولُه.

والأديب حين يكتب الرواية سياسي، وهو حين يكتب القصة، بل إن الأديب هو الناقد السياسي أيضًا؛ لأنه حين ينقد الرواية ينقدها في ظل الحياة الاجتماعية التي تُصوِّرها، والحياة الاجتماعية سياسة.

السياسة هي كل الحياة التي يعيشها الأديب في كل بابٍ من أبواب الأدب، يكتُب هذه الحياة، ويُترجمها إلى الناس، إلى الذين يُعايِشونه، وإلى الأجيال القادمة جميعًا. وعميد الأدب العربي كتب مقالاتٍ سياسية صريحة، ثم هو سياسي حين كتب أحلام شهرزاد، والمعذَّبون في الأرض، وشجرة البؤس، والأيام، ودعاء الكروان، وأُدِيب. وهيكل باشا من الزعماء السياسيين، وصل إلى الزعامة السياسية بأدبه وحدَه، وهو أديبٌ سياسي حين كتَب كُتبه الإسلامية، وأديبٌ سياسي حين كتب روايته. إن رسم المجتمع سياسة، وآمال الأديب في الحياة سياسة.

والعقاد ما رأيك في أدبه السياسي؟ ألا يَكفيك اسمُ العقاد مثالًا رائعًا على اندماج الأدب بالسياسة؟ فعبقرياته أدبٌ سياسي، ومقالاته الصريحة في السياسة أدبٌ سياسي، وكُتبه في البحث أدبٌ سياسي. ولا يستطيع الأدب إلا أن يكون سياسة أم هو غير كائن.

وتوفيق الحكيم أديبٌ سياسي منذ كتَب أهل الكهف حتى يومنا هذا. وقد كانت له في أخبار اليوم مقالاتٌ سياسية أسبوعية، وروايته كلها سياسية؛ منها الصريح الذي لا شك فيه؛ مثل شجرة الحكم، والسلطان الحائر، وإيزيس، ومنها ما تتوارى فيه السياسة خلف الرمز؛ مثل بنك القلق، والورطة، والصفقة، وكل رواياته لا أستثني منها شيئًا؛ فمسرح المُجتمَع كلُّه سياسة؛ لأنَّ السياسة هي المجتمع، والمسرح المنوَّع كلُّه سياسة. حتى وإذا تركنا هذا الجيل إلى الجيل التالي له.

أليست روايات نجيب محفوظ كلها سياسة؟! فماذا تكون إذن؟ إن منها الصريح مثل ميرامار، والثرثرة، والحب فوق الهضبة، وأمام العرش، ومنها غير الصريح، وكلها تتناول المجتمع الذي هو السياسة.

إن مجال السياسة هو المجتمع ومجال الأدب هو المجتمع، فلا يمكن أن يكون بينهما انفصالٌ بأي حالٍ من الأحوال.

إن ما كتَبه عبد الرحمن الشرقاوي في الأدب التاريخي سياسة، وكل مسرحياته سياسة، فليس عجيبًا أن يكون مقاله الأسبوعي في الأهرام سياسةً أدبية.

هو سياسةٌ أدبية وأدبٌ سياسي في وقتٍ ومعًا. إنَّ الأسلوب الذي يكتُب به الأدباء في السياسة لا يتأتى إلا لأدباء، وهذا هو الأدب السياسي.

وأرجع معك إلى شوقي، أليست رواياته سياسية؟ وعزيز أباظة أليست رواياته سياسية؟ واستَعرِض معي بعض ديوان شوقي. إنه تاريخ مصر في عهده قدَّمه إلى الأجيال شِعرًا. اقرأ معي لشوقي:

أُمَّ المالكين بني أمونِ ... ليهنكِ أنهم نزعوا أَمونَا
ولدتِ له المآمين الدواهي ... ولم تَلِدي له قَطُّ الأمينَا
فكانوا الشهبَ حين الأرضُ ليلٌ ... وحين الناسُ جِدُّ مُضلَّلينَا
مشَت بمَنارِهم في الأرضِ رُومَا ... ومن أنوارِهم قبسَت أثينَا

واقرأ معي لشوقي في وداع كرومر:

أيامكُم أم عهدُ إسماعيلَا ... أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا؟
يا مالكًا رِقَّ الرقابِ بباسِه ... هلَّا اتخذتَ إلى القلوب سبيلَا؟
لمَّا رحلتَ عن البلادِ تشهَّدَت ... فكأنَّكَ الداءُ العَياءُ رحيلَا

وبعدُ، فماذا أنت قائل؟ هذه المقالة التي قرأتَها الآن أليسَت أدبًا؟ إنها أدب ولكنها أيضًا سياسة. إنهما وجهان لعُملةٍ واحدة لا ينفصلان.

غُربة الزمان والمكان

ما هكذا كُنا، ولا هكذا كان الزمان، ولا كانت مصر، ماذا دهانا؟ وماذا أَلَمَّ بالزمان والمكان جميعًا؟ لقد عايشنا هذا الزمن واختلط ترابُ مصر بكل ذرة من كياننا البشري، فاختلَط بالقلب منا، وبالمشاعر، وبكل شهيقٍ لنا أو زفير.

ما هكذا كُنا. لم يخلُ زمنٌ من الأزمان من شِرارِ الناس وخِيارِهم، وقد بدأَت الجريمةُ من عهد قابيل وهابيل، ولكن بدأَت معها التوبة أيضًا، وعَرفَت الجريمة منذ ذلك الحين الأسفَ والندم؛ يقول سبحانه وتعالى في سورة المائدة، في الآيتَين ٣٠، ٣١: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

ولكن الجريمة اليوم أصبحَت تتبجَّح في غير خزي، فلا هي تعرف التوبة ولا الخجل ولا الندم .. كانت الجريمةُ تتوارى في أستارِ الخفاء، فإذا هي اليوم تُسفِر عن وجهها في ضياء العلَن، وفي وقاحة الاستهتار. وكان المُجرم إن ارتكب عملًا يُنافي ما استقر المجتمع على احترامه يُخفي فعلتَه، ويواريها كما وارى قابيل سَوْءة أخيه، فإذا هو اليوم .. يفضَح ويكشف ما استَتر، ولا يُبالي أن يعرف الناس عنه ما ارتكَب.

وتشهدُ مصر صُحفًا تُقدِّم في كل يوم ولفترةٍ استطالت أسابيعَ متصلة، أحاديثَ واعترافاتٍ عن سفَّاحٍ قاتل، وكيف يقتُل ضحاياه، وكيف كان يُعذِّبهم، فلا المجرمُ السفَّاح يخجل، ولا الصحُف تعودُ إلى الرشد منها.

وتشهدُ مصرُ اللصوصَ ينهبون الأموال العامة نهبًا ضاريًا لا يستحون؛ فهم يصرخون في الناس معلنين أنهم لصوص، وأنهم خانوا الأمانة التي استأمنَتهم عليها دولتُهم، والتي

سلَّمها الشعب إليهم، وأنهم ليس يَعْنيهم أن يعرف الناس جميعًا ما اختانوا وما استلبوا.

وإن صُراخَهم ليتَّصل في السرايات ذات القلاع يسكنونها، وأبناء الشعب لا يجدون حُجرة يُظِلُّهم سقفُها، وفي السيارات ذات الفُجور يركبونها، ويغدُون بها ويروحون في وضح النهار وفي مفضوح المجاهرة، وأبناء الشعب لا يجدون موضعًا لقدمٍ في وسائل المواصلات العامة، وهم يصرُخون بإثمهم بالملابس الفاخرة يرتدُونها، وبما يشترون من أدوات التسلية ذات الأسعار التي أصابها السُّعار.

لقد انقلَب هؤلاء الآدميون إلى ذئابٍ ضارية تنهش في غير رحمة، وتسرق في غير مبالاة، وتقتلع جذور الإنسانية، في وحشية لا تجرؤ عليها الوحوش وهي الوحوش. وقد تتوارى الوحوش وهي تأكل الفريسة في حين يُعلِنون هم جُرمَهم بكل وسائل الإعلان.

وإذا الزمان غيرُ الزمان، وإذا المكان غيرُ المكان.

لقد كانت الأزمان تجعل المجتمع يرفُض هؤلاء القتَلة، ويحقرُهم، ويرفضُ أن يُوسعَ لهم مكانًا أيَّ مكانٍ في القِمَّة منه أو في القاع.

كان الناسُ يرفضون أن يعرفوهم أو أن تقوم بينهم وبين هؤلاء أي صلة.

أمَّا اليوم فهم القِمَّة، وهم الصدارة، وهم بأموالهم المُنتهَبة ذؤابةُ المجتمع وَسَادتُه، لا يرفضُهم أحدٌ بما عربدوا، وبما قتلوا من ضمير، وما اجتَثُّوا من أشجار الكرامة والخُلُق الرفيع. وكأنَّ المكان في مصر يضيق بهم، فتزحَف أموالهم التي سرقوها إلى رقابهم يختنقون بها، وتُصبِح عليهم وبالًا ونقمة، غابت عنها نعمة الثراء. وما المال بغير مجتمعٍ يُوقِّر صاحبَه من مكانته شيئًا مذكورًا.

أمَّا اليوم فالمكان موسَّع لهم غاية السَّعة، وهم في كل محفلٍ لهم من المكان موضع الصدارة، والناس تتصايح بأفضالهم، وتتغنَّى بأمجادهم، وتسكُب عليهم سيول المديح، والإجلالُ والإكبارُ والمفاخر والتهليل لهم — لا عليهم — يُحيط بهم، ويسبقهم في كل مكان.

ويلٌ للزمان من الزمان، وويلٌ للمكان من المكان.

أصبح الشرف غريبًا في مصرَ طريقِ الأنبياء، ومنارة الأديان، ومصباحِ الهدى، ومُلهمةِ الوحي على مدى الأزمان، وفي كل مكان. كان الكُتاب في مصر ثروتَها وغناءَها وأنشودتَها وكلمتَها. وكان الكُتاب مثلًا يقدرون حقَّ الأمانة التي يحملونها. وكان الكاتب إذا نافق أو

اعوجَّ سَيْره، أو مال به الطريق، ينصرف عنه الناسُ غاضبين غضبًا قد لا يُبدونه لغيره؛ فقد خذَلهم وحطَّم الثقة التي شرَّفوه بها.

وأنظر اليوم فأرى كثيرًا من الكُتاب يقولون ما لا يفعلون، ويُبشِّرون بالطهارة وهم غارقون في العفَن، ويدَّعون الأمانة وهم يخونون أقلامهم، ويتصايحون بحب مصر وهم يطعنونها بأسلحةٍ شرسة فتَّاكة في صحفٍ لا تصدُر فيها، مُستغلِّين النفوسَ الحاقدة على مصر، مادِّين أيديَهم لأعداءٍ لا عمل لهم إلا عداوة مصر، يتربَّصون بها الدوائر، ويحلُمون بأوهام المخابيل أنهم بما يفعلون سيتمكَّنون من حُكم مصر التي هي مصر، وما بالُهم لا يحلُمون ما دام بعض الكُتاب يُبارِكون أحلامهم، ويُصوِّرنها لهم على أنها أفكارٌ معقولة مؤكَّدة التحقيق؟!

ونسمع أن فئاتٍ من المصريين يعقدون اتفاقاتٍ مع بعض المتهوِّسين من الحكام أنهم سيُمهِّدون لهم الطريق إلى زعامة مصر، ليُصبحوا بعد ذلك زعماء العالم العربي أجمع. ويُقدِّم هؤلاء الخوَنَة المصريون معسول الكلام، ويُقدِّم أولئك الحكام أموالَ شعوبهم التي فرضوا أنفسهم أوصياءَ عليها بقوة السلاح وبغير شرعية حق.

وإذا الزمان غيرُ الزمان، وإذا المكان غيرُ المكان.

ويرى الشاب هذا الهَولَ ولا يجد المثل الأعلى الذي سمع عنه، بل يرى اللص يُحيط به التمجيدُ والإجلال، والخائن تُصفِّق له الأيدي.

وتنقلب أمام الشبابِ أملِ الغد موازينُ الأمور.

والوقت عصيب، والمال يُسيطر على حياة الناس بشراسة لم يعرفها التاريخ؛ فحين يُبارك المجتمع السرقة، والخيانة، وانعدام الشرف، تُصبِح الصورة أمام الشاب مطموسة المعالم، مشوَّهة السمات؛ فالشرف الذي عَرفَه من الكتب يراه مُشوَّهًا في الحياة، وقد حلَّت مكانه كل نقيصةٍ كان المجتمع فيما مضى يزدريها ويرفضها، فكيف نريد لهذا الشاب أن يكون عمادَ المستقبل ودعامةَ الآتي من حياة مصر؟

لكل زمنٍ مفاخره ونقائصه، ولكن النقائص كانت تنزوي خجلًا وتتباعد عن النهار، وتتخفَّى في أطواء الظلام، وكانت المَفاخر شهيرةً جهيرة، واضحة المعالم، بيِّنة المعارف، يمتدحُها المجتمع، ويتغنَّى بها الشعراء والكُتاب.

ولكن زماننا هذا انقلبَت فيه المعايير، أصبح الذي يرتكب المعاصي يهتفُ بها، ويصنعها وهو جهير الصوت، فخورًا سعيدًا فرِحًا.

وأصبح الشريف يتوارى خجلًا أنه يأبى أن يسرق، ويعفُّ عن المال الحرام، ويمنع نفسه أن تقبل ما ليس لها.

نحن في زمانٍ يشربون فيه الخمر علنًا، ويقيمون فيه الصلاة سِرًّا، نحن في زمانٍ يسرقون فيه وتهتفُ لهم المظاهرات والمظاهر، ويعفُّون فيه في الخفاء، حتى لا يرميَهُم المجتمع أنهم أغبياءُ سُذَّج جهلوا الدنيا وضلُّوا طريقها الذي يؤدِّي بهم إلى الثراء والعظمة والسعادة والهناء.

إنَّ الدين الحنيف يأمر بالصلاة؛ لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلا وربك لا يُرضيني التهوُّس الديني والإرهاب باسم الإسلام الحنيف، وإنما يرضى المجتمع حين يرى المعاصي تخجل، والشرف يعلو، وليس يرضى المجتمع حين يرى من يدَّعون الحفاظ على الإسلام يشهرون السلاح، ويُريدون أن يركبوا الدين مطيةً إلى عَرَض الدنيا.

فلَأَن تعفَّ نفسٌ واحدة وتسمو عن المخازي أكرمُ ألفَ مرة من أن تتكوَّن جماعاتٌ تريد أن تحكُمنا في دُنيانا باسمِ دِيننا الذي نفديه بالأرواح، وهم أبعدُ ما يكونون عن الدين وزمانهم أيضًا. الدين الإسلامي صلةٌ مباشرة بلا وساطة بين المسلم وربه، حتى ليقول سبحانه لنبيه: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ فإذا كان النبي وهو النبي ليس بمسيطر، فبأي حقٍّ يريد هؤلاء أن يُسيطروا علينا، وعلى مقادير أمورنا؟ ويل للزمان من الزمان! حتى الدين وهو الدين لم تتركه النفوس الجشعة، وتُريد أن تتخذ منه، وهو الرحمة المُطلَقة، سلاحًا للعُدوان والقهر والإذلال.

غرباءُ نحن في هذا الزمان، وغرباءُ نحن في هذا المكان، ولكننا سنَصعَد وستنجلي الغُمَّة. وعَمَّا قريب ستعتدل الموازين، ويعود الشرف إلى قمَّته، ويذهب الزبَد جُفاء.

فإن ربك لا يُخلف وعدَه، وهو غالبٌ على أمره، وهو ناصر دينه وما غَرسَه هذا الدين من سُمو وعظَمة وكبرياء.

أطفال

لكِ الله وحدَه يا مصر أم الأمجاد، ويا واهبة الحضارة للتاريخ، ويا مَشْرق العلوم والفنون والآداب! وما هذا الذي يُحيط بكِ اليوم حتى بعد أن زالت وانكشفَت عن سمائك سُحب القهر والدمار؟

إنَّ أبناءكِ حتى اليوم لا يزالون يعيشون في هذه الأيام المريرة من حياتك، تُسيطر عليهم بالسلب حينًا وبالإيجاب حينًا آخر.

وإلا فما هذا الذي تصنعه بعض الصحف؟ وما هذا الذي به يعبثون؟ أتُراهم قد جهلوا أن هذا الهذر الذي يهذرون لا يُصيب إلا مستقبل مصر وحريتها وغدها وآلامها؟

هل هانت مصرُ عليهم فجعلوا منها لُعبةً لأقلامهم؟

لكِ الله وحدَه يا مصر!

لقد غابت الحرية عن حياتنا فترةً سوداءَ حالكة السواد، ثم عادت. وكُنَّا نحسب أنها حين تعود سنكون أهلًا لها، وكُفئًا لأعبائها، رجالًا في حُريتنا، شِدادًا في الحق، مترفِّعين عن الصغار، متباعدين عن الهوى، متعفِّفين عن السقوط.

فإذا بعضٌ ممن أتاحت لهم الحرية صدور الصحف يُذكِّروننا بالطفل الأهبل الذي نال بعد طول الحرمان لُعبةً جديدة، فلا يزال بها يستخدمها في غير ما أُهِّلَت له، ويُجريها في غير طريقها، ويقذف بها ذات اليمين وذات اليسار، حتى تتحطم. وينسى الطفل في سذاجته وجهله أنه هو، هو نفسه، أوَّل الباكين عليها، ويُذهَل عن نفسه ذهولًا أرعن، مأفونًا، ناسيًا أن هذه التي حسِبَها لُعبةً قد تتمخَّض عن قنبلةٍ تنفجرُ فتصيبه هو أول ما تُصيب، ثم تُصيب معه أهله وبيته أجمعين.

ما لهؤلاء الكُتاب يلعبون ويلهَون ويعبثون، والوقتُ جِدٌّ كل الجد، والأمرُ خطيرٌ غاية الخطورة؟ والشدة التي تمُر بها مصر تحتاج إلى العزم كل العزم، والحزم كل الحزم، وهي في غنًى كل الغنى عن ثرثرة المخابيل وهُراء المهازيل.

إنهم يريدون — وبكل الجهد يريدون — أن يُزحزِحوا مصر عن حريتها، ويريدون — وبكل الجهد يريدون — أن تستعمل السلطة إجراءً استثنائيًّا. ويَسعَون أشد السعي أن يصدُر أمرٌ بمصادرة وآخرُ باعتقال، وهيهات! خاب سعيهم فهو إلى بوار، ولن يكون هذا.

إنهم اليوم أصحابُ أصواتٍ عالية، وسيوفٍ يُحسُّون أنها باترة. وأُناشِدهم اللهَ والحقَّ والوطنيةَ أين كانوا أيام المعتقلات تفغر أفواهَها، تَلتهِم أبناءَ مصرَ في غير مرحمةٍ ولا مُسالمةٍ ولا حتى تفكير.

وإنهم اليوم يُهدِّدون بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويُحسُّون أنهم بهذا الذي يهرءون يهزُّون أعمدة الديمقراطية، التي لا تزال مصر تهفو إلى تثبيتها، وتعميق أسسها. ولو أنَّ رئيسَ الجمهورية شخصٌ آخر لما جَرُءوا أن يقولوا ما يقولون، ولا فكَّروا أن يكتبوا ما يكتبون، ولكنهم يعلمون أنَّ حسني مبارك ثابتٌ كالجبل الأشم يكبرُ على الصغار، ويعلو على الوهاد، وإذا مَرَّ باللغو مرَّ كريمًا، وإن خاطبه الجاهلون قال سلامًا.

يُطالبون فيما يُطالبون أن يترك رئيس الجمهورية رئاسة الحزب، ولعمري أي ديمقراطيةٍ تلك التي لا ينتسب فيها رئيس الجمهورية إلى حزب؟ فلينظروا إلى ديمقراطيات العالم الرئاسية أجمع، أليس كل رئيس دولةٍ فيها ينتمي إلى حزبٍ من أحزابها؟! فأي عجبٍ أن يكون رئيس جمهورية مصر رئيسًا لحزبٍ مصري؟

ويقولون — ولا أدري أيُصدِّقون ما يقولون أم هو اللغو — إن الحزب الديمقراطي لا يمثِّل الشعب، فكيف السبيل إلى معرفة رأي الشعب، إن لم يكن بالانتخاب؟ وإن الانتخاب بالقائمة بالذات هو أصدق معيارٍ على رأي الشعب في الحزب نفسه. في حين نجد أن الانتخاب الفردي يختار الشخص لشخصه في أغلب الأمر دون النظر إلى حزبه، والاختيار في هذا النوع من الانتخاب يتم للصِّلات الشخصية والمنافع الفردية. وأقرب مثالٍ على ذلك يوم اتُّهِم أحد أعضاء المجالس النيابية بالاختلاس، وأدانته المحكمة الابتدائية، وتقدَّم إلى الانتخابات، فكان النَّاخبون يهتفون: حرامي حرامي لكن بنحبه والله، والله. أهذه الديمقراطية التي يريدون؟

وإن قالوا إن الحزب الديمقراطي ليس له تاريخ أو جذور، فأبسط ما يُقال لهم: وكيف تريدون له جذورًا أو تاريخًا بعد أن انعَدمَت الديمقراطية؟! وقُتلَت الأحزاب في مصر لمدة ربع قرن؟ وكيف كان يمكن للديمقراطية أن تعود إلا بأحزابٍ جديدة؟

ورُبَّما وافقتُهم أن الحزب الجديد ينبغي أن تكون له مبادئُ واضحة المعالم محدَّدة السمات، جليَّة الملامح، ولكنَّنا ما زلنا في خطواتنا الأولى من الديمقراطية، ولا بد — مع الأيام — أن يصبح للحزب الوطني مبادئه ومعالمه وسماته.

ونسألهم: أين أنتم من المبادئ؟ وكيف تُطبِّقونها وأنتم الحزب الذي نشأَت دعائمه منذ أكثر من ستين عامًا؟

طلبَت الحكومة رأيَكُم في الدعم، وكيف يصل إلى مستحقِّيه، فتكتَّمتم عن إبداء الرأي، ولُذتُم بتُرَّهاتٍ وحُججٍ منهارة دون أن تفكِّروا في مصلحة مصر، ولا في موقفها الاقتصادي، وأصررتُم أن تدَّخروا رأيكم وتحتفظوا به، حتى تُعارضوا أي قرارٍ قد تتخذه الحكومة في هذا الشأن. وكان الأحرى بكم أن تؤيِّدوا الحكومة كل التأييد فيما تفكِّر فيه؛ لأن هذا المذهب الذي تذهب إليه الحكومة يتفق كل الاتفاق مع مذاهبكم وآرائكم، التي تدَّعون أنكم تعتنقونها. وحين تكلَّم أقوامٌ عن مجانية التعليم في المدارس والجامعات، كان رأيكم غمغمةً مبهَمة، وكلامًا معجمًا، يسوده الحرص كل الحرص على المُعارضة لوجه المعارضة، وليس المعارضة من أجل مصر.

وبدلًا من أن تُحاربوا الإصرار على بقاء الخمسين في المائة من العمال والفلاحين في المجالس التشريعية، ومجالس الإدارات، رحتُم تُوجِّهون أسهمكم إلى الأشخاص، وليس إلى الأفكار، وتحتسبون أنفسكم أبطالًا دون بطولة في الهجوم على رئيس الجمهورية، وأنتم تعلمون كل العلم أنَّه لن يُصادر لكم جريدة، ولن يحبس قلمًا، ولن يعتقل أحدًا؛ فهكذا هو، هكذا تعرفونه. وعلى الرَّغم من وثوقكم بهذا — أو لأنكم واثقون من هذا — رُحتُم تُهاجمون بسيوفٍ ورقية، وجعلتُم من أنفسكم أضحوكةً بين الناس.

ثم أنتم — ويا لَلعَجَب — تطالبون بإلغاء حزب الأغلبية. أليس لكم وازعٌ من عقل أو منطق؟! كيف تظنُّون أنه يمكن أن يصدُر أمرٌ بإلغاء حزب الأغلبية والإبقاء في الوقت نفسه على أحزاب الأقلية؟

ألا تُدرِكون أنكم بهذا الذي تُطالِبون به تفتحون بابًا واسعًا لإلغاء الديمقراطية جميعًا؟ أتُراكم إلى هذا تَسعَون؟!

احذَروا أنفسكم واذكُروا مصر؛ فإنكم بما تصنعون تعملون جاهدين على أن تُدمِّروا الديمقراطية تدميرًا كاملًا. ولو لم يكن رئيس الجمهورية كالجبال الرواسي لكان جوابه عليكم غير هذا الذي تشهدون.

بعدَ هذا الذي تصنعون بمصر، فإنكم لستم منطقيين مع أنفسكم، ولا مع مبادئكم، بينما أرى الشيوعيين والناصريين منطقيين مع أنفسهم ومع مبادئهم.

فهاتان الفئتان إذن تسيران في الطريق الطبيعي للمبادئ التي تدينان بها؛ فالشيوعيون يعلمون أنْ لا حياةَ لهم مع الديمقراطية، وإن نادَوا بها فما يُنادون بها إلا ليقتُلوها ويُجهِزوا عليها.

والناصريون يريدون أن يعود الطغيان والجبروت، والحُكم العاتي ذو الظلام الدامس والإرهاق والعنَت، ليعودوا هم إلى السلطان وامتصاص دم الشعب، وأكله حيًّا أو ميتًا.

الفئتان في طريقهما الذي اختارتاه.

أما أنتم فتسيرون في عمايةٍ من طريقكم، وعلى مبادئَ غير التي تدينون بها، وترفعون شعاراتٍ غير الشعارات التي ينبغي أن ترفعوها.

وقد عرفتُم الظلم وذقتُم عَلقمَه، وطحنكم الطغيان فيما طحن، فأفيئوا إلى الرشد منكم، وكونوا من الذين اتقَوا، والذين قال عنهم الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

ولا تنسَوا قوله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال (٢٥): ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (صدق الله العظيم).

حريقٌ وكوبُ ماء

أحسبُ وأنا أخشى أن تكون الحكومة وقد أصدرَت البيانات الطوال بضرورة الإنتاج، وحتميته، قد اطمأنَّت أنَّ الناسَ سيُسارعون إلى الإنتاج، وأنَّ كل شيءٍ سيسير في نَهجه الأمثل. هيهات!

أنا لم أجد في حياتي شيئًا الجهدُ المبذول فيه لا يأتي بثماره قَدْر هذا الذي يُسمُّونه بالتوعية.

كم من أموالٍ أُنفقَت في سبيل التوعية بعواقب زيادة النسل والانفجار السكاني، وما يصحبه من أهوالٍ في الغد، من ضيق في العيش، ومن تقتير في الرزق! وكم قالوا انظر حولك، وانظر أمامك، وانظر خلفك! فكانت النتيجة مزيدًا من الانفجار السكاني. ولعل التوعية صنعَت عكس ما أُريد منها، فذكَّرَت مُنصرِفًا عن زيادة النسل فجعلَته يزيده حين كان لا ينوي أن يزيده.

والناس لا تُحب النصيحة. والذي يستنصحك إنما يريد أن تؤيِّده فيما استقر عليه هواه، فإن كانت نصيحتُك تؤدِّي إلى غير ما يميل إليه بحث عن ناصح قال فيها إن النصائح هي أثقل الطيبات على النفوس وهو مُحق.

لن تجد عاملًا يستغل ما أتاحَتْه له قوانين العمال من إجازات، ومن تهرُّب، ومن قعود عن العمل، يترك هذا جميعه ويُسارع إلى ما تفرضه عليه الأمانة وشرف المعاملة، ويُقبل على العمل الإقبال المفروض فيه؛ استجابةً إلى النداء الصادر من الحكومة أو من غيرها. لا شيء يردُّ السادر المنصرف عن الجدية في الحياة إلى الطريق القويم إلا القانون. أمَّا التي يُسمُّونها بالتوعية فلا خير فيها مطلقًا.

إنَّ العامل حين يتهرَّب من العمل ويدَّعي المرض، ويستنفد إجازاته جميعًا، يعلم كل العلم أن الذي يصنعه لا يتفق مع الأمانة، ولكنه يصنعه مع ذلك، وهو مستعدٌّ أن يبذل

نُصحَه لجميع الآخرين أن يقوموا بواجبهم خير قيام، ولكنه يستثني نفسه؛ فالإنسان يعتقد أنه دائمًا استثناءٌ من القاعدة. إنه هو ... وهل في العالم أجمع مثله؟! هو فلتة الطبيعة. وهو الاستثناء الوارد على مخلوقات الله. وهو يَحِق له ما لا يَحِق للآخرين.

فأيُّ توعيةٍ تُوجَّه إلى هذه الأنانية يعتقد هو أنها أصلًا تُقال للآخرين، ولا تُقال له هو؛ لأنه هو يعرف كل شيء، ولا يُحيط إنسانٌ بما يعلمه هو.

ولَمَّا كان الله هو الذي برأ النفوس وخلقها، فإنه يعرف مخلوقاته بكل ما يتذبذب في جوانحهم من هواجس. وهكذا أرسل سبحانه كِتابه إلى العباد بالوعد والوعيد والإنظار والأمل.

لأنه يدري أن الإنسان لا يسير على الهُدى إلا خوفًا وطمعًا. والآيات التي تَعِد الإنسان بالفوز بالجنة وبالنعيم كثيرة، والأخرى التي تتوعَّد الإنسان بالنار والعذاب كثيرة.

ولكني أختار من بينها قولَه تعالى في سورة الأعراف (الآيات ١٦٥ وما بعدها): ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ صدق الله العظيم.

والله سبحانه وتعالى كان يستطيع أن يضع مخلوقاته جميعًا على الجادَّة، ويُلزمَهُم الطريقَ القويم، ولكنه جلَّت مشيئته أراد أن يحمل الإنسان الأمانة ويختار، وأرسل إلى الناس رسله يُبشِّرون بكل ما في الجنة من هناءٍ لم تَرَه عين، وما سمعَت بمثله أُذن من قبلُ، ويُنذرهم بالسعير والغسلين والزقُّوم لمن لم يخشَ الوعيد.

فالبيانات إذن التي تدعو إلى زيادة الإنتاج ثرثرةٌ فارغة، لن يستجيب لها أحد؛ فكل الذين يعطِّلون الإنتاج يدركون جريمتهم التي يرتكبونها، وهم في غير حاجةٍ إلى هذه الدعوة إلى زيادة الإنتاج. وما لهم لا يستلبون من الدولة ما أباحه القانون من إجازاتٍ تزيد على مائة وعشرين يومًا في العام، وأغلبهم يعتقد أن ما يُسرق من الحكومة والقطاع العام حلالٌ مباح؟! فمال الحكومة عندهم سائبٌ لا صاحب له!

إنَّ القوانين التي تحكُم العُمال عندنا لا مثيل لها في العالم. وإني لأعجب كيف نريد أن تنهض الصناعة عندنا في ظل هذه القوانين! وأقرأ ما يكتبه المتخصِّصون من أن عمال

العالم أجمع يعملون ثماني ساعاتٍ في اليوم، ومنهم من تصل ساعاتُ عمله إلى عشر ساعات، بينما لا يُكمِل العاملُ عندنا العملَ الساعةَ ونصفَ الساعة في اليوم.

وكيف نريده أن يعمل وهو يعلم أنه لا رئيس له.

في أي دولة في العالم يُفصَل رئيس مجلس الإدارة في توقيع قلم، ولا يُفصَل العامل المسيء الكسول غير المنتج؟ بل إن الوزير، وهو الوزير، يُبعَد عن الوزارة في غمضة عين، بينما لا يستطيع الوزير أن يفصل أي عاملٍ في وزارته، أو المصانع التابعة لوزارته.

الوزير تُحاسبه المجالس النيابية، والعامل لا حسيب عليه ولا رقيب.

وأذكُر قصةً رواها لي مديرٌ عام لمصلحة السكك الحديدية، استقال منذ بضع سنوات، وكان معروضًا عليه العمل في شركةٍ أجنبية بمرتَّبٍ يفوق مرتَّبه عدة أضعاف، واستدعاه رئيس الوزراء ورجاه أن يبقى، فقال المدير السابق: إنني من أجل مصر مستعد أن أترك المرتَّب الضخم المعروض عليَّ في العمل خارج الحكومة وأبقى، ولكن بشرطٍ واحد.

وقال رئيس الوزراء: ما هو؟

قال: حين عُيِّنتُ مهندسًا بالدرجة السادسة بمصلحة السكك الحديدية، تسلَّمتُ دفتر جزاءات، فإذا وجدتُ أي تقصير أثناء تفقُّدي للآلات والعربات، وقَّعتُ الجزاء الفوري على العامل المقصِّر، واليوم وأنا في أكبر منصبٍ في المصلحة لا أطلبُ شيئًا إلا أن يكون عندي دفتر مثل الذي تسلَّمته وأنا موظَّف أبدأ حياتي في هذه المصلحة نفسها.

وقال رئيس الوزراء: هذا غير ممكن.

واضطُر المدير أن يقول: وأنا آسف. لا أستطيع البقاء في منصبٍ لا مسئولية لي فيه إلا أن أتمتع باللقب دون أيِّ فعالية.

واستقال المدير العام. وأعتقد أن كل الذين جاءوا بعده يريدون أن يقولوا نفس الذي قاله هو، ولكنهم يعلمون أنه مستحيل التنفيذ.

إن عهد الطغيان قدَّم الرشاوى من دماء مصر، إلى التجمُّعات الكبرى، واليوم تُغلق دوننا المسالك.

فإذا قلنا أدرِكوا المجالس التشريعية في مصر، وحافِظوا على كرامة مصر بإلغاء نسبة الخمسين في المائة في مجلسَي الشعب والشورى، وجدنا من يقول هذا مخالف للدستور. وإذا قلنا إن الاقتصاد المصري قد دُمِّر تدميرًا تامًّا بالقطاع العام على صورته الراهنة، والقوانين التي تحكُم العمال، وجدنا من يقول هذا مخالف للدستور.

وإذا قلنا إنَّ مصر قد تدَهوَر التعليم فيها حتى أصبح جهلًا، وحتى صارت الشهادة العالية فيها لا تعني أنَّ صاحبها نال ما ينبغي من التعليم، وإذا قلنا أَدرِكوا التعليم بالمال من القادرين، ومن القادرين وحدهم، وجدنا من يقول هذا مخالف للدستور.

ووسائل تغيير الدستور واردةٌ في الدستور نفسه، فإذا لم يتغيَّر الدستور لإنقاذ مصر فلأي شيءٍ يتغير الدستور؟

الأمر الذي لا شك فيه أنَّ هذا الدستور قد وُضِع من أجل المصلحة العُليا لمصر. وإذا كان الدستور قد وُضِع من أجل مصر، فلا يُعقل أن نُضحِّي بمصلحة مصر من أجل الدستور. وإذا كان ما نُطالب به عدلًا، فالعدل أحقُّ بأن يُتَّبع في الدستور أولًا.

فالدستور هو أبو القوانين، فإذا لم تتحقَّق فيه العدالة فهيهاتَ لها أن تتحقَّق في أي ناحيةٍ من نواحي الحياة.

وإن هذه الموضوعات التي نثيرها أساسياتٌ في حياتنا، ونحن نُدرك الآن الأزمة الطاحنة التي نُواجهُها، فإذا لم نأخذ طريقنا في شجاعة وفي إصرار إلى الأساسيات، فكل الذي يصدُر من قراراتٍ ومن قوانينَ لن يُفيد إلا كما يفيد كوبُ ماءٍ نُلقيه على حريق يلتهم بلدًا بأكمله. ويأبى الله هذا والمؤمنون.

حتى أبطال أفغانستان!

ليس شيءٌ بغريبٍ على الشيوعيين، وقد تعوَّدنا أن يطلُعوا على الناس في كل يومٍ بلونٍ جديد من الجرأة على الحق، والإساءة إلى مشاعر الناس قاطبة، والتهجُّم على العدل الواضح، الذي لا يختلف عليه اثنان، ما دام ليس بينهما من هو صاحبُ غرضٍ أو مائلٌ مع الهوى، أو حائدٌ عن الطريق القويم. الذي لا شك فيه ليس شيءٌ على المُلحد بغريب، وما من شيءٍ منه يدعو إلى الدهشة. وأيُّ تصرُّفٍ يُمكن أن يُثير العجَب من قومٍ باعوا دينهم بالمال، وتخلَّوا عن أوطانهم، ورضُوا أن يكون وطنهم بلادًا أخرى، وانسلَخوا عن جماعتهم، ليُخلِصوا ولاءهم لجماعةٍ أبعدَ ما تكون عن مُقدَّسات جماعتهم ومُثلها وقيمها وأخلاقها؟

ليس شيءٌ بغريبٍ من قومٍ هذا دأبهُم، ولكنني مع ذلك فُجعتُ دهشةً وعَجبًا وأنا أتابع الحملة الجديدة التي يشُنُّها الشيوعيون على أبطال أفغانستان. وزادت فجيعتي وهم يُطلِقون على الشعب الأفغاني الذي يُقاوِم الاستعمار متمرِّدين. أيكون المُدافِع عن حقه متمردًا؟ ماذا يقول هؤلاء الملاحدة؟

إنهم لا يشنُّون حملتَهم على الجيوش الغازية المُعتدية ولا على الحُكم العميل السفاح. لا، ليست على هؤلاء حملتُهم.

وإنما حملَتُهم على المجاهدين الأبطال الذين يقفون بأيدٍ عزلاء أمام الوحوش الضارية الذين يَغْزون وطنهم.

تُرى أتولَّاك العجَب أيُّها القارئ؟ أعرفتَ في حياتك وقاحةً مثل هذه الوقاحة؟ وما أضعفَ الكلمة في وصف هؤلاء المصريين أو الذين يقولون إنهم مصريون وهم يؤيدون الاحتلال، والغزو، والجبروت، وسفك الدماء، والاعتداء على أمن الدول وسلامتها بلا وازعٍ من ضمير أو حياء!

لا يشُك أحدٌ أنَّ الأوامر قد صدَرَت لهم من حزبهم بشَن هذه الحملة الرَّعناء الظالمة الهوجاء على قومٍ يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإن محمدًا رسول الله، ثم يرمون بأنفسهم إلى أتونِ الهَولِ الذي فتَحه عليهم الغزاة.

ولا يشُك أحد أنَّ هذه الأوامر كانت مشفوعةً بالمغريات وبالتهديدات في وقتٍ معًا. ولكن ألم يَبقَ للشيوعيين في مصر بقيةٌ مهما تكن هينةً من خجل؟ أو ظلٌّ مهما يكن واهنًا من حياء؟ أو أثارةٌ مهما تكن واهيةً من الحفاظ على مشاعر المسلمين الذين يعيشون بينهم؟ بل لا يُبالون بمشاعر المؤمنين جميعًا. لكَم قرأنا كتاباتٍ في أزمانٍ مختلفات وفي عصورٍ عديدة، فما وجدنا كاتبًا واحدًا يُدافِع عن الاحتلال والقهر، وغزو الدول المطمئنة الوادعة، فأيُّ كُتابٍ هؤلاء الذين طلَع علينا بهم الزَّمن الأخير، وفي أي مدادٍ يغمسون أقلامهم إلا أن تكون الدماءُ هي مدادهم، والمال المنهوب والرشوة المنهمرة باعثهم، والذي تنكسر أمامه كلُّ مشاعر الإنسانية التي أودعَها الله في نفوس البشر.

يشهد غزو أفغانستان اليومَ العامَ السابعَ له، بعد أن بدأَت روسيا هذا الغزو بجيشٍ قوامُه ثمانية آلاف وخمسمائة جندي، وثمانمائة دبابة، وثلاثمائة طائرة. وما أضخمَ هذه الأعدادَ في مواجهة شعبٍ أعزلَ ليس بيده إلا بنادقُ عتيقة الصنع! ولأن روسيا لا تعرف معنى الإيمان، فقد حَسِبَت أن الغزو لا يستغرق أكثر من بضع ساعاتٍ من نهار أو ليل، ولكن روسيا تجهل أنَّ هؤلاء الضِّعاف أجسامًا هم العمالقة نفوسًا، وأن هذه الأجساد الهزيلة تملكُ قوةً أعظم من أسلحة العالم أجمع.

إنَّ قوتهم هي إيمانهم أنْ لا إله إلا الله، التي تخفق بها قلوبهم، وأنَّ محمدًا رسول الله، التي تجري بها دماؤهم في العروق، وبهذا الإيمان صُدَّ هؤلاء الغُزاة، الزُّحوف الغازية، وبُهت الذي كفر، وإذا الغُزاة الجبابرة يطلبون المدد، ويتوالى المدد إرسالًا فإذا جنودُ الغزو ترتفع أعدادُها ارتفاعًا مُذهلًا؛ فالآلاف الثمانية لا تُصبح عشرة أو عشرين أو خمسين أو مائة، بل تُصبِح مائتَين وثلاثين ألف جندي، وإذا الدبَّابات التي تُحارِب اليوم في أفغانستان تُصبِح ثلاثة آلاف دبَّابة، وإذا الطائرات تُصبِح سبعمائة طائرة. كل هذه الجيوش تُحارِب الحق والحق وحده.

ومع كل هذه الجحافل الضخمة لا يستطيع الغُزاة أن يستَولُوا على أكثر من عُشر مساحة أفغانستان، ويظل المجاهدون المؤمنون محتفظين بتسعة أعشار أرضهم.

وتُرغِم الحكومة العميلة الجيوشَ الأفغانيةَ النظامية أن يُحاربوا آباءهم، وإخوتهم، وأبناءهم. ويُحاوِل بعضٌ منهم أن يرفض هذا القتالَ المفروضَ عليهم مع ذوي قُرباهم،

وأصحابِ الأرض والحق، فإذا بالحكومة العميلة تُرغِمهم إرغامًا ساحقًا أن يستمرُّوا في حرب أنفسهم. وتطلُع علينا وكالات الأنباء بخبرٍ عنوانُه إعدام عشرين جنديًّا أفغانيًّا، رفضوا القتال ضد الثوار.

وتستمر الحرب سبع سنوات، والجيوش الزَّاحفة بكل جبروتها محاصَرة بالإيمان حولها، وتُصبِح كمن مشى إلى رمالٍ متحركة تبتلع كل قادمٍ إليها، ولا تتركه حتى يموت خنقًا فيها. ويزداد السُّعار وتتحوَّل الجيوش السفَّاكة المغلوبة المدحورة من حرب الرجال إلى مُحاربة الأطفال، فإذا هم يُعذِّبون الأطفال، ويقتلونهم أمام أنظار آبائهم، وأمهاتهم. ويذكُر الأفغانيون ما شهده أتباع الرسول من كُفار ذلك الزمان الجاهلي، ويزدادون إصرارًا على التمسُّك بإيمانهم وبأرضهم.

وقد يقول قائلُهم: ولكن عُتاة مكة والمجرمين من أهل الكفر لم يُعذِّبوا الأطفال أمام والديهم. ثم ما يلبثون أن يرتدُّوا إلى إيمانهم: إذن فبُشرانا؛ فبقَدْر الهَول الذي نشهده يكون إكرامنا عند العدل المُطلَق عالِم الغيب والشهادة.

هذه الوحشية التي لم يشهد أي تاريخٍ لها مثيلًا يُباركُها الشيوعيون في مصر بإيعازٍ من شياطينهم، وتتوالى مقالاتهم في أكثر من مجلةٍ تؤيد الغزو، وتتمدَّح به، وتذكُر أفضاله وآثاره العظيمة على البلاد. وهم في حمأة اندفاعهم في المديح لا ينسَون أن يقولوا إن الغزو يعمل على نشر التعليم جميعه، والتعليم الديني خاصة. ولا يذكُرون أن الهاربين من جناتٍ بلغوا في باكستان وحدها ثلاثة ملايين نفس. ولا يهمُّهم ما تتناقلُه وكالات الأنباء عن السرقات، والرِّشى، والاعتداء على الحرمات التي تمارسها القوات الغازية على أفغانستان جميعًا حكومةً وشعبًا.

ما لهم هم وهذا؟ إنَّ الأوامر قد صدَرَت لهم أن يمدحوا وأن يقولوا إنَّ الغزو حمل معه إلى أفغانستان الحياة السعيدة الهانئة، وإنه طبَّق قوانين الإصلاح الزراعي ومبادئ ماركس الخالدة، ووهب الشعب المكاسب الاشتراكية. وتتزايد جُرأتُهم على الحق، فيصُبُّون سخيمتهم على السادات الزعيم الخالد، أنه سلَّم أسلحةً روسية للمجاهدين. ويَرونَ أن هذا الذي صنعه السادات عَملٌ من أعماله الجديرة باللوم؛ فهم اليوم يَرونَ أن كل ما صنعه السادات سيئ حتى مساعدة أصحاب الأرض أن يستردُّوا أرضهم.

ويقول قائلهم: إنَّ الروس اكتشفوا البترول والغاز، وفتحوا لهم العيادات الطبية، وجهَّزوها وأنشَئوا مصانع للسيارات، بل أنشَئوا عشرات المصانع، ونشرَت الجيوشُ المعتديةُ المَحبَّة والسلامَ في ربوع البلاد. إلى غير هذا من المآثر والأفضال التي تعوَّد الاحتلال أن

يدَّعي أنه يفعلها في الأراضي المحتلة. وكلها أكاذيبُ لا ظل لها من الحقيقة. وما يقولها قائل إلا نال ثمَن قولها.

أحسب أن الغيظ قد تملَّكَك مما تقرأ، ولكن ما يهم. المهم أن يتمدَّحوا بالغزو والاحتلال والقضاء على الدين والإيمان وحق الإنسان الطبيعي في أن يعيش آمنًا في وطنه مطمئنًّا. وقد سُمع من يقول وأي عجيبة فيما يصنعون؟! أنسيتَ أنهم أيَّدوا احتلال إسرائيل لفلسطين، هاتفين بحياة روسيا التي كانت الدولة الثانية في العالم اعترافًا بالدولة الإسرائيلية، لم تسبقها في ذلك إلا أمريكا التي ما زالت الوطنَ الأُم لإسرائيل حتى اليوم؟ وهم أنفسهم اليوم الذين يُلصِقون بالسادات العظيم كل ما في قاموسهم من سفالات؛ لأنَّه وقَّع السلام مع إسرائيل، وهم هم أنفسهم أعلى الناس صوتًا في الدفاع عن فلسطين وعن القضية.

متى كان لهم رأي يقفون إلى جانبه أو مبدأ يثبتون عليه إلا الإلحاد بالله ورفض الانتماء إلى الوطن؟

ولا يكتفون بالقول، بل هم يشفعونه بالعمل، ويؤلِّبون العمال في المحلة، وفي شركة إسكو، بعد أن خاب سعيهم في تجمُّعات الطلبة. يريدون لمصر أن يتحطَّم فيها الإنتاج، وأن يعُمَّها الخراب؛ لأنَّ تربتهم هم هي الأرض الخراب. ولولا أن رئيسَ مصر مسلمٌ قوي الإيمان، مصريٌّ عميق المصرية، لطالبوه أن يستدعي الجيوش الغازية في أفغانستان، لتنشُر في مصر الخير والبركات، والسعادة والهناء، التي لا يخجلون أن يقولوا إن الجيوش الغازية قد نشرَتْها في أفغانستان.

ليقُل الشيوعيون ما يشاءون، ولكن أحسب أنه ينبغي أن يقف بهم الأمر عند الكلام، فإذا تعدَّاه إلى العمل، وإلى التسلُّل في الجماعات من عُمَّال إلى غير عمل وعمال، فنحن لهم بالمرصاد؛ فإنَّ الأمر جِدٌّ لا يصلُح معه الهَزْل. وإذا كانوا يركبون الحرية ليقتُلوا بها الحرية، فليكن هذا في الكلام فقط، وهم في هذا الميدان يمرحون ما شاء لهم المرح، حتى لقد طغى صوتهم في أجهزة الإعلام على كل صوت، وهم يقولون في مجلَّاتهم وفي الصحف القومية ما شاءوا أن يقولوا، ولكن الفرق بعيد بين صيحاتهم هذه، وبين أن تُصبح هذه الصيحات عملًا وفتنة تؤلِّب المخابيل البُلهاء على الديمقراطية والحرية التي تنعم مصر بها اليوم.

وإذا كانت الحكومة قد وسَّعَت لهم مجالات الإعلام جميعها، من صحف إلى مجلات إلى إذاعة إلى تليفزيون، فإنَّ على هذه الحكومة نفسِها أن تمنعهم أن يُثيروا الفتنة ويُشعِلوا الثورات.

وإذا كان وجودهم الواضح بالإعلام يُهدِّد الاقتصاد المصري تهديدًا عنيفًا تَدريه الحكومة كل الدراية، فإن الفتنة التي يُريدون إشعالها هي القضاء الكامل على هذا الاقتصاد الذي لا يحتمل اليوم أقل هزَّة؛ فحسبه ما يُعاني، وحسبنا نحن المؤمنين بالله؛ فإنه نعم الوكيل.

لا اقتصاد بغير ثقة

إن رئيس جمهورية مصر رجلٌ نادر المثيل، في طهارة اليد، وشرف الذمة، والبُعد كل البُعد عن مواطن الشبهات. أذكُر أنني كنتُ يومًا في مكتب أحد الوزراء بالمملكة العربية السعودية، فإذا أحد الجالسين يُوجه إليَّ الحديث: أسمعتَ ما فعلَه رئيسكم منذ قريب؟ قلتُ: لا أعرف ما تقصده.

قال: لقد شاعت هنا قصةٌ نتناقلها جميعًا، وكلنا إعجاب برئيسكم؛ فقد قيل: إن ابنه سافر إلى فرنسا في رحلةٍ دراسية، فإذا أبوه يشتري له تَذكِرةَ سفر سياحيةً في الدرجة الثانية، بعد أن أجرَت عليها الشركة التخفيض الذي تمنحه للطلبة جميعًا. وسافر ابن رئيس الجمهورية دون أن يُحيط به أي مظهرٍ من المظاهر التي تلحق بأبناء الرؤساء.

قلتُ: أنا لم أسمع بهذه القصة، ولكنها ليست عجيبة على رئيسنا؛ فهكذا هو. وحين عُدتُ إلى القاهرة تأكَّدتُ من صدق ما رواه لي المواطن السعودي، وللناس همسٌ مسموم، ولهم بينهم حديثٌ يستعذبون فيه الخوض في أقدار الناس وأمانتهم.

ومثلي بعدما يسمع كل ما يدور همسًا وأغلب إن لم يكن جميع ما يتناقله الناس في تنادُمهم أقسم — وما أنا بحاجة إلى قسم — أنَّ أحدًا لم يذكُر الرئيس محمد حسني مبارك إلا وتحدَّث عن طهارة يده، وبُعده كل البُعد عن أي مظنةٍ لشائبة. ولقد قلتُ إنني لستُ بحاجة إلى قسم؛ لأنَّ هذا الذي أقوله سيؤيِّدني فيه كل قارئ، سواء كان مؤيدًا للرئيس مبارك أو معارضًا له.

كان من الطبيعي إذن أن تُصبِح الطهارة هي سمة العهد جميعه، وأن تكون هي الصفة التي يتحلى بها كل من يجلس على مقعد ذي سلطان وإدارة.

ولكن — وا أسفاه! — الهمس يدور في كل مكانٍ بكبائر التهم، والناس تلُوكُ كثيرًا من الأسماء بشتَّى سرقاتٍ واحتيالات، واستغلالٍ للنفوذ، واقتناصٍ للفرص، واستيلاءٍ على ما ليس لهم بحق، وتستُّرٍ على لصوص، وحمايةٍ لمن يستحلُّون أموال الدولة.

والهمس يدور أنَّ كثيرًا من الاتهامات حُوِّلَت إلى المدَّعي الاشتراكي. وقد أكرمنا الله في منصب المدَّعي الاشتراكي بقاضٍ من أمجدِ القضاة، وأنقاهم سمعة، وأحسنِهم سيرة، وأشرفِهم قصدًا وغاية وتصرُّفًا، إلى جانب علمٍ وافر وقدرةٍ فائقة على مواجهة قضاياه، فالذي لا شك فيه إذن، مع ما يعرفه الجميع عن هذا القاضي، أنَّ جهازه ليس فيه العدد الكافي للاضطلاع بذلك الكَم الوفير الذي يتدفَّق على محكمته.

وليس الأمر يسيرًا؛ فإنَّ وظيفة المدَّعي الاشتراكي تُعتبر من أخطر الوظائف إن لم تكن أخطرها في هذه السنوات التي نجتازها، ومصر في أشد الحاجة إلى هذه المحكمة لتُواجه الفساد الذي يَحيق بأجهزتها، والذي حاق بها في خروج مصر من الاقتصاد المُغلَق إلى الاقتصاد الحر، ومن عصر الحكم المفرد إلى عصر الديمقراطية والحرية.

وإنَّ التقرير الذي طلع علينا به مكتب المدَّعي الاشتراكي يُظهِر بجلاءٍ حاجةَ مصر الماسَّة إلى هذه المحكمة، ولكن لا بد أن يتهيأ للمدَّعي الاشتراكي كلُّ ما يتطلَّبه عمله الخطير من معاونين، يستطيع بهم أن يُواجه هذه الموجةَ الطاغيةَ من الفساد والرشوة والسرقة واستغلال النفوذ.

ولا مجال للقول هنا إنَّ وظيفة المدعي الاشتراكي وظيفةٌ استثنائية في السلطة القضائية؛ فإنَّ الحالة الاستثنائية لا بد أن تُواجهها الدولة بقضاءٍ استثنائي، والقائمون بالأمر في مكتب المدَّعي الاشتراكي قضاةٌ جميعُهم من السلطة القضائية، وعلى رأسهم قاضٍ من أعظم قضاة مصر، فمن الطبيعي إذن أن يكون عددهم كافيًا لما استشرى في مصر من فساد؛ فإنه لولا المدَّعي الاشتراكي لهُرِّبَت من مصر أموالٌ تزيد على الأموال التي هُرِّبَت أضعافًا مضاعفة، ولولاه لأفلَت من العقاب مجرمون ارتكبوا أبشع الجرائم معتدين على الآمنين من بني مصر، وشرُّ عدوانٍ لهم على اقتصاد مصر نفسها.

إن مصرَ اليومَ تُعاني أعظم ما تعاني من شاغلي مناصبَ كبرى، ثارت حولهم وحول أقاربهم الأقربين تُهمٌ دامغة.

وتُعاني مصرُ اليومَ من قياداتٍ تنحرف باتجاهها إلى أسوأ ما واجهَتْه مصر من أهوالٍ سياسية، واقتصادية، وخُلُقية، واجتماعية.

وقد عاشت مصر فترةً طويلة من الزَّمن في ظل حُكمٍ حطَّم القيم الأخلاقية والإنسانية شر تحطيم، ونرى الكثيرين ممن عملوا في ظل هذا الحكم يتولَّون أخطر المناصب وأكثرها حساسيةً وفعالية.

وللسياسة والحكم رجالٌ أولًا وقبل كل شيء، فإذا فقد الشعب ثقته فيمن يتولَّون المناصب الخطيرة في دولتِه، فكيف يمكن أن يثق باقتصاد دولتِه، وكيف يجوز لنا أن نُطالِبَه أن يُقدِّم أمواله في المشاريع الاستثمارية؟ وكيف نُريد ممن يملك العُملة الصعبة أن يُساهِم بها في اقتصاد مصر؟! وكيف نأمُل أن يُساهِم أبناء مصر في الخارج في دعم اقتصاد مصر، ويُرسلوا أموالهم إلى مصر وديعة، والوديعة لا بد أن تكون وادعةً أمينة؛ فمن أين يأتي الأمن إلى نفوس المصريين في الخارج، وهم يَرونَ المصريين في الداخل يخافون على أموالهم من هول الإشاعات التي تُحيط بهم مع الهواء الذي يتنفَّسون، ومع الماء الذي يشربون؟ وأين الأمان في بلدٍ تتعالى فيه صيحات أقوامٍ يُشرِفون على قطاعاتٍ هامة في حياتنا نسمع في رنين صيحاتهم القضاء على الحرية الاقتصادية أو الحرية السياسية؟

إنَّ أنصار الطغيان ودعاة الشيوعية أصبح لهم اليوم في مصر صوتٌ مرتفع عالي الطبقات، تؤيد كوارثَهم بعضُ مناصبَ غاية في الأهمية، وعلى درجةٍ عالية من الحساسية.

والصوت المرتفع يستطيع أن يبتلع في أطوائه الحقائق المؤكَّدة. والذي لا شك فيه أنَّ شعب مصر يكره الطغيان، كما يكره كلُّ شعبٍ أن يحكمه طاغية.

والذي لا شك فيه أن شعب مصر يرفض الإلحاد ويؤمن بالله إيمانًا عميق الجذور بعيد الأصول.

ولكن الأصوات المرتفعة التي هيَّأ لها الإعلام المصري أن تكون صيحاتٍ بعيدة المدى، استطاعت أن تبتلع المبادئ الحقيقية التي يعتنقها الشعب المصري، والتي يحافظ عليها حفاظه على الحياة، وهي الحياة. وهو يؤكِّد ذلك بالأدلة الدامغة، وأقربها الانتخابات التي لم يستطع الشيوعيون فيها أن يفوزوا بمقعدٍ واحد.

ولم يكن عجبًا أن يكون هذا دأب الشيوعيين في كل مكانٍ في العالم. ولعل آخر ما بدا من كراهية الناس لهم انتخابات السودان، وقد كان صوتهم في السودان مرتفعًا عاليًا، ذا هزيمٍ كهزيم الرعد، حتى لقد ظننا أنهم سيفوزون بالأغلبية في انتخابات المجلس النيابي. وتتم الانتخابات وتظهر النتائج، فإذا هي حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها مقالي تُسفِر عن نتائجَ تؤكِّد أنَّ الشعوب لا تُطيق الشيوعية، ولا تتصوَّر أن تُحكم بها؛ فحين يفوز حزب الأمة السوداني بثمانية وثمانين مقعدًا، ويفوز حزب الاتحاد بستين مقعدًا، ويفوز

المستقلون بخمسة مقاعد لا ينال الشيوعيون إلا مقعدَين رُبَّما نجحا برغم أنهما شيوعيان لا لأنهما شيوعيان.

هكذا الشعوب في جميع أنحاء العالم من غربه إلى شرقه، لا يختلف في ذلك شعبٌ عن شعب ولا أصحابُ بيت عن أصحاب بيتٍ آخر.

وهكذا كان حتمًا علينا أن ننظر في أمر هؤلاء الذين يتولَّون مناصب، ولا بد أن يكون اختيارنا لهم مبعثًا للفوز بثقة الشعب فيهم؛ فإنه لا أمل لنا أن ينتعش اقتصادنا إلا إذا استقرت الثقة كل الثقة بين من يتولَّون عظائم أمورنا.

عالي الصوت لم يزل

رأيتُه شابًّا يافعًا في أروقة حزب الأحرار الدستوريين، لم تكن سنُّه قد بلغَت العشرين بعدُ، وكان مُتحمسًا للحزب حماسًا جنونيًّا، مُندفعًا، حتى لقد كان رجالات الحزب لا عمل لهم معه إلا كبح جماحه، والحد من اندفاعه. وكان في الاجتماعات هو دائمًا البادئ بالهتافات، وكان يظل يهتف حتى يُضطَر الخطيب إلى أن يرجوه أن يُعطيه الفرصة ليكمل خطابه.

حتى إذا انتهى الخطباء تجده وقد بُحَّ صوته حتى لا تستطيع أن تسمع منه كلمة إلا إذا أَملتَ أُذنكَ حتى تلتصق بفمه.

وفي هذا السيل الجارف من التحمُّس المندفع المتدفِّق، عرفنا أنَّه يذهب إلى الهيئة السعدية، وأنه يُبدي من الحماس لمبادئها نفس ما يُبديه لمبادئ حزب الأحرار الدستوريين، وأنه يهتف لزعماء الهيئة السعدية كما يهتف لزعماء حزب الأحرار الدستوريين.

وكان الحزبان مؤتلفَين في الوزارة. وأغلبُ الأمر بل من المؤكد أنَّ أعضاء الهيئة السعدية عرفوا أمر اتصاله بحزب الأحرار الدستوريين، كما عرف حزبُ الأحرار أمر اتصاله بالهيئة السعدية.

ومن المُؤكَّد أيضًا أن رجالات الهيئة كانوا يُكفكِفون من غُلوائه، ويُعقِّلون المندفع من تهوُّره. وظل هذا حاله حتى سقطَت الوزارة المؤلَّفة، وتألَّفَت الوزارة الوفدية. وكان الفتى قد أصبح في الجامعة، فإذا هو في سهولةٍ ويُسرٍ يهجر حزب الأحرار الدستوريين، والهيئة السعدية جميعًا، وينقل تحمسه إلى الحزب الوفدي؛ فهو عضو في لجان شبابه، وهو هو المتزعِّم للهُتاف حتى يُبحَّ صوته، وهو هو المتصدِّر في احتفالات الحزب — وما أكثرها! — يوزِّع الأدوار على الهاتفين، ويؤلِّف كلمات الهُتاف، ويخُص كل وزير من الوزراء بفيضٍ من الثناء، ويغمُر كلًّا منهم بموفورٍ من المديح. والفتى مَرنَ على الهُتاف مرانًا قلَّ أن

يُجيده أحد في مثل سنِّه، وتلك مَيزةٌ ليست قليلة الشأن في مكانٍ تُوجد به تجمُّعات، أو اجتماعات أو خطباء.

وكان الفتى يستفيد من هتافاته هذه فوائدَ ليست بالهيِّنة الشأن، ولا الضئيلة العائد؛ فهو قد حصل على مدى سنواتِ هُتافه على كل الإعانات التي تُقدِّمها الوزارات لمن ضاق عليهم الرزق.

نال من وزارة الأوقاف، ومن وزارة الشئون الاجتماعية، وعمل في كل صحف هذا الزمان، لا كمُحَرِّر؛ فلا شأن له هو بالتحرير، وإنما عمل كمُورِّد للإعلانات من الحكومة، وناهيك بإعلانات الحكومة من موردٍ لا ينقطع سيلُه، ولا ينضبُ غمرُه، ولا يفيضُ ماؤه! وقد كانت أغلب الصحف والمجلات تكاد تعيش على هذه الإعلانات. وهكذا استطاع الفتى أن يُصْلح شأن نفسه. أمَّا شأن ذويه فهو غير مسئولٍ عنهم؛ فقد كان أبوه موظفًا ضئيل الدخل هزيل المرتَّب، وكان إخوتُه ثلاثة. لم يُفكِّر يومًا أن يُعِينَ أهل بيته بما يجعل الحياةَ معقولةً أو ممكنة، بل إنه يُرغِم أباه أن يشتريَ له المَلبَس أيضًا. أما أنه يَطعَم بالبيت فهذا أمرٌ يراه طبيعيًّا؛ فما دام أبوه قد أتى به إلى الحياة فهو مسئول أن يُطعِمه حتى يتخرَّج. وهو لا يرى أنَّ هذه القاعدة يمكن أن يَرِد عليها استثناءٌ مهما يكن هو موفورَ الدخل، ومهما يكن أبوه مُجهَدًا قليلَ المال كثيرَ النفقة.

ومع المران والأيام صار يُسافر إلى بلدته يبحث عن طُلاب الحاجات ويتشفَّع لهم، وينال من جداواهم ما يعتبرونه رشوة، وما يعتبره هو حقًّا له لا شك فيه.

وما هي إلا زيارة أو اثنتان إلى البلدة حتى أصبح الفتى مقصد قريته، والقرى المجاورة جميعًا، وأصبح أمره مشهورًا، وأصبحَت أسعارُه معلومةً لا يَجْهلها أحد. أما قصَّاده فيكثرون، وكل من يقصده بمعضلة يحلُّها له؛ فشفاعته عند ذوي الشأن مقبولة، وهو دائمًا عندهم موضع ترحيب.

وأركان الصفقة معروفةٌ واضحة المعالم. يستجيب الوزير للشفاعة من الفتى، ويهتف الفتى باسم الوزير في حفلات الحزب، ومن الناحية العكسية لا يستجيب الوزير بشفاعة الفتى، فلا يهتف باسم الوزير. وحتى أكون صادقًا مع نفسي ومعك لم يكن كل الوزراء في العهد الوفدي أو غيره من العهود يهتمُّون في كثير أو قليل بهُتافات الفتى أو صُراخه، فإذا استجابوا لشفاعةٍ منه فهي استجابة حزبيٍّ كبير لشابٍّ من شباب الحزب. والفتى لا يهمه الباعث عند الوزير، وإنما كل ما يهمه أن يحقِّق ما كلَّفه به دافعو الرشاوى، وليكن الباعث بعد ذلك ما يكون؛ فهو لا شأن له به.

واحترقَت القاهرة.

وراحت الوزارة تتنقَّل تائهةً من عهد إلى عهد، فما استقرَّت على رئيس ولا تريَّثَت عند وزير، وزاغت أعينُ الفتى، فأصبح لا يدري اسم من يهتف، ولا بمن يصلُ أوشاجه، ولا إلى أي كرسيٍّ يمدُّ حبالَه.

وجاءت الثورة، واتضحَت المعالم، ووضحَت له الأمور، وضوحًا تامًّا.

كان صوتُه بالمران والممارسة أعلى الأصوات في الهُتافات، وتنقَّل الهُتاف من رئيس إلى رئيس في مثل السهولة واليسر الذي كان يتنقَّل به من حزب إلى حزب، فيما قبل الثورة. وحين استقرَّ الحكم كان الفتى أصبح شابًّا ذا خبرةٍ واسعة بمعرفة الطريق الذي يختار أعظم الهاتفين شأنًا، وأعلاهم صوتًا.

انضم الشاب إلى هيئة التحرير، وما هي إلا لفتةُ زمن حتى أصبح من أعظم أعضائه نشاطًا، فكان طبيعيًّا أن يُرشِّح نفسه لمجلس الأمة، وكان غريبًا أن ينتخبه الذين قضى مصالحهم؛ فهم ينتخبونه على الرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا يقدِّمون له الرشاوى في جميع العهود.

وحين أصبح في هذا المكان المرموق رفَع أسعارَه في القيام بالشفاعات، ثم ضاعفَها عدة أضعاف، وقال — ووجد من يُصدِّقه — إنه لا يأخذ لنفسه، وإنما هو يُشرِكُ معه الكثيرين الذين يعاونونه في قضاء الحاجات. وبصورةٍ تلقائية، انتقل الشاب من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي، ورفع أسعاره مرةً أخرى.

ثم أصبح في مقدمة العاملين في الاتحاد الاشتراكي، وكان من المعقول جدًّا أن يصبح عضوًا في التنظيم الطليعي.

وكان عضوًا في المجلس الذي رقص للهزيمة، وكان تصفيقه يومذاك واضح المعالم بيِّن السمات. وذهب عهدٌ بأكمله، وجاء عهدٌ آخر تسلَّل إليه في أناة وخبرة، فإذا هو عضو في منبر مصر، ثم هو عضو في حزب مصر، ثم هو عضو في الحزب الوطني، وهو دائمًا عضو بمجلس الشعب، وهو دائمًا يحصل على أعظم الأصوات من الناخبين.

وما دام قد صفَّق للهزيمة؛ فقد أصبح من الطبيعي — بل من المُحتَّم — أن يصفِّق تصفيقًا مضاعفًا عشرات المرات للنصر الرائع، الذي لم يشهد العرب له مثيلًا في العصر الحديث. وصفَّق في حماسٍ لا مثيل له لما أعقب النصر من خطوات السلام الخالدة.

ولكن العجيب في أمره أنه إذا جلس في جماعةٍ يهاجمون كامب دايفيد، وافق المهاجمين في رأيهم، فإذا انتقل إلى جماعةٍ يؤيِّدون كامب دايفيد كان أشد منهم حماسًا في تأييدها.

ظاهرةٌ عجيبة هذا الفتى.

أم تُرى لم يصبح ظاهرةً عجيبة؟! لستُ أدري.

وتسألني — ولا شك أنك ستسألني — من هو؟

أهو هذا الرجل أم هو ذاك؟ وكيف لي أن أعلَم؟ رُبَّما كان هذا وذاك جميعًا؛ فقد تشابه الخَلق علينا، ومن أين لي أن أدُلَّك عليه، وأنا أروي لك قصةً تمتد جذورها نيِّفًا وأربعين عامًا؟ وما أحسب أنني مقصِّر؛ فالملامح المحدَّدة قد ضاعت في عيني، ولم يبقَ أمامي منها إلا الخطوط العريضة أقدِّمها إليك، وأنا واثقٌ أنكَ أنت، أنت أيها القارئ، ستعرف الملامح بكل وضوح، وستتبيَّنُها بكل دقة؛ فإن ذاكرتكَ أنتَ دائمًا أكثر نشاطًا وأعظم تركيزًا، فما عليَّ بأس أن أتركَ لكَ أنتَ أن ترى مَن ألمحتُ إليه، وأن تتعرَّف على اسمه وسماته، بل إنني واثقٌ أنكَ ستصل من الأمر إلى أبعدَ من ذلك؛ فإنك قادرٌ لا شك أن تذكُر لي اسم أمه وأبيه، واسم زوجته وبنيه، وما ساروا فيه جميعًا من دروب، وما ارتادوا من طريق؛ فأنتَ دائمًا أيها القارئ أعظمُ الناس علمًا بمن حولك، وما حولك، فشأنكَ وهذا الفتى الذي أصبح شابًّا ثم صار كهلًا يأخذ طريقه إلى الشيخوخة، ولكن بخطواتٍ نشطة، وصوتٍ عالٍ مُرتفع الضجيج، لم تنَل السنُّ منه، وما أوهنَته السنون.

أعجَبُ واعجَبْ معي

أعجبُ غاية العجب حين أَمُرُّ بحَرَم الجامعة، فأشهَد صفوفًا لا تنتهي من السيارات، من بينها سياراتٌ فارهة، يتناقل الناسُ فداحةَ أثمانها، وتصل هذه الأثمان إلى عشرات الألوف. وأرى الشباب من تلاميذ الجامعة يتقاطرون الواحد تلو الآخر، ومِن بينهم مَن هو فخور بسيارته ذات الثمانين ألفًا أو التسعين.

أهؤلاء يتلقَّون تعليمهم بالمجَّان؟

أهؤلاء يحتاجون من الدولة إلى دعمٍ ليتعلَّموا به؟

كَرِه الله هذا والمؤمنون.

وعند بدء العام الدراسي أجد آلاف البيوت تسعى لإدخال الأطفال البادئين إلى المدارس الخاصة، ويتخرَّج هؤلاء الآلاف في المدارس الخاصة وقد حملوا في أيديهم شهادة الثانوية العامة. بذل آباؤهم وذووهم آلاف الجنيهات ليُتيحوا لهؤلاء الأبناء أن يحصُلوا على هذه الشهادة، ويحصُلوا معها على لغةٍ أجنبية تكون لهم سندًا في الحياة، أَعظِم به من سند! ويخطُون هؤلاء إلى الجامعة المصرية، فإذا التعليم فيها بالمجانية الكاملة!

فهل هذا معقول؟

أيُنفِق الطالب عشرة آلاف جنيه، أو اثنَي عشر ألف جنيه، أو أكثر ليحصل على شهادة الثانوية العامة التي تؤهِّله للدراسة في الجامعة، حتى إذا أُدرج اسمه في كشوف طلبة الجامعة، وأصبح يتلقى تعليمه من أساتذةٍ أغلبهم حاصل على الدكتوراه، إذا كانت الكليات نظرية، أو هو يكلِّف الدولة التي تئن وتتألم من قلَّة الموارد مبالغَ طائلة، ليتعلَّم في الكليات العملية مثل الطب والهندسة دون أن يُنفِق مليمًا واحدًا. كيف يسُوغ هذا؟ كيف يدفع هؤلاء الطلاب آلاف الجنيهات للمدارس الخاصة، ويتعلَّمون تعليمهم العالي بالمجان؟! ولماذا تهُون الأموال، وتُقَدَّم في سماحةٍ ويُسرٍ إلى أصحاب المدارس الخاصة

والأجنبية، حتى إذا بلغَت هذه الأموال أبواب الجامعة المصرية التي تقوم الدولة بأعبائها جميعًا أحجمَت الأموالُ عن حَرَم الجامعة، وتسرَّبَت إلى سياراتٍ مُجرمة وَقِحة لا حياء فيها ولا خجل؟

أحـرامٌ عـلـى بـلابـلـه الـدَّوْ حُ حلالٌ للطير من كل جنسِ؟
كـل دارٍ أحـقُّ بـالأهـل إلا في خبيثٍ من المذاهب رجسِ

إن الجامعة أَوْلى بهذه الأموال، والدولة أكثرُ حاجةً إليها من المدارس الخاصة، ومن السيارات التي لا تتقي الله في فجور أثمانها.

ليكن التعليم في الجامعة بالمجَّان، ولكن ليكن هذا مقصورًا على غير القادرين فقط. أما هؤلاء الذين يحصلون على شهادة الثانوية العامَّة من المدارس الخاصة، ويبذلون آلاف الجنيهات المؤلَّفة، وأولئك الذين يشترون السيارات، ويقفون بها على أبواب الجامعة، فليكن تعليمهم بالمصروفات الكاملة، بل ينبغي أن تكون المصروفات منهم كافيةً لتقوم بشأن غير القادرين من الطلاب، فما قيمة المال إذا لم يكن عونًا لزميلٍ مُحتاج أو لأخٍ ضئيل المصدَر؟

وليس يصلُح حُجةً الدستور ينُص على مجانية التعليم؛ ففي ظل هذا الدستور نفسه تتقاضى الجامعة الأمريكية المبالغَ الفادحةَ نظير المصروفات.

ولم يحدُث في تاريخ العالم أن اجتمع في بلدٍ واحد نوعان من القوانين، يُعارض كلٌّ منهما الآخر. ومصر الآن تمُرُّ بظروفٍ استثنائية، وإذا لم تُواجه مناحي الإنفاق بالحزم وبالصدق، وبغير محاولاتٍ رخيصة للتشدُّق بالألفاظ، فإنَّ مصيرنا إلى بَوارٍ لا يعلم إلا الله مداه.

في أي بلدٍ من بلاد العالم تلتزم الدولة بتعيين جميع الخرِّيجين؟ يعلمُ الله أنَّ هذا القانون صدَر حين صدَر لرشوة الخرِّيجين، وتسميم الآبار أمام كل من يريد إصلاحًا في هذه الدولة. ويعلم الله ويعلم الناس أنَّ هذا القانون لم تُبذل فيه أي دراسة، ولم يَحظَ بأي تعمُّق، ولم ينَلْ أي نظرٍ رشيد إلى المستقبل. وهل أدَلُّ على ذلك من أنَّ الخرِّيج الآن يظل قابعًا في بيته السنواتِ الطِّوالَ في انتظار خطاب القوى العاملة، حتى إذا جاءه هذا الخطاب تم تعيينه بجنيهاتٍ أصبحَت لا تستطيع أن تُواجه مطالب فردٍ وحيد؟ فما ظنك بأُسرةٍ كاملة، قد يكون الخرِّيج مسئولًا عنها؟

وهل هناك دليلٌ على صدق ما أقول من هذا البيان الذي صدر منذ قريبٍ عن الحكومة، أنها ستسمح للموظَّفين بالقيام بأعمالٍ أخرى في غير أوقات العمل الرَّسمية، ما هي هذه الأعمال؟

إذا لم نكن نعرفها فنحن نتعامى عن الحقيقة، ونَسبَح بعيدًا عنها في إصرارٍ على التجاهُل، ولا أقول الجهل.

ألا يعمل هؤلاء الخرِّيجون كسائقين للسيارات الأجرة، أو هم يعملون في الفنادق، أو في المقاهي، أو عُمالًا في المحلَّات العامة؟

أكُنا نُعلِّمهم في الجامعة لينتهي بهم المطاف سائقين للسيارات، أو عمالًا في المحالِّ العامة؟

وأي الطريقَين كان أجدَى لهم؛ أن يتعلَّموا في الجامعة لمجرد الزهو والتفاخر، أم أن يتعلَّموا هذه الأعمال التي انتهى إليها مصيرهم؟

أما كان الأَوْلى بهم أن يتعلَّموا الميكانيكا أو يتعلَّموا في المعاهد الفندقية بدلًا من إضاعة سنوات حياتهم للحصول على شهاداتٍ لا يعملون بها؟

وأخرى:

ما قصة الخمسين في المائة من العمال والفلاحين؟ وما الإصرار عليها؟ إن كان ذلك للمحافظة على حقوق الفلاحين والعُمال، فإنه يعلم ومصر جميعًا تعلَم أنه ليس بين ربوعها من لا يتصل نسبُه بالفلاحين أو العمال.

إنَّ جميع أبناء مصر بلا استثناءٍ أبناءُ فلاحين أو عمال. ليس في مصر طبقةٌ تنتسب إلى غير الفلاحين أو العمال. حتى طبقة التجار آباؤهم في أغلب الأمر من الفلاحين، والنُّدرة منهم من العمال، فما هذا التقسيم العجيب الذي لا يعرف بلدٌ في العالم له مثيلًا؟

لا مثيل له في دولةٍ شيوعية، ولا في دولةٍ اشتراكية، ولا في دولةٍ ديمقراطية.

هو في مصر وفي مصر وحدها دون سائر الأمم. وكيف يصِحُّ في الأذهان أن يختار الشعبُ أعضاء مجالسه التشريعية والمحلية من العمال والفلاحين الذين لم ينالوا إلا أقلَّ قَدْرٍ من التعليم؟

إنَّ الفلاح أو العامل إذا كانت له قضيةٌ هيِّنة الشأن في محكمةٍ قصد إلى مُحامٍ وأغدق عليه الأتعاب؛ لأنه هو المختص في الشئون القانونية.

والفلاح أو العامل إن شعر بألمٍ في ضرسٍ له قصد إلى الطبيب ودفع ما يطلبه منه هذا الطبيب ليُريحه من ألم ضرسه، فكيف يجوز أن تختار الدولة نصف المُشرِّعين فيها مِن غيرِ المُختصِّين، لمجرَّد أنهم فلاحون أو عمال؟

ليس بعجبٍ إذن أن تصدُر القوانين دون دراسةٍ مستوفاة؛ فقد قام بدراستها نصف الذين يجب أن يقوموا بهذه الدراسة.

ألا يُدرِك الفلاحون والعمال أن ضرر هذه القوانين الهزيلة يعود عليهم هم أولًا وأخيرًا؟ فما مصر كلها إلا عُمالٌ وفلاحون، أو أبناءُ عُمالٍ وفلاحين، لا أستثني في مصر أحدًا. كيف نقبل أن يتولَّى المختصون أعمالنا الخاصة الضئيلة الشأن إذا قيسَت بأمور الدولة، حتى إذا احتاجت الدولة جميعًا والشعب كله إلى تشريعٍ أحَلْناه إلى غير مختص؟! إن قانون العُمال والفلاحين الذي يُحتِّم انتخاب خمسين في المائة منهم يثير من الأحقاد بين أبناء الطبقة الواحدة ما لا يستطيع أي قانون في العالم أن يثيره؛ فالفلاح أو العامل لا يرى أي غضاضة أن يُمثله في المجلس التشريعي أي فتًى من أبناء قريته، أو من أبناء زملائه العمال في المصنع.

ولكنه لا شك يشعر بالغضاضة، كل الغضاضة، أن يذهب فلاحٌ مثله أو عاملٌ مثله إلى المجلس التشريعي، وحين يقول لنفسه أو للناس فيمَ يزيد عني ابن فلان هذا حتى يصبح عضوًا بالمجلس التشريعي، ولا يجد جوابًا، تثور في نفسه نيرانُ الحقد، ولا لوم عليه.

ومن ناحيةٍ أخرى، ما مصير العامل والفلاح الذي يُنتخب في المجلس التشريعي لمدة دورة، ولا يصادفه النجاح في الدورة التالية؟ إنه يُلاقي الهول الآخذ المبين، فلا ظل فلاحًا ولا هو ظل عاملًا عضوًا بالمجلس التشريعي، ولا هو يستطيع أن يعود إلى حقله فلَّاحًا، ولا هو يستطيع أن يعود لمصنعه عاملًا. وكيف له أن يعود وقد ظل سنواتٍ وهو مُشرِّع بين المشرِّعين، لبس الحُلة وركب السيارة التي يسَّر له المجلس الحصول عليها، وأصبح في دنيا أخرى ليس للفأس أو النَّول مكانٌ فيها؟

ليس في مصر من لا يعلَم أنَّ هذا القانون إنما كان تسميمًا للآبار لجميع الحكومات التي تتولَّى الأمر بعد يوم صدوره.

وليس شيءٌ يصنعه بشَرٌ مُقَدَّسًا. إنه لا تقديس إلا لكلمات الله وحدها ولشريعته. أمَّا كل ما يصنعه الإنسان فهو قابلٌ للتفكير وللتدبير وللتغيير. ومن المؤكَّد الذي لا شك فيه أنَّ هذه القوانين البشرية جميعًا ليست مصنوعةً في السماء. ومن المؤكَّد أيضًا أنها ليست

مقدَّسة، وإنما ينبغي علينا وجوبًا أن نُقلِّب فيها النظر، ونُمعِن الفكر، فإن تكن مصر قد هزلَت في فترةٍ طويلة من حياتها، فقد حان اليوم لها أن تَعدِل عن الهَزْل إلى المَجْد، ومن التهريج إلى الصدق والتبصُّر.

إن شعبًا انتصر على المستحيل في حرب ٧٣ ليس كثيرًا عليه أن ينتصر على الخرافات في بيته.

وما دُمنا قادرين على أن ننتصر على الأعداء، فلا بد لنا الآن أن ننتصر على أنفسنا، ونكُف عن الهُراء، ليكون الجِدُّ وحده هو طريقنا؛ فإنه لا سبيل لنا أن نخرُج من أزمتنا إلا بمواجهةِ ما شاع في حياتنا من هَزْلٍ وتُرَّهات، والله من فوقنا، وهو وليُّ التوفيق.

بين النظرية والتطبيق

في أهرام الجمعة ٧ مارس مقالٌ للأستاذ سيد ياسين، رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، والمقال يحمل اسم المركز، وهذا يُوحِي — بشكلٍ لا يقبل الجدل — أن الأستاذ ياسين إنما يتحدث باسم المركز. وأعتقد أن في هذا افتئاتًا على المركز؛ فإن للأستاذ سيد ياسين — إذا شاء — أن يكتب مُعلنًا رأيه هو. أمَّا أن يكتب تحت راية المركز الذي يمثِّل الأهرام جميعه، فأنا أرى أن هذا يؤدِّي إلى نوعٍ من الخلط بين رأي فردٍ ورأي جهةٍ بأكملها؛ فأنا أَشْرُف بالإشراف على القسم الأدبي في جريدة الأهرام، ولكنني حين أكتب أنا أُعبِّر عن رأيي وحدي، ولا يجوز لي أن أضع شعار القسم الأدبي على مقالتي، كما لا يجوز أن أضع شعار اتحاد الكُتَّاب الذي أَشرُف برئاسته.

وبعدُ، فهذا أمرٌ يتصل بالشكل كان من الحتم أن أعرض له. أما المقالة نفسها، فتحمل عنوان «الديمقراطية» والعنف والسياسة الاجتماعية. المقالة تحمل سمات المعارضة العنيفة. ولا بأس على الأستاذ سيد أن يُعارض ما طابت له المعارضة؛ فنحن جميعًا نعارض حينًا ونؤيد حينًا، نتغيَّا المصلحة العامة ما وَسِعنا الجهد وما أسعفَتنا الحُجة.

وقد قدَّم الأستاذ سيد ياسين آراءه في إصلاح أحوال مصر من وجهة نظره، وأنا لم أُمسِك القلم اليوم لأُناقِش هذه الآراء.

وإنما ثارت نفسي، وفزعتُ إلى قلمي، وإلى كتابة هذا الذي تقرؤه الآن حين انتهى بي المطاف إلى العنوان الفرعي في آخر المقال، وإني ناقلٌ إليكَ ما قاله بادئ ذي بدء.

يقول الأستاذ سيد ياسين تحت عنوانٍ فرعي «إعادة صياغة السياسة الاجتماعية» ما يلي: السياسة الاجتماعية في بلدٍ ما تُترجِم بشكلٍ محسوس التوجيهاتِ الأيديولوجية الأساسية للنظام السياسي. ومن هنا تختلف السياسة الاجتماعية اختلافاتٍ جذرية في

النُّظُم الاشتراكية والرأسمالية. وفي النُّظُم الاشتراكية يعلو الصالح العام على حساب الصالح الخاص، وتُوجَّه السياسات الاجتماعية إلى جماهير الشعب جميعًا لكي تنهض بها من الناحية الثقافية، والاقتصادية، والسياسية. ويظهر ذلك في صورة برامج التعليم المجانية التي تسمح لأفقر العناصر الاجتماعية أن تُبرِز مواهبها، وأن تكشِفَ عن إبداعها. وكذلك في سياسات الدخول والأجور، والتي تسمح للقلَّة أن تشتري — استغلالًا — على حساب الأغلبية، وهي التي تفتح آفاق الثقافة بلا حدودٍ أمام كافَّة جماهير الشعب، وتصل إلى القُرى. وهي أخيرًا تدعم من إيجابيات الشخصية الإنسانية، وتُكافِح سلبياتها من خلال القدوة والتربية والتعليم، والردع والإصلاح العقابي. وعلى العكس تمامًا في النظام الرأسمالي؛ حيثُ يعلو صوت الصالح الخاص على حساب الصالح العام، وتُصاغ السياسات الاجتماعية أساسًا لخدمة الأقلية والصفوة المختارة. وهي حين تتجه إلى الجماهير العريضة فهي تتجه بقَدْر وبطريقةٍ محسوبة، والغرض الأساسي هو إشباع بعض الحاجات الأساسية لها تلافيًا لعوامل السخط الاجتماعي، وتفاديًا لاحتمالات الصراع الطبقي.

وأكتفي بهذا القَدْر الذي يعلَم الله كم قاسيتُ من جهدٍ لأنقلَه. وأنا أسأل الأستاذ سيد ياسين هل ما زالت الشيوعية نظريةً لفظية؟ إنها تجاوزَت هذا إلى التطبيق الطويل الذي يُقارِب اليوم نصفَ قرنٍ من الزمان.

وما دام الأمر كذلك، ألا يرى أن الأمانة العلمية النظرية تقتضي مناقشة التطبيق، وإذا كنا لا نُناقِش التطبيق بعد خمسين عامًا من إعمال النظرية، فمتى إذن؟

وما دام قد اختار أن يضع على رأس مقاله مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ألم يكن واجبًا حتميًّا عليه أن يذكُر الرأيَ والرأيَ الآخر؟ وبعدُ فلننتقل الآن إلى ما قاله:

أيعرف الأستاذ حكومةً في العالم الحُر جميعه تعمل لغير الصالح العام؟ أين تقع هذه الحكومة؟ وفي أي دولةٍ رأسمالية على وجه الأرض؟ وكيف يصحُّ في العقول أن الحكومة لا تعمل لصالح أفراد ولا تُعطي الشغل إلا الفُتات؟

وهل ما ينالُه العامل في أمريكا يُقارَن بما ينالُه العامل في روسيا؟ وهل فكَّر الأستاذ سيد ياسين فيما يتمتَّع به الإنسان في ظل الحكومة الديمقراطية من حرية وديمقراطية وانطلاق؟ وهل تستطيع مقارنته معًا بما يشقى به الإنسان في ظل الحكومات الشيوعية؟

هل الثقافةُ متاحةٌ في الدول الشيوعية وغيرُ متاحةٍ في الدول الديمقراطية؟ أيُصدِّق هو هذا القول؟

فأين إذن أُدباء الاتحاد السوفييتي ومبدعوه؟ أين ورَثَة تولوستوي، ودتسيوفسكي، وتشيكوف، وجوجول؟ ألم يقتُل النظام الشيوعي كل عبقريةٍ حاولَت التحرُّر من الخوف، سواء كان ذلك في ميدان الفن الأدبي، أو كان في ميدان العلوم؟ والأمثلةُ حاضرةٌ من قريب، وهو يعرف كل المعرفة. أليس النظام الديمقراطي يقوم في جوهره على أساس الحافز الشخصي؟

أولَيس هذا الحافز الشخصي هو الهاوية التي تردَّى في فقدانها النظام الشيوعي، حتى لقد اضطُر لينين روسيا نفسه أن يسمح بالملكية الزراعية، فيما يُعرف بسياسة النيب «السياسة الاقتصادية الجديدة» عام ١٩٢١م، ليُحقِّق حافزًا شخصيًّا للزارع بعد أن أصبحَت روسيا التي كانت مخزنَ القمح تستورده من الدولة الرأسمالية الكبرى أمريكا؟

ألم تستبدل النظرية الشيوعية الحافزَ الشخصيَّ الذي يتمشَّى مع الطبيعة الإنسانية بنظام الردع والإصلاح العقابي؟ وهل يعني هذا التعبير شيئًا إلا القهرَ والنفيَ والقتلَ والمعتقَلات؟

أوَلَا يعني هذا أنَّ النظام الشيوعي يقول للإنسان علانية، وفي غير خفاء، سأقتُلُكَ وأُهين إنسانيتك، وأُدمِّر كل ما هو شريفٌ في حياتك، لأجعلكَ سعيدًا رغم أنفك، فإذا لم تَسعَد فلكَ الويل، ولكَ النفيُ إلى الصحراوات الجليد، ولك الاعتقالُ في السجون، وإذا لم تَسعَد بعد هذا جميعًا فلكَ القتل. أليس هذا هو تطبيق النظرية يا أستاذ سيد أم شيئًا آخر؟

أوَلَيس هذا التطبيقُ هو الذي جعل كل الدول التي فُرضَت عليها الشيوعية تهرب منها، وعلى رأس هذه الدول جميعًا أضخم دولة في التاريخ، ألا وهي الصين، وهي دولةٌ عدد سكانها ألف مليون نسمة، وقد كان ينبغي أن ينجح فيها النظام الشيوعي؟ فأن ينالَ الفردُ في هذا الزحام البشري المروِّع لقمةَ عيشه أمرٌ يدعو وحده إلى التمسُّك بالنظرية، ولكن النظرية فشلَت في أن تهَب للإنسان في الصين حتى لقمةَ العيش، ونجحَت في قهر وقتل إنسانية الإنسان. وتركَت الصينُ النظرية كلها واتجهَت إلى حرية الحياة. ولا شك أن الدولة بحثَت عن النظام الأمثل لمواجهة متطلَّبات ألف مليون نسمة، بعد أن خذلَتها النَّظرية الشيوعية خذلانًا مُبينًا.

ولعل انتخابات فرنسا الأخيرة تُعطيك مثلًا على فشل النَّظرية، حتى لم تتحمَّلها فرنسا إلا فترة انتخابٍ واحدة.

أوَلَيس روسيا تعيشُ بامتصاصِ دول الستار الحديدي كلها؟ وكل هذه الدول تُحاوِل أن تتخلَّص من جنة الشيوعية، فتجد أمامها الوحشَ السفَّاح يُسوِّي جُثَث الأطفال والشيوخ والعجائز بالأرض، ولا تملك إلا الخنوع في ألمٍ قاتل؟ ولتذكُر إن كنتَ لا تذكُر ما حدث في المجر وتشيكوسلوفاكيا، ولا يزال يحدُث في بولندا، ناهيك بالغزو الأخير لأفغانستان، ومُحاولة ضمِّها إلى جنَّتها.

أترى يا أستاذ سيد أنَّ كل الدول الديمقراطية التي تعيش في حُريةٍ لا تعمل حكومتُها للصالح العام؟

أم ترى كلَّ دول الستار الحديدي لا تعمل حكوماتُها للصالح العام حين تُحاول التخلُّص من عبودية الجنة السوفييتية؟

وبعدُ أيها الصديق، هل ترى أنَّ التعليم المجَّاني في مصر خرَّج مثقَّفين؟ أتركُ هذا لضميرك، بل وأتنازل عن آمالي قليلًا، وأسألُك: هل خرَّج التعليم المجاني متعلمين أم أنَّ الأمر لم يزِد على لافتةٍ على فراغ، بعد أن أصبحَت المدارس المصرية تُعلِّم الجهل، فتُحسِن تعليمه؟

هل أفلَح الإصلاح الزراعي في مصر في الارتقاء بالزراعة يا أستاذ سيد؟

إذن فاجعل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية يجيبُ على السؤال بالأرقام لا برأيكَ أنت.

هل ترى أن نظرية الخمسين في المائة من الفلاحين والعمال نظريةٌ مقبولة؟ وهل لها مثيل في العالم؟ اجعل مركزك يُجيب ولا تُجِبْ أنت.

هل القطاع العام بصورته الرَّاهنة في مصر خرابٌ لمصر أم ازدهارٌ لاقتصادها؟ اجعل المركز يُجيب ولا تُجِب أنت.

وبعدُ يا أستاذ سيد، فلو مضيتُ فيما أخذتُ فيه لما توقَّف القلم، ولولا أنني أردُّه عن المُضي في طريقه لما انتهى به الحديث إلى مئات الصفحات.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إيجابٌ ولا قبول

إذا قصد إليكَ شخصٌ ما لا تعرفه ولا يعرفك، وقال لكَ إنه عازفٌ ماهر على العود، فما أيسر أن تطلب إليه أن يُحضِر عودًا ويعزف عليه! وما هي إلا غمزة ريشة أو غمزتان حتى يُصبح الادِّعاء حقيقة، فهو إما أن يكون عازفًا أو لا يكون.

وإذا قصدَك شخصٌ آخر، وقال لك إنه رَسَّام وعرض عليك بعض أعماله فما هي إلا نظرة، ثم لا تحتاج إلى الثانية، حتى تعرف إن كان رسَّامًا أم مدَّعيًا.

كل الفنون كذلك إلا الأدب — وما أكثر ما يُظلم الأدب بجميع أشكاله!

كان الشعر له عمودٌ وقافية، فحين هدَموا العمود وطمَسوا القافية ظن الكثيرون أنَّ الشعر تحرَّر من كل القيود، حتى لأستقبل في الجريدة كثيرًا من شبابٍ وغير شبابٍ لا يعرفون ما هو الوزن، ولا ما هي التفعيلة، ويريدون أن ينشُروا شِعرهم بالأهرام!

وأذكُر أن صديقًا لي طلَبني ذات يوم، وقال لي إن ابنته تكتُب شعرًا رائعًا، وإنه يريد أن يصحبها إلى مكتبي لأقرأ شعرها. وجاء الصديق وابنتُه وألقيتُ نظرةً على ما تعتبره شعرًا، وقلتُ لها بكل بساطة: يا ابنتي، هذا ليس شعرًا.

كان هذا منذ سنوات. وقد نسيتُ هذه الواقعة تمامًا حتى لقِيَني هذا الصديق منذ قريب، وإذا هو عابسٌ مُغضَب، يقول لي إنني حطَّمتُ موهبة ابنته، وأصبحَت تكره الأدب والأدباء منذ لقائي، فكثير من الناس يظنون أنَّ موهبة الأدب هذه متاحةٌ للجميع، وأنه حتمٌ علينا أن نقبل منهم هذا الظن. والحقيقة أنني أعتبر هواية أي فنٍّ نوعًا من الجُموح الذي يجعل صاحبه منجذبًا انجذابًا مغناطيسيًّا شديد الأَسْر، يأخذ عليه كل حياته. وإذا ركب هذا الجموحُ إنسانًا لا موهبة له أكَلَه الفن واعتصَره دون أن يحقِّق من حياته شيئًا.

ونظرةٌ واحدة على المُمثِّلين الذين يقومون بأدوارٍ ثانوية، تجعلُك تعرف كم هو قاسٍ ذلك الفن، وكم هو متكبِّر لا يرحم ولا يعطف، ولا يلين لرجاء أو توسُّل أو وساطة، فكل هؤلاء كانوا يريدون أن يصبحوا نجومًا، وانتهى بهم الأمر إلى ما ترى. وإنك لواجدٌ بقايا الاعتصار هذه في كل فنٍّ من الفنون بلا استثناء؛ فأنا حين أقسو إنما أُحاول أن أحمي من أقسو عليه أن يكون ضحيةً جديدة للفن.

ولكن الأدب بالذات مظلومٌ بكثيرٍ ممن انتسبوا إليه عَنوةً واقتدارًا بفراماناتٍ من بعض ذوي النفوذ، فما أكثر مَن تُكتب أسماؤهم في كشوف الأدباء وهم من الأدب براء!

وأذكر في الستينيات أن عُرض على لجنة القصة في المجلس الأعلى للفنون والآداب خطابٌ موجَّه إلى رئيس الجمهورية، يشكو صاحبُه القائمين على أمر القصة أنَّهم لا يعترفون به، مع أنه ظاهرةٌ لا مثيل لها؛ لأنه يكتب القصة دون أن يعرف القراءة والكتابة، والخطاب موقَّع ببصمة إبهامه؛ فهو حتى لا يملكُ ختمًا.

وأنا أعرف بين مَن نراهم في المحافل الأدبية أمثالًا كثيرة لهذا الأُمي، ومع ذلك يجدون في أنفسهم الجُرأة أن يتصدَّروا الساحة الأدبية، ويفرضوا جهلَهم عليها. والغريب — أو ربما ليس غريبًا — أنهم ظلُّوا يُوهِمون أنفسَهم أنهم أُدباءُ حتى صدَّقوا الفِرْية وآمنوا بها، واعتَبروا انتسابَهم إلى الأدب أمرًا مفروغًا منه، لا يحتَملُ مناقشةً أو جدالًا.

وهم بطبيعة الحال لا يخجَلون أن يُصدِروا أحكامهم على الأدباء جميعًا. وهم في إصدارهم لهذه الأحكام لا يقبَلون استئنافًا أو مراجعةً أو مناقشة. وإنهم في ذلك لمعذورون؛ فإن أي إنسانٍ مهما يكُن شأنُه يستطيع أن يُصدِر أحكامًا، ولكنَّ القُضاةَ المثقَّفين وحدَهم هم الذين يستطيعون أن يكتبوا الحَيْثيَّاتِ والأسباب.

قد يظُن البعض أن هؤلاء قد وصَلوا إلى هدفِهم مهما تكن الوسيلةُ التي اصطنعوها لوصولهم هذا، ولكن الحقيقة غير ذلك.

لقد توسَّلوا فعلًا إلى الأدب بغير طرائقه المشروعة من موهبة وثقافة، وقدَّموا بدلًا من ذلك نفاقًا، أو إلحاحًا، أو استغلالًا، أو أموالًا، أو غير ذلك من وسائل الوصول، ولكن هل وصلوا؟

باليقين الذي لا يتزعزع أنهم لم يصلوا إلى شيء.

فالأدب لا يكون إلا إذا اتفق طرفان وقَّع كلٌّ منهم بدلًا من عقدٍ واحد عشراتٍ ومئاتٍ من العقود، وإن لم يُكتَب العقد ولم يتمَّ توقيع.

إن الأدب لا يكون إلا إذا تم إيجابٌ وقَبولٌ يُمثِّلان الطرفَين في العقود؛ أمَّا الإيجاب فهو ما يكتُبه الكاتب. وأما القَبول فهو إقبال القُراء على ما يكتب.

وهكذا يتضح لكَ أن هؤلاء الأدعياء لم يصلوا إلى شيء مطلقًا؛ لأن العقد لم يتم؛ فإن عقدًا ما لا يتم بالإيجاب وحده، وقد قدَّموه وألحُّوا في تقديمه، ومرَّغوا رءوسهم في التراب ليُتاح لهم تقديم هذا الإيجاب، حتى إذا أُتيح لهم ذلك وقدَّموه، امتَنَع الطرف الآخر عن التوقيع، وذهبَت صيحات الإيجاب صرخاتٍ بلا صدًى، وأصواتًا بلا سامع. إن القارئ لا يحفِل بهم، ولن يكون الكاتب كاتبًا ولا الشاعر شاعرًا حتى يكون له قارئ. وهذا القارئ هو أعدل قاضٍ عرفه التاريخ؛ لأنه القاضي الذي لا تجوز عليه الحيلة، ولا يجرؤ أحدٌ أن يوجِّه إليه أمرًا، ولا يجسرُ إنسانٌ أن يقف ببابه حاملًا بطاقةَ توصية، حتى وإن كان كاتبها أعظم أدباء العالم.

فالصلة بين الكاتب والقارئ صلةٌ خيوطها من حريرٍ تنسجُه في انسجام ومحبة روحُ الكاتب، ومشاعر القارئ خفيةٌ لا يُحِس بها أحد، لكنها مع ذلك صِلةٌ تبقى إلى الأبد، ويُسلمُها زمان إلى زمان في أمانة، وفي حُب وفي إعزاز. ورُبَّما كانت هذه الصلة هي أغلى ما يعتَز به الكاتب، وإنها ولا شك هي التي تجعلُه دائمًا يكتب بمدادٍ من دمه ويضع فيما يكتب سنواتٍ طويلة يقتطعها من عمره، ومن متعته، ومن سعادته، ثم يُحِس وهو يبذل كل هذا أنه يبذلُه لمن يستحقه، ويستحق ما هو أكثر منه، إن كان هناك ما هو أكثر من الحياة، ومن الدماء، ومن نبض القلوب.

مقدِّمة ونتيجة

عشتُ في بيتٍ قدَّر الله له أن يكون ميسور الأمور في مطالب الحياة، ولكنه باذخ الغنى في معرفة الناس، وتردُّدهم عليه؛ فمنذ وعيتُ الحياة وأَلِفتُ أيامها لم أذكُر أننا تناولنا طعامًا دون ضيفٍ معنا. ونحن أُسرة يظُن الناس بها الغنى، ونحن نسعَد بهذا الظن، ولا ننفيه على الرغم من مجانبته للحق؛ لأننا حقًّا أغنياء، فارعٌ بنا عماد الغنى، ولكن ثروتنا ليست من المال كما هي عند سائر الأُسر، وإنما ثروتنا هي الناس.

وهو فَرعٌ من الإقطاع الذي لم تستطع قوانينُ الإصلاح جميعًا أن تقترب منه؛ ولذلك لم يفقد أبي ولا فقَدتُ أنا ولا إخوتي سهمًا واحدًا من أرضٍ أو غير أرضٍ في قوانين الإصلاح الزراعي، وكذلك — والحمد لله — لم نَفقِد سهمًا واحدًا من الثروة البعيدة مرامي الحصر من حُب الناس. وحين تقدَّم أخي الدكتور شامل إلى انتخابات عام ٧٧ ذهبتُ لأَمُرَّ بالبلاد معه. كان الظن مني أنهم سيعرفونني مما يُنشر لي أو عني مما يصنعه لي التليفزيون، وما أُذيعه في الإذاعة. ولم يكذبني هذا الظن، ولكن الذي خذلَني أن كل هذا لم يكن يَعْنيهم في شيء، وكانوا يقولون لي ولأخي في وجهنا، وبغير محاولةٍ للمداورة إننا لن ننتخبَكَ من أجلكَ أو من أجل أخيك، ولكننا سننتخبُكَ من أجل أبيك. وكان قد مَرَّ على وفاة أبي في تلك السنة أربعة وعشرون عامًا. ونجح شامل.

لا تعجل بربك؛ فقد أراك تقول: ما لي أنا وهذا الذي تكتب؟! وأي شأنٍ لي أن تكون غنيًّا، أو تكون فقيرًا؟ وما شأني أن يكون ثراء أُسرتك من المال أم من الرجال؟ ولكَ في ذلك العُذر، ولكنكَ لو تحمَّلتَ المقدمة لبلغتُ معكَ إلى النتيجة.

ولْأَعُد الآن بعد هذا الاعتذار العارض إلى حقيقة الغنى في الأُسرة التي أنتسب إليها؛ فعلى الرغم مما تواتَر عنها من غنًى، فإنَّ الذين خالطوها وأوغلوا في صِلاتهم بها عرفوا

حقيقة الأمر منها. وقد كان العالم الأديب ظريفُ ظُرفاء عصره الشيخ البشري من هؤلاء، وكان يقول عنا: إذا رأيتَ شخصًا مرتفع القامة عريض المنكبَين شديد الأناقة وكل ثروته قرش تعريفة فاعرف أنه أباظي. وهكذا كشَف البشري ما نُحاول أن نُخفيَه، وما تُساعِدنا طبيعة أجسامنا على أن نستُره.

فأنا إذن رَبيتُ بين الناس منذ تفتَّحَت عيناي على معالم الدنيا، وكان أبي عضوًا بمجلس النواب، طَوالَ فترة الحياة النيابية من بدايتها إلى نهايتها. وكان هذا يجعلُني أُخالِط كل البيئات مُخالطةَ مُعاشَرةٍ مُتعمِّقة في حياتهم، واسعة الأبعاد في خاصة شئونهم. وكانت هذه المعرفة مفروضةً عليَّ لا أملك فيها حقَّ الانتقاء الذي يملكُه كل إنسان في اختيار أصدقائه؛ ولهذا تعوَّدتُ أن أتحمَّل ألوانًا من الناس شتَّى، أعرف عيوبهم وأغفرها لهم، وأتبيَّن نقائصهم وأتغاضَى عنها؛ ولهذا يعجَب أصدقائي حين يَرونَني أقبلُ من الناس ما لا يقبلُه غيري، وأقول حين أُجادلهم: إنكم تُحاسبونهم بمقياس طبائعهم فتغضَبون، ولو حاسبتُموهم بمقياسِ طبيعتِهم هم لالتمستُم لهم العُذر؛ فليسوا هم الذين خلَقوا أنفسَهم، ولا هم الذين نسَجوا عقولَهم ورغباتِهم، ومطامعَهم، وآمالَهم، ومطامحَهم، وإنما تداولَتهم الحياة فصنعَت منهم هذا الذي تَرون، وأنا أستطيع أن أقبَل ما فيهم من عيبٍ محاولًا دائمًا أن أذكُر ما لهم من حسنات. ولكل إنسانٍ جانباه، فماذا علينا إذا نحن أغضَينا العينَ عن عَيبه، وقَبِلناه من أجل ما فيه من فضل.

نوعٌ واحد من الناس لا أُطيقه ولا أُحب أن أعرفه، ولا أحتملُ أن أنظر إليه، ولا أشتهي أن تجمعني به صِلةٌ أو وشيجة، ولكنه نوعٌ مفروض على الحياة يدمغُها فلا تستطيع الحياة منه خلاصًا، ولا أستطيع أنا فِكاكًا من مخالبه أو مجانبةً له؛ فحيثما قلَّبتَ وجهكَ فستراه، وأينما ولَّيتَ سحنتكَ فأنتَ مُلاقيه، لا في أنحاء العالم الأربعة بل أنحائه الثمانية.

أنتَ مُلاقيه في عملكَ، وأنت مُلاقيه في مَسْلاتك، وأنتَ مُلاقيه في كل مجتمعٍ يضُم بعضًا من الناس .. أنتَ مُلاقيه.

إنه الرجل ذو الصَّغار، أو قل إذا شئتَ الرجل الصغير، ولا تقُل الطفل؛ فالرجل الطفل حبيبٌ إلى النفس فيه براءة، تُسعِده ابتسامةٌ وكلمةٌ ترحيب، وتُشقيه تقطيبةٌ وفتورُ لقاء، وهو قريبٌ لا خُبث فيه، ولا تحايُل، ولا دخَل ولا قذى.

أمَّا الرجل الصغير فشيءٌ آخر، وكلمة شيءٍ هنا مقصودةٌ لذاتها. ويقول القاموس في معنًى من معاني الصَّغار: صغُر؛ أي هان وذَل. وهذا هو الصَّغار الذي أَقصِده، صَغار

الهَوان والذِّلة. وهو نوعٌ من الخُلق يستطيع الإنسان — إن كان إنسانًا — أن يجتَنبه في نفسه؛ لأنه هو الذي يصنَعه بنفسه في نفسه؛ فهو يشعُر في داخله أنه هيِّن أو أنه ذليل؛ ولهذا يخشى الأعزَّةَ الكُبراء، ولأنه يخشاهم يحاربهم، وكُلما حاربهم غاص في حَمْأة الهوان؛ لأنَّ الأعزَّة الكُبراء لا يَشعُرون بالصِّغار؛ فحين تنشَب الحرب بينهم يُسفِر الأمر عن شخصٍ ممسك بسيفٍ من ورقٍ يحارب به أحذية عدُوه؛ لأن أقصى ما يملك أن يبلغ الصغير من الكبير هو الحِذاء، فإذا هو بين الناس أضحوكة. ويظل الكبير كما هو كبيرًا، بل إنه سيزداد شموخًا؛ لأنَّ الناس ستُضطَر أن تُقارِن بين شخصَين؛ أحدهما رأسُه في السماء، والآخر رأسُه في الحذاء.

الهَوانُ يصنَعه الإنسان اكتسابًا لا وراثة؛ فهو دائمًا يشعُر في دخيلة نفسه أنه صغير؛ لأنه لم يُنشِّئ نفسه على أن يكون كبيرًا، فإن كان صاحب مهنة تراه لا يُتقنها لأنه فضَّل أن يلهو حين كان غيره يعمل، وإن كان صاحب مالٍ بدَّده؛ لأنه آثَر أن يستمتع حين آثَر مثيلُه أن يُنمِّي ثروتَه.

وشَر مكانٍ ترى فيه الصغير إذا نال منصبًا أو جاهًا؛ فهم أيضًا ينالون أحيانًا منصبًا؛ لأن الهيِّن الذليل يستطيع أن يجعل رأسه مَوطِئ نعال، ويقبل ما لا يقبله الكريم، وتلك عند الأخلاق منقصةٌ ومضيعةٌ لماء الوجه، وسقوطٌ بأقدار الرجال، ولكنها عند الصِّغار مفخرة، وقُدرةٌ على ما لا يستطيعه غيره، وذكاء وتحايل، وحُسن مدخلٍ ومعرفة بمكامن الأبواب.

إذا قُدِّر لك — لا قدَّر الله لك — أنْ تُعامِل صغيرًا في مكان كبير عَرفتَ حينئذٍ لماذا قال القاموس، والقاموس لا يقول إلا ما قاله العرب، والعرب من أعظم الشعوب حكمةً ومعرفةً بالناس: «صغُر أي ذَلَّ وهان».

ومن أطرف جُمل الحوار التي قرأتُها تلك التي دارت بين اثنَين، قال أحدهما: والله ما أبالي مدَحَني الناس أم نمُّوا.

فقال له صاحبه: استرحتَ من حيثُ تَعِب الكرام.

تُرى هل عرفتَ الآن لماذا سُقتُ هذه المقدمة الطويلة؟ ربما قلتَ إن النتيجة بسيطةٌ ولم تكن في حاجة إلى كل ما قدَّمْته بها، ولكن أليس الحديث بضاعتنا؟ فإن لم أكن أمتَعتُكَ بالمقدِّمة فالذي لا شك فيه أنني أرحتُكَ بالنتيجة.

حكمتَ فلم تُنصِف

للنقد متعةٌ خاصة عند الناقد وعند السامع. ولا أقصد النقد الأدبي، وإنما أقصد النقد بعامة. ولا أقصد النقد بمفهومة الفني الذي يعني تقويم الأعمال والناس، وإنصافهم بذكر ما فيهم من خير وما فيهم من شر، وإنما أقصد النقد الذي جرى الناس على أن يُطلِقوه على الهجوم والتجريح والتشنيع والإساءة. لهذا النوع من الحديث متعةٌ خاصة يُحس طعمها المتحدث؛ فهو بها يؤكِّد ذاته، ويُحس أنه في مشرفٍ رفيع يُطل منه على الحُكام ووجوه الساسة والمجتمع والناس، ويُطلِق عليهم أحكامه القاطعة الجامعة المانعة. وليس يعنيه أن يقوم حكمه على أساس، ولا يهمُّه أن يستقيم به المنطق، ولا يبالي أن يقدِّم الحيثيات للحكم. ولا يأبه إن كانت معلوماته صادقة أم كاذبة، إنما المهم أولًا وأخيرًا أن يُهاجم ويجرح. وقد يصل التجريح إلى القتل الأدبي ولكن، ما البأسُ ما دام هو قد لاك الهجوم بلسانه واطمأنَّت به نفسه؟ إنه عظيم، وإنه يعرف ما لا يعرفه أحد، وإنه نافذ النظرة، قاطع اللسان، قادر على الهجوم.

ويعلم الله أنَّ حينًا من الدهر قد مَرَّ على هؤلاء القوم كانوا إذا فكَّروا في هذا الذي يصرخون به اليوم لسارعوا إلى صنابير المياه والحنفيات يغسلون رءوسهم خشية أن تشي بهم رءوسهم إلى مصادر الرعب والسفَّاكين من الحكام. في هذا الحين من الدهر كانت النفوس تخاف من نفوسها، وتهلع الأفئدة من أفئدتها، والجوانح من جوانحها.

ولكن الحرية هي الأصل، وعودة الحرية ليست فضلًا وإنما هي حق، ولكن مع كل حقٍّ واجب، فإذا نحن نلنا حقنا فينبغي علينا أن نفرض على أنفسنا واجباتها.

فتلازُم الحق والواجب حضارة. وليس من الحتم أن يُفرضَ بقانون، وإنما ينبغي على الإنسان المتحضر المثقَّف أن يشفع كلَّ حق يُمارسه بالواجب الذي يلازمه. وحق الحرية

يُلازمه واجب العمل؛ فالحرية بغير عملٍ فوضى، والحكم بغير ضميرٍ ظلم، والحرية نور والظلم ظلام. وكما نطالب الحاكم بأن يكون عادلًا في حكمه لنا لا بد أن نُطالب أنفسنا بأن نكون عادلين في الحكم عليه. ومهاجمة الحكام لمجرد الرغبة في الهجوم والتظاهُر بصورة الأبطال، أو لاستغلالِ ما نتمتع به من حرية، أو لإشعار أنفسنا بأننا أصحاب رأي ونقد وشجاعة، افتئاتٌ على كرامتنا نحن لا على كرامة من نهاجمه.

ثار في نفسي كل هذا، وأنا أقرأ مقالًا لأستاذٍ جليل أُكِن له كل إكبار واحترام في إحدى المجلات. والأستاذ أستاذ في التاريخ، والمقال محاكمة لأجيالٍ من الحكام سالفة. وإذا بالأستاذ المؤرخ يتناول تاريخ مصر كلَّه بالسخرية الشديدة، فكلُّ تاريخنا ظلام، وكلُّ رجاله لصوص، وكلُّ الناس فيه سفَّاحون أو أذلَّاء. وأُشهِد الله أن نفسي جزعَت مما كتب الأستاذ، فإذا كنا نرفض الظلم من عامة الناس، ومن جهلائهم، فنحن أشد رفضًا للظلم من الأستاذ المؤرخ العالم.

فلِلسخرية مواضعها، ولأحكام التاريخ جلالها. وليس يُرضي الله ولا الناس ولا الحق — والحق اسم من أسماء الله — أن يحكم رجلٌ في مثل مكانة هذا الأستاذ مثلما هو مفروض في سنه من حكمة ووقار على بني وطنه — حُكامًا ومحكومين — بكل هذا العَسْف والحَيْف والبعد كل البعد عن الضمير والحق والعدل.

يستطيع الأستاذ — إذا شاء — أن يستمتع بالكتابة الساخرة في قصة أو رواية أو مسرحية، أما أن يعرض لمصر وهي مصر، ولناسها وهم ناسه، بهذا الاستخفاف والهزء؛ فوا ضيعتنا إذن لكل معنًى شريف! ووا ضيعتنا أيضًا للوطنية، وللخُلق الذي يُنتظر من أمثاله!

إن الأستاذ الجليل قديم في صناعة العلم. ولا يحتاج لمثلي، وقد أكون منه بمثابة الابن، أن أُذكِّره بأمانة القلم الذي يحمله، ولا يحتاج لمثلي أن يسائله: ما هذا الذي تبثُّه إلى شبابٍ ليس يدري عن تاريخ وطنه؟ ويُسائله: ألم تفكِّر فيما قد تجرُّه كتابتُكَ هذه الجائرة على المثُل العليا من آثام؟

وأين الحق فيما تقول، وكيف أصبحَت مصر كما هي اليوم إن كان حكامها كلهم لصوص، وشعبها كله ذليل، كيف أنبتَت الأئمة الأجلَّاء في الفن والأدب والعلوم جميعًا، ورُبما اعتبرك البعض واحدًا من هؤلاء الأئمة؟

وكيف كانت ثاني دولة في العالم تسير بها القطارات، وكيف كانت أعظم دولةٍ في منطقتها؟ إن العدَم لا يُنبِت إلا عدَمًا، وما كانت مصر عدمًا قط.

بل إنها من القوة والعظمة بحيث استطاعت أن تُقاوِم كل ما مر بها من أهوال وتعيش، وقد عاشت وستحيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

اصرف سخريتك إلى غير كرامتنا أيها الأستاذ، والعب بقلمك في غير تاريخ مصر، وتسلَّ في أيامك بغير ماضينا الذي هو باعث حاضرنا وأمل مستقبلنا.

خلقَه، فسوَّاه، فعدلَه

يقع كثيرٌ من الناس في خطأٍ فادح حين يقسِّمون الناس إلى طبقات، ويُطلِقون على كل طبقةٍ أحكامًا عامة، وكأنهم فصائلُ من البقر والماشية، يصدُق على الواحدة منها ما يصدُق على المجموع. والفضل في تصنيف هؤلاء البشر يرجع إلى النظرية الشيوعية التي تَشابَه البقر عليها، وجعلَت البشر وهم البشر من خشب وحديد، فالنظرية لا تعترف بالروح؛ ومن ثَمَّ فهي لا تعترف بإنسانية الإنسان. وكل غني شِرِّيرٌ سافل مُستغِل، وكل فقيرٍ شريفٌ نبيل مظلوم.

ويأبى الواقع هذا؛ فأنت تجد بين الأغنياء الشريف واللص، والنبيل والسافل، والكريم والخسيس. وتجد هذا التباين نفسه في كل فئة من فئات المجتمع، بل إنَّ الأسرة الواحدة التي يعيش أفرادها في ظروفٍ اجتماعية واحدة يخرج الأبناء فيها لكل ابنٍ خلقه الخاص، وأفكاره التي ينفرد بها لا يماثله فيها أحد. وتجد فيها الابن اللص، وتجد فيها المتطرف في الشرف، الذي يرفض أن يحيد عنه قيدَ أُنملة. وتجد في الأُسرة الفتاة المستهترة، وتجد فيها الفتاة المُغالية في المحافظة على القيم والأخلاق، إن كانت هناك مُغالاة في المحافظة على القيم والأخلاق.

والتركيبة الخلقية هذه عجيبة في شأنها؛ فهي كملامح الوجه لا تعرف كيف تكوَّنَت مُقوِّماتها؛ فكما تجد في الأُسرة الأسمر والأبيض، وخشِن الشعر وناعمه، تجد ذلك التبايُن في الأخلاق أيضًا.

وتُطالِعكَ الحياة بأشياءَ مذهلة؛ فالحقد — كما يقول العلم، وكما تقول طبيعة الأشياء — لا يكون إلا من إنسانٍ يشعُر بالصغَر، إذا قارن نفسه بإنسانٍ آخر، فيشعر المفضول بالحقد على الفاضل، وكثيرًا ما يشعر بالحقد على المُفضِل الذي وهب له من الخيرات ما لم يكن يتوقَّعه.

ولكني رأيتُ حاقدين وهب الله لهم الثراء العريض، والشهرة البعيدة، والهناء العائلي، وفضَّلَهم على كثيرٍ من نفس فئتهم، وجيلهم.

ولكنها تركيبة النفس، هذه التي لا يعرف أحد كيف تتكوَّن، ولا لماذا، ولا يستطيع أي عالمٍ في الاجتماع أو في علم النفس أن يجد لها السبب المُقنِع أو الرأي الفصل.

وما بعجيبٍ أن يفضُل بعض الناس بعضًا في الرزق؛ فكذلك خلقَهم الله.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الزخرف، الآية (٣٢): ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

تعاليتَ يا الله سبحانك، وتقدَّسَت آلاؤك، أترى كيف يُنهي الآية بأنَّ رحمة ربك خيرٌ مما يجمعون؟ فالتفاوت في الرزق لا يكون إذن إلا هنا في هذه الحياة الدنيا، وليس في العليا. أمَّا هناك فرحمة ربك خيرٌ مما يجمعون، ولا يرتفع بعضٌ فوق بعضٍ درجاتٍ أو درجة، وإنما تشملهم جميعًا رحمةُ ربك في كريم سببها؛ فلا سيد هناك ولا مسُود ولا مُسخَّر ولا مسخَّر له، إنما هي رحمة ربك فحسب.

وتُحاول أن تجد في الحياة الدنيا نظامًا يمكن أن يسير بغير رئيس ومرءوس، فلا تجد هذا النظام في أبشع صورة وأبعدها عن الإنسانية في البلاد الشيوعية؛ فرئيس الحزب هناك هو الذي يبسُط الرزق لمن يشاء ويَقْدِر، مُتعسِّفًا غاية التعسُّف ظالمًا كل الظلم، واضعًا نفسه في مكان رحمة السماء، التي تعطي فلا تعطي إلا بالعدل الإلهي، وتَقْدِر الرزق، فلا تَقْدِره وتجعله قليلًا أو ضئيلًا إلا بالميزان الأعلى من القسط الأوفى، من رحمة عالمٍ رحيمٍ متعالٍ.

ولكنَّ الشيوعيين يقولون ما لا يفعلون، ويدَّعون ما لا يعملون، فيُطالبون بالعدل للكادحين، ثم يسحقون هؤلاء الكادحين. ويُطالبون أن يكون الحكم للطبقة العاملة، ثم يُلقون بأثقال أحزابهم في مختلف الدول الشيوعية على هذه الطبقة أفدحَ ما يكون الإثقال.

ويُحاولون مع ذلك أن يجتذبوا إليهم هذه الطبقة في الدول التي لم يُصِبها وباؤهم بالألفاظ الجوفاء، والخطب الرنانة، وبالمنشورات الكاذبة.

ويتساءل بعض قوم: لماذا لا يستطيعون مع كل هذه الجلَبة، وهذا الضجيج، وهذه الأماني التي يُزيِّنون بها نظريتهم، أن يجتذبوا إليهم العمال في كل أنحاء العالم، وخاصة البلاد التي لا يحظى فيها العمال بتلك الأجور العالية التي ينالها عمال العالم الرأسمالي؟ والأمر لا يحتاج إلى إعمال فكر، ولا إلى إمعان نظر؛ فإنَّ الإيمان بالله يقف دائمًا حصنًا

منيعًا ضد الشيوعية في جميع أنحاء العالم، ولا أقول في مصر وحدها؛ فقد رأيتُ في بولندا طاقةً من الإيمان لم أتصور أن أجدها في بلدٍ قط.

أما في مصر ذات الألف مئذنة، تقدمُها مئذنة الأزهر الشريف ومنارته، فهيهاتَ للشيوعية والإلحاد أن تجد فيها مراحًا أو مرعًى خصيبًا كان هذا المرعى أو غير خصيب. وإنما ستظل نبتًا شائنًا في مباءةٍ عفنة من الكفر والاعتداء على كل نبيل وشريف في حياتنا. وسيظل الصائتون بها جماعةً من المهازيل والهُذاة، يُنشئون الخرائب، ويَنعِقون فيها، وتبقي مصر مشرقة الآفاق، مضيئة الجنبات، بلا إله إلا الله، محمد رسول الله، بل وبأجراس الكنائس، وحرص المسيحي المصري على دينه وعلى إيمانه وعلى إخوته من أبناء وطنه.

وأخرى تقف كالصرح المريد أمام أكاذيب الشيوعية والشيوعيين، تلك هي الحقيقة التي اتضحَت معالمها عند تطبيق النظرية. وحسبك نظرةٌ عابرة سريعة إلى عدد الهاربين من جحيم الشيوعية إلى البلاد التي يسود فيها القانون الإلهي، والقانون البشري. وأُذكِّرك بذلك القطار الذي جمع به سائقُه عشراتٍ ممن خنقَت الشيوعية أنفاسهم، وسار القطار حتى بلغ ذلك الجدار الذي يفصل برلين الشيوعية — والتي يُسمِّونها ديمقراطية تمحكًا في الديمقراطية، وتمحلًا — عن برلين الغربية، وإذا بسائق القطار يدخل بقطاره وبمن معه في الجدار نفسه معرِّضًا نفسه وصَحْبه لموت الصدمة، مُفضِّلًا ومُفضِّلين الموت عن تلك الحياة المقيتة، التي تجثُم على إنسانيتهم في الحكم الشيوعي. وما حدث في تشيكوسلوفاكيا وما حدث في المجر وما يحدُث اليوم في بولندا؛ كل هذا وأشباهه كثيرٌ أثبت لعمال العالم أن وعود النظرية الشيوعية كذبٌ واهم، لا تعرف الحق ولا يعرفها الحق. والذين يقاومون الشيوعية شباب، وكانت قبلهم أجيالٌ أخرى قاومَتْهم. وأُذكِّرك بكتاب كرافتشنكو الشهير «آثرت الحرية»، ولكنَّ هؤلاء المُقاومين ليسوا جيلًا بأكمله؛ فالحياة لا تعرف التماثل في الأجيال، وإنما تجد في الجيل الواحد الجسور الجريء، وتجد الخانع الخائف. وكذا لا تنطبق صفةٌ واحدة على جماعة بأكملها أبدًا؛ فالله سبحانه شاء — برفيع حكمته — أن يُلزِم كل إنسان طائره في عنقه. وما دام الأمر كذلك — وهو كذلك — فكل فردٍ في كل جيلٍ له مقوِّماته، وله معالمه الخلقية الخاصة به. وإن كانت بعض أوضاعٍ سياسية قد أنشأَت بعض قيمٍ فاسدة، إلا أن الخير بقي خيرًا، والشر بقي شرًّا، وليس هناك أحدٌ لا يعرف الخبيث من الطيب، ولا الحلال من الحرام. وإنَّ بين الشيوعيين أنفسهم — وهم من أنكروا الله وهو الله — من ترغمه الإنسانية أن يكون شكورًا إذا مسَّه خيرٌ من إنسان، ومن

لا يستطيع أن يجحد المعروف إذا نال معروفًا. مع أن النظرية تُحذِّرهم أن يخدعهم غير الشيوعيين باللمسات الإنسانية، فيصرفوهم عن مذهبهم الدموي، الذي لا يعترف بتفرُّد الكيان البشري، إلا أن بعضًا منهم مع ذلك لا يستطيع أن يتخلى عن إنسانيته، ولا يطيق أن يجحد الفضل للمُفضِل. وهكذا يُحطِّمون هم أنفسُهم بتصرفاتهم فكرةَ أنَّ الطبقة ينطبق على الفرد منها ما ينطبق على الجميع، وأنَّ الجيل بأكمله يصدُق على الواحد منه ما يصدُق على الجيل بأَسْره، بل إن الحزب الشيوعي أثبت ما أثبتَته جميع أحزاب العالم، أن ما يتصف به أحد أفراد الحزب ليس من الحتم أن يتصف به جميع أفراد الحزب، حتى وإن ربطَت بينهم بعضُ مبادئ وأفكار الحزب الشيوعي. والأحزاب المتطرفة عامة تُمثِّل عند من يقتنع بها دون دافعٍ مالي أو نفعٍ شخصي فترةً أكثر مما تُمثِّل عقيدة.

فهي عند غير المنتفعين قطعةٌ زمنية من المراهقة الفكرية، ما يلبث الفتى إذا شبَّ عن طيش الشباب ورعونته أن يرتد عنها؛ فالإنسان رغم أنف الشيوعية يتأثَّر بسنه وبثقافته. قد يترك أقصى اليسار أو أقصى اليمين إلى موقفٍ عادل في الحياة، يتعمَّقها ويبلُغ من أسرارها وجذورها ما يجعله إنسانًا سويًّا، كما أراده الله أن يكون؛ فهو سبحانه الذي خلقه فسَوَّاه فعدلَه، في أي صورةٍ ما شاء ركَّبه.

لستَ وحيدًا

يخطئ من يظن أن الإنسان إذا اختار الحق طريقًا، والصدق منهجًا، يلقى دائمًا التأييد من الناس؛ فليست الحياة بهذا العدل الذي قد يظن، وإلا ما سُمِّيَت الدنيا دنيا، وما سادت فيها الفوضى، ولا تعملَق الأقزام، ولا ساد الهُزلاء، ولا استأسد البُغات.

فصاحبُ الحق من الطريق كراكب الأسد قد اختار أصعب الوسائل مركبًا، وأبعدها عن الأمن؛ فما هو مركبٌ ذلول. وما هذا بعجيب؛ فالطريق الذي اختاره وَعْر يعنُف بالسائر فيه أشدَّ العنف، ويُزلزِل كيانه كل مُزلزَل، حتى ليكادُ يرميه عن الطريق إلى طرقٍ أخرى كلها يُسرٌ ونعومة، وهناء ورغَد.

فالمؤيِّد للحق مؤيدٌ لأقل فريقٍ في الدنيا عددًا؛ فأغلبُ الناس على غير الحق؛ منهم الباحث عن مالٍ مهما تكُن الوسيلة إليه؛ خطفًا، أو سرقة، أو دعارةً خُلُقية، ومنهم الباحث عن الجاه قد اتخذ سبيله إليه نفاقًا وخداعًا، وكذبًا، ودفاعًا عن الباطل ومساندةً للظالم بستار المظلوم، وتأييدًا للسفاح بدَرء الفضيلة، ومنهم الباحث عن سرادبَ إلى منصبٍ أو كنز من ذهبٍ مسروق، وليس يَعْنيه أسبابُ وصوله وطرائقه؛ فالطريق كلها عفَن وإهدارٌ لكرامة، وسفكٌ لدماء، وإراقةٌ لماء الوجه، وبُعدٌ كل البُعد عن الحياء.

وينظُر السائر على طريق الحق إلى البشر الآخرين على هذه الطرق، فيجدُهم يصِلون إلى غايتهم بهزَّة خصرٍ من مومسٍ يستجلبونها، أو قبضة مالٍ من خزائن لا يملكونها، أو سكبًا من نفاق يبذلُه من لا حياء له لمن لا عقل له، ثم تنفتح المغاليق، ويبلُغ السائر على الموبقات إلى هدفه ومبتغاه.

وقد تعوَّد الناس — أغلب الناس — ذلك من الناس، أغلب الناس، حتى أصبح جمهور البشر لا يُصدِّقون أنَّ أحدًا يمكن أن يقول الحق لوجه الحق؛ فهم دائمًا يبحثون

عن سببٍ خبيث للرأي الطيب، فإن عزَّهُم أن يجدوه وأعياهم البحث اختلقوا من الخُبث ما حلا لهم، ولفَّقوا من التُّهم ما يَعِن لأفكارهم.

وحين يتبيَّنون أن صاحب الكلمة الحق كان يقولها لوجه الله، والشرف، والضمير، يكون القائل قد مات، أو يكون قد قارَب الموت، حتى لا يعنيه أنصَفَه الناس أم ظلموه. وليس يُبالي أن كانوا أدركوا أنه كان يصدُقهم ولا يُخادعهم أم لم يدركوا.

وهكذا — والحديث إلى الشباب — لا تنتظر أن تنال من طريق الحق، إذا أنتَ اخترتَه، تكريمًا أو إعجابًا بموقفكَ الصلب في سبيل الحق، فإذا كنتَ تُرضي الناس — أغلب الناس — فاختر غير الحق طريقًا، وغير الضمير شريعة، وغير الشرف سبيلًا، وابتَعِد ما استطعتَ عن مثل هذه المعاني السامية، واختَر عكسَها تمامًا رفيقًا ومنهجًا.

ولكن لا تحسب أنكَ إذا سرتَ مع الشرف فلن تنال أحسن الجزاء، بل إنكَ ستنال ما لا يستطيع غيرك أن يحصل عليه، بشرط أن تُقدِّر هذا الذي تحصُل عليه؛ فإنَّ الجوهرة المُنقطعة النظير لا تُصبح ذات قيمة إلا إذا وقعَت في يد من يُقدِّرها.

من المؤكَّد يا أخي، أنك لن تُرضي كل الناس، بل ومن المؤكَّد أيضًا أنك لن تُرضي أغلب الناس، ولكنك ستُرضي أهم مخلوق في حياتك، وهو أنتَ وضميرك .. إذا كان ضميرك خالصًا وأرضيتَه، فقد أرضيتَ ربك، وأرضيتَ الشخص الوحيد الذي يلازمكَ لا يفارقكَ في صحو وفي نوم، وفي زحمة الناس، وفي انفراد. تراه في المرآة وتراه وأنت لا تراه، فإن رضي عنكَ هذا الذي هو أنتَ فقد بلغتَ ما لم يبلغه أحدٌ مهما يكُن له من جاه ومال وسلطان.

وحتى يرضى عنك هذا الأنت الذي هو ضميرك الخالص لله لا بد أن تدفع الثمن من حقد الحاقد الذي يريد أن يصبح مثلك ولا يستطيع، ومن كيد المنافق الذي يبيع نفسه لكل من يدفع الثمن، ومن غضب السفلة على الشرفاء، وسخط الوضيع على الكرام، وحسد الخطَّائين لمن يبتغون إلى الله الوسيلة.

وإذا وجدتَ قليلًا من الناس معكَ في الطريق يعينونك على الوحدة، ويؤيدون موقفك، ويشُدُّون أزرك، فالفرد من هؤلاء أمةٌ بأَسْرها، فالجزاء كما ترى أعظم بكثيرٍ مما تتصوَّر بشرط أن تُقدِّره وتُحسن تقديره، وتذكر البيتَين الرائعَين:

تُعيِّرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها إن الكرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ

ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق

من أعظم الأبيات التي صادفتُها في قراءاتي ذلك البيت العظيم:

لعمركَ ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ

فالبيت مع جمال صياغته يضع قاعدةً وطنية تظل الأيام تُردِّدها، وتؤيِّدها على مدى السنوات الطوال. وقد قيل هذا البيت منذ ألف عام ونيِّف، وباليقين لم يكن الشاعر يدري أن مصر ستُلاقي من العنَت والقهر ما لاقَته، ولم يكن يدري أن الآلاف من أبنائها سيتركونها مهاجرين، ويتركها أيضًا غير أبنائها، الذين اتخذوا منها موطنًا، واختاروها دون بلاد الله بلدًا لهم، ولكن المصري الذي يهاجر يحمل مصر معه، ويأبى في اعتزازٍ لا أعرف له مثيلًا أن يتخلى عن جنسيته المصرية. قد يقبل أن يحمل جنسيةً أخرى، ولكنه قَطُّ لم يترك جنسيته المصرية، بل إن الأغلبية الكاثرة منهم تتوق أن ترجع إلى مصر لتكون ملاذه الأخير، ومراح اطمئنانه، ومبعث دفئه من بَرد الغربة وهجير الوحدة.

وكنتُ مع أخي وصديقي الأديب الفنان فاروق خورشيد في اليونان، وكنا نمشي في شوارع أثينا نتبادل الحديث باللغة العربية، فإذا أقوامٌ يتحلَّقون حولنا وقد رنَّت في آذانهم أنغام اللغة المصرية، ولا أقول العربية فهم لا يعرفون إلا اللغة المصرية، أو أكثرهم على الأقل لا يعرف غيرها، ويصيحون بي وصديقي: أنتم من مصر. أنتم من البلد الحبيب. كيف الحال هناك؟ أنستطيع أن نرجع الآن؟ وفي يومٍ كنتُ أُحادث صديقي فاروق ونحن في طريقنا إلى صيدلية لنشتري منها بعض دواء. ودخلتُ إلى الصيدلية ووجَّهتُ حديثي بالإنجليزية إلى صاحبها، فإذا هو يُجيب في لغةٍ عربية خالصة، وليست مصرية، وفي لسانٍ فصيح ليس فيه من العجمة أثَر، قال صاحب الصيدلية: نعم يا سيدي، إن هذا الدواء

عندي. ودُهِشتُ وصديقي من هذه اللهجة العربية النقية وسألتُه: كيف عرفتَ أنني أتكلم العربية؟ وضحك وهو يقول: لقد سمعتُ حديثكما وأنتما قادمان إلى الصيدلية. وراح الرجل المثقَّف يسأل عن أنباء مصر، ولم تكن في ذلك الحين تَسُر، فرُحْنا نحن نحاول أن نتستَّر على ما بها، وما ندري إن كنا أفلحنا أم تعثَّر بنا الكذب.

وأرى في كل عامٍ في لوزان بسويسرا عائلةً يونانية، تُصر على أن تلتقي بي، وتتعرف مني ومن زوجتي على أنباء مصر. وعلم الله أننا قد نجد الأُسرة تعلَم من أنبائنا ما لا نعلمه.

فإذا كان هذا حال الأجانب الذين تمصَّروا، أو أقاموا في مصر دون تمصُّر، فما ظنك بنا نحن الذين رضعنا ألبانها، وسرت شوارعُها وحواريها وأزقتُها، وريفُها، وبحرها، في الحوافي البعيدة من مسارب نفوسنا؟! لنا بين ربوعها ذكرياتُ الطفولة والصِّبا والشباب، ومن أقام لحِقَت به أيدي الكهولة والشيخوخة، ولنا في باطن أرضها أجداد وأجداد أجدادنا وآباؤنا، ولنا مشرق بسمة أبنائنا وعناؤهم، وخُطى أقدامهم في لعب وفي جِد، ولنا مستقبل هؤلاء الأبناء، وغدُهم الذي أصبح غدنا نحن ما عشنا، وأهم جزءٍ منا إذا نحن فارقنا الحياة. ولا أستطيع أن أذكُر مصر ولا أذكُر الحنين إليها عند ملك الشعر العربي شوقي الخالد وهو يقول:

إذا الزمانُ بنا عيناءُ زاهيةٌ ... ترفُّ أوقاتُنا فيها رياحينَا
الوصل صافيةٌ والعيش ناغيةٌ ... والسعد حاشيةٌ والدهر ماشينَا
والشمس تختالُ في العقيان تَحسبُها ... بلقيسَ ترفُل في وشي اليمانينَا
والنيل يُقبِل كالدنيا إذا احتفلَت ... لو كان فيها وفاءٌ للمُصافينَا
والسعد لو دام والنُّعمى لو اطَّردَت ... والسيل لو عَفَّ والمقدارُ لو دينَا
لم يَجرِ للدهر أعذارٌ ولا عرسٌ ... إلا بأيامنا أو في لياليـنَا
وهذه الأرضُ من سهلٍ ومن جبلٍ ... قبل القياصر دِنَّاها فراعينَا
ولم يضَع حجرًا بانٍ على حجرٍ ... إلا على آثارنا أو في لياليـنَا
كأن أهرام مصر حائطٌ نهضَت ... به يدُ الدهر لا بنيانُ فانينَا

وعدَت على مصر العوادي، وما زلنا، وأحسب أننا سنظل لسنواتٍ نعاني آثار الزلزال المُدمِّر، الذي ترك مَرافقَ مصر ركامًا مُتهتك الأوصال، ممزَّق النواحي. والناس تصرخ وتشكو، والناس تُحب الشكوى، منذ وعيتُ السياسة، لم يرضَ الشعب المصري عن حزبٍ حاكم قط، حتى وإن كان هو الذي اختاره وأجلسه على كرسي الوزارة، وحسبي لأذكُر

لك مثالًا لا تنساه مصر. ألم ينجح الوفد في آخر انتخاباتٍ دستورية في مصر قبل الثورة؟ وكان بحاله عارمًا أخاذًا؛ فقد كانت الانتخابات بعد أن ظل مُبعَدًا عن الحكم أكثر من خمسِ سنوات. ومع ذلك فحريق القاهرة وقع بعد سنة وبضعة أشهرٍ قليلة من تولِّي الوفد مقاليدَ الحكم. ومهما قلتُ إنَّ هذا الحريق كان وليد مؤامرة، فالذي لا شك فيه أنَّ الشعب لو أراد التصدي للمُعتدين لصدَّهم ولردَّهم على أعقابهم دون أن يُلحِقوا بالقاهرة الحبيبة ما ألحقوه بها من خراب.

وفي الأمس القريب وصل إليَّ خطاب من مجهول، وإن كانت الجهة التي تفضَّلَت بإرساله إليَّ غير مجهولة. وأعفُّ عن الرد عما جاء بالخطاب من دناءة، فما تعوَّدنا من هذه الجهة إلا مثل هذا، وإنما أُجيب في شأنٍ واحد مما جاء في الخطاب، وهو غضبُه على أنني لا أتكلم في مشاكل الشعب. لكَم يتاجرون بك أيها الشعب العظيم! وهل يحتاج الشعب لأحدٍ أن يذكُر له مشاكله، أليس هو أدرى الناس بها؟ ما أسخفَ الطبيب إذا وصف للمريض داءه الذي هو أدرى الناس به، دون أن يصف الدواء!

فإذا أنا تصدَّيتُ لهذه المشاكل على غير علمٍ مني مكينٍ بدوائها، فأنا ذلك الطبيب الذي يُردِّد على مسامع المريض أعراض مرضه، ثم يتركه ويمضي دون أن يذكُر له الدواء.

وإنما قُصارى الأمر معي أن أُهيب بالحكومة أن تُنفِّذ رأي العلماء؛ فهي قد استشارت رجال الاقتصاد، أفتُراها نفَّذَت شيئًا من آرائهم؟

أما أن أتكلَّم عن مشاكل التليفونات فمن أين لي الخبرة بذلك؟ ولكن لماذا لا يمتدح الناس التقدُّم الذي تحقَّق في هذا المرفق؟ أنَسُوا أنَّ وسط القاهرة، ومصر الجديدة، والمعادي، ظلت سنواتٍ لا ينطق فيها تليفون؟ ألا ينبغي علينا أن نحمد التقدُّم حتى يجد العاملون عندنا بعض الاعتراف بالفضل بدلًا من أنهار الذمِّ التي لا يقف سيلُها؟

أو أتكلَّم على مياه الصرف أو غير ذلك، فإنني أكون كذلك الطبيب السخيف. أنا لن أردِّد كالببغاء ما يعرفه الناس مغتنمًا بالحديث الفرصة لأُهاجم الحكومة، فلستُ بذلك، فما أصبح الهجوم على الحكومة اليوم بطولة. وفيمَ البطولةُ وجرائدُ المعارضة تقول ما تشاء وتختلق ما تشاء أيضًا، وتصدُر مع ذلك في مواعيدها، بل وتسافر إلى الخارج أيضًا تحمل أنسام الحرية التي تشهدها مصر إلى العالم المتحضر الذي أصبحَت الحرية فيه أمرًا لا يحتاج إلى الإشادة به، وتُعلن هذا العالم أننا نسير في هذا الطريق، وأننا عنه لا ننكص؟ فلنَضرِبْ إذَن صفحًا عن الخطاب وأصحابه وعن ذلك المجهول المعروف، ولا أُحب أن أروي بيت المتنبي المعروف؛ فقَدْر ما أُبغض الناقصين أُبغِض أيضًا أن أمدح نفسي.

خطابٌ في موعده

هي فتاةٌ في ربيع العمر ونَضْرته، وكان فتاها شابًّا يعمل في مطبعة، وكان يكسب ما يقوم بشأن بيته، وتم بينهما الزواج، ومشى بهما العمر رضيًّا هانئًا، تلك الهناءة التي تخلو من الأحداث الكبرى، ولا تخلو من الخلافات الصغيرة التي تنشأ بين زوجَين في أول حياتهما الزوجية، فالزوج ذو عادات وتربيةٍ خاصة، والزوجة لها بدَواتها وتربيتها الخاصة. وحين تصطدم التربية بالتربية والنشأة الغريبة بالنشأة الغريبة لا بد أن تنشب هذه الخلافات الصغيرة، وربما كانت الحياة تحلو بهذه الخلافات؛ فهي آخر الأمر لرباط الزوجية، أقدس ما خلق الله من صلة ومن عقود.

وأنجبَت الزوجة الشابة ولدَين، ولكن حدَث أمرٌ ليس بعجيب ولا شاذ. وقد يسأل سائل: ففيم اهتمامك به وكتابتك عنه، وأنت تعلم أنه ليس بعجيب ولا شاذ؟

وربما راق لي أن أُجيب على هذا التساؤل؛ فالواقع أن الكاتب يكتب وهو لا يعرف لماذا يكتب، وإنما كل الذي يدريه أن شيئًا ما، لا يدري مأتاه، هزَّه هزًّا عنيفًا، ودفع به إلى الكتابة. وليس يعنيه في شيء أن يكون هذا الذي يكتبه جديدًا على الناس أم قديمًا.

وقال عنترة قبل ظهور الإسلام وفي غروب الجاهلية: هل غادر الشعراء من مُتردَّم؟ فوحقِّك ليس بين الناس من جديد؛ فالشر قديمٌ قِدَم قابيل وهابيل، والخير قديمٌ قِدَم آدم ومن أعقبه من أنبياء.

كان جار الزوجين شابًّا في مقتبل العمر ينتمي إلى أسرةٍ عريضة شهيرة بين الناس، وكان للشاب سيارةٌ وضيئة، وابتسامةٌ آسرة. وأهم من هاتَين كانت له سمعةٌ أنه ثري، وأنه يُحب أن يُنفِق من ثرائه هذا.

ولم تهتمَّ الزوجة أنَّ هذا الشاب جاهلٌ لم يكمل تعليمه، وكان من الغباء بحيث لا تستطيع أن تستبين غباءه.

بالغ الفتى في إظهار محاسن سيارته، وبالغ أيضًا في إطلاق ابتسامته على قلب الزوجة، وترك سمعة ثرائه تنساب إليها من سيلٍ جارف حتى إذا أيقن أنه وقَع من نفسها حيث يُريد أن يقع بدأ حديثًا.

ولم يكن هذا التخطيط عن غباء — لا قدَّر الله — وإنما هو مران تعوَّد به أن يصاحب الفتيات، وفيم ينشغل الجاهل الجميل إلا بالنساء؟

وقد تجد بين الناس أغبياء وإنما يتقنون من حياتهم جانبًا واحدًا. وهم في هذا الجانب الذي يتقنون يصبحون أعلامًا مُتمرسين، حتى ليبدو الفرد منهم وكأنه ذكيٌّ شديد الذكاء.

أشار إليها فرفضَت فألح فامتنعَت؛ فأغراها بنزهةٍ بريئة بالسيارة، فتمنَّعَت تمنُّع الراغبات. وأدرك الفتى بخبرته أنها أصبحَت من أولئك الرَّاغبات فأعاد الإلحاح.

فقبلَت ونزلَت إلى السيارة.

– أتعرفين كم أحبُّك؟

– إنني متزوجة.

– أعلم.

– وأم لطفلَين.

– أعلم.

– فلم إصرارك هذا؟

– وهل للحب أسباب؟

– أنت غني وجميل.

– أترينَني جميلًا؟

– وأنت تعلم.

– إذن.

– تستطيع أن تجد غيري كثيرات.

– ولكني أريدك أنت.

– وماذا تريد لعلاقتنا هذه؟

– ما تريدين أنت؟

– أنا لا أعرف إلا الزواج.

– فليكن ما تريدين.

– كيف؟

– تتركين زوجك.
– هل هذا معقول؟
– وكيف يمكن أن يتم زواجي؟
– لا يمكن.

لم تقتنع في النزهة الأولى بالسيارة، ولكنها في الثانية والثالثة والعاشرة اقتنعَت.

وحين تريد الزوجة أن تترك زوجها لا يمنعها شيء، خاصة إذا كان الزوج شريفًا، ولا يقبل أن يعيش مع زوجةٍ لا تحبه.

طُلِّقَت الزوجة من زوجها وتركَت طفلَيها له، ومكثت شهور العدة في بيت أبيها، ثم تزوَّجَت السيارة والابتسامة الآسرة.

كانت قد ورثَت عن أمها نصف بيت فباعَته، فهي لم تعُد في حاجةٍ إلى رأس مالٍ يؤمِّن حياتها، فليس بعد غنى زوجها أمان، وهي تُريد ثمَن نصف البيت هذا لتشعُر أنها غنيةٌ هي أيضًا.

وكان أبوها رجلًا في أُخريات عمره، يعيش مما يتقاضاه من معاش.

ويبدو أن الأب لم يكن راضيًا عن تصرُّف ابنته. ويبدو أنَّ الموت قد حلا له أن يختطفه دون إبداء أسباب؛ فالموت غير محتاجٍ إلى تقديم أسباب.

وأصبحَت الزوجة القديمة الجديدة لا عائل لها إلا زوجها، وما هي إلا شهورٌ قلائل واتضحَت الأمور جميعًا.

الابتسامة تكشيرٌ عن أنياب، وليست ابتسامة؛ فالفتى ذو الأصل العريض كثير الشجار، كثير المطالب لا يُرضيه شيء.

والسيارة كانت آخر ما يملك، وكان لا بد أن يبيعها، فهو لم يعُد لديه ما يُنفقه عليها؛ بل لم يعُد لديه ما ينفقه إلا ثمنها.

– ومن أين ستعيش بعد ذلك؟
– سأسافر إلى السعودية.
– وإن لم تسافر؟
– المسائل منتهية.

وأنفَق ثمن السيارة ولم يبقَ إلا ثمن نصف البيت ينفقان منه، وأوشك هذا المال أيضًا أن ينفد.

ولكن مشروع السفر إلى السعودية اكتمل، فاشترى تذكرة السفر من مال زوجته، واتفق معها أن يُسافر ويُرسل إليها ما يُمكِّنها من اللحاق به.

وفي الطريق إلى المطار.

– هل بقي معكِ شيء من النقود؟

– خمسون جنيهًا.

– هاتيها.

– وأنا كيف أعيش؟

– في ظرف أسبوع سيكون عندك ما تشائين من مال.

– وماذا أعمل في هذا الأسبوع؟

– ليس صعبًا أن تدبِّري أمرك لمدة أسبوع.

– أمري إلى الله.

وأخذ الخمسين جنيهًا.

وبعد أسبوع فعلًا، وصل إليها خطاب من زوجها.

لم يكن به مال، وإنما كان به ورقة الطلاق.

وتسألُني فيمَ أقُص هذه القصة وهي في كل يوم على شاشة السينما، ولكنني اليوم أنقلها من الحياة لا من السينما، وأنا مع كل ذلك لا أدري لماذا أحببتُ أن أقُصَّها عليك.

ما أجمل هذا الحريق!

علاقة الابن بأبيه علاقةٌ عنيفة آسرة؛ فالابن دمي وحياتي، وما بعد مماتي. يختلف الابن مع أبيه، وما أسرعَ ما يتبيَّن له الصواب الذي كان عليه أبوه! يُحبه ويحمد له أنه نصح فصدق النصيحة، ونظر فأحسن النظر، وتوقَّع فأفلح توقُّعه، أم هو يُحس أن أباه دائمًا يتقدَّمه، ويرى أبعد مما يراه هو، ويعرف أكثر مما يعرف؟ هل يُحب الابن أباه إذا أخلص النصح، وصدق منه الحدْس، أم يُحس بالغيظ منه أنه توقَّع فأصاب في حين توقَّع هو فأكدى وأخطأ، ولم يُصِب من الرأي مفاصله؟ أيُحب الابن أباه لقاء حب أبيه له، أم يضيق به وبحُبه هذا الذي يقيِّد حركته، ويحدُّ حريَّته، ويحبس عربدَته؟ وماذا يستطيع الأب اليوم أن يفعل؟ أمَّا في علاقة جيلنا نحن بآبائه فقد كانت المشكلة محسومة، أو إذا شئتَ الحق لم تكن هناك مشكلة، وإنما كان الأب يأمر ولا يتصور الابن أن يكون جواب الأمر إلا الطاعة والخضوع، والمسارعة إلى الاستجابة. وإنما اليوم وقد انهارت كل القيم الموروثة، ماذا يستطيع الأب أن يفعل؟ هل يوافق ابنه في كل ما يذهب إليه، ويتركه يخوض تجربته مُقدِّرًا أن الناس اليوم لم تعُد تؤمن بتجارب الآخرين، وإنما تؤمن الأغلبية العظمى منهم أن ما يقع للآخرين لا يمكن أن يقع لهم، وكل إنسانٍ يحسب أنه جنسٌ وحده غير البشر، وأنَّ ما يصدُق على آحاد الناس وجماعاتهم لا يمكن أن يحدُث لهم هم؟ إذن فيتركُ الأب ابنه يخوض تجربته، أم يقف في كبريات الأمور وقفةً حاسمة حازمة؛ ليعلم الابن أن الأب واحدٌ من العقبات التي لا بد أن يتخطَّاها إلى مبتغاه ومطلبه، وقد يكون كبرى العقَبات وأشدها مراسًا وأصلبها عودًا وأعتاها مكسرًا؟

إن حب الآباء العنيف لأبنائهم قد يؤدِّي بهم آخر الأمر إلى كراهيتهم في بعض الأحيان؛ لأنهم يرون فيهم أَسْرهم، ورعبهم، وخوفهم، وقلقَهم، وزوال أمنهم، وزعزعة حياتهم؛ فهم خيولٌ جامحة ثائرة، ولا تفكِّر، تسير في الطريق قد يبدو أوله ممهدًا في حين يعرف الآباء

أن الهاوية نهايته. يفرضون على الآباء رغباتهم حتى وإن كانت هدمًا لرغبات أبوَيْهم. وقد يبلغ الآباء من العمر مكانًا يطمئنون عنده على قابل أيامهم، ولكن يظل الأبناء هم رعب أيامهم، وتهديد أمنهم، ومصدر شقائهم الذي هو في نفس الوقت مصدر سعادتهم من كثرة ما يخاف الآباء على الأبناء. يخافون عليهم، وهم يتعثَّرون في الطريق، ويُرعَبون على مستقبلهم، وهم في قمة نجاحهم؛ فالأب يخشى على ابنه المتعثر ويخشى على ابنه الناجح ألا يدوم له النجاح. وحين ترى أبًا يروي عن أبنائه ويُكثر من الرواية فلا تلُمه ولا تضِق به؛ فليس إلى إملالك يقصد، وإنما يستمد منك الطمأنينة، ويلتمس في ابتسامتك الثقة في المستقبل؛ فهؤلاء الأبناء مصدر شقاء آبائهم من كثرة ما يثيرون في نفوسهم من القلق، ومن شدة ما يؤجِّجون من الرعب. ومن عجب أن يجتمع في معينٍ واحد الهناء والشقاء، والأمل واليأس، والطمأنينة والرعب! وحين يفكِّر الآباء في كل هذا يكرهون أبناءهم أو يكادون من كثرة ما يُحبونهم حبًّا مُدمِّرًا عاصفًا، يلتهم كالحريق حياتنا، ولكن ما أجملَ هذا الحريق وما أحبَّه إلى الآباء!

ثار في نفسي هذا جميعه وأنا في طليطلة أقف على أعتاب قصر الكزار، والكزار هو الاسم الذي ننطقه، وما هو في الحقيقة إلا كلمة القصر ينطقها الإسبان الكَثر بفتح الكاف وسكون الثاء، وينطقها السياح الكزار، وتختلف الألفاظ لتؤدي معنًى واحدًا هو القصر.

في إحدى غُرفات هذا القصر قصة أنقل مضمونها إليك، ولا تعجب أن تثير في نفسي كل هذا الذي قدمته بها؛ فإننا نستطيع أن نُسيطر على عقولنا، أو قد نُسيطر على قلوبنا مع كثير من الجهد، ولكن هيهات لنا أن نسيطر على خيالنا. وبنا الآن إلى قصة القصر، إنها تُروى عن الجنرال سكردوه في الحرب الأهلية الإسبانية، وقد كان جنرالًا بالجيش ومتحصنًا مع قواته في القصر، فإذا بالتليفون يدق عنده، وإذا المتحدث زعيم القوات الشيوعية المعادية له، وإذا هو يُبلغه أنهم أسروا ابنه، وهم يُخيِّرونه بين أن يُسلِّم القصر أو يقتلوا ابنه، وفي هدوء يقول الجنرال: دعوني أكلِّم ابني.

ويُمسِك ابنه بالتليفون ويعرف الأب بدمائه وقلبه لا بأذنه صوت الابن ويقول له: ولدي أنا أُضحِّي بك في سبيل وطني، في سبيل إسبانيا. ويقول الابن: هكذا أريدك أن تكون.

ولا يصل إلى قلب الجنرال بعد ذلك أو أذنه إلا صوتُ طلقٍ ناري نقَل الابن إلى السماء، وترك الأب لا في الأرض وإنما في السماء أيضًا بما قدَّم من تضحية.

تُرى هل دارت بنفس الابن أو أبيه همسة أو خلجة من تلك الخلجات التي قدَّمتُ بها قصتهما الخالدة؟ من يدري؟ ولكن لنا نحن أن نروي بيت شوقي:

وللأوطانِ في دمِ كل حُرٍّ يدٌ سلفَت ودينٌ مستحقُّ

وأي وفاء لدَينٍ يؤدِّيه وطنيٌّ لوطنه أعظم من الابن؟ فالنفس وهي النفس أقل شأنًا، وأهون عند الأب ألفَ مرة من جرحٍ يُصيب ابنه، أو حتى يخدشه، فكيف إذا كان وفاء الدَّين للوطن هو حياة الابن جميعًا، دم الإنسان وحياته وما بعد الحياة؟

وتأكلون التراث أكلًا لمًّا

التُّراث في هذه الآية الكريمة بمعنى ميراث اليتامى، وبهذا المعنى وبآياتٍ كثيرةٍ أخرى في القرآن الكريم، وبتفصيله سبحانه وتعالى للمواريث ينقطع الطريق على الملحدين؛ لأنَّ الميراث في أغلب أمره مالٌ يغلُّ مالًا. والشيوعية ترفض أن يغلَّ مالٌ مالًا، والإنسانية ترفض أن يستغل المال الإنسان. وعدم الإغلال هو أهم عنصر من العناصر السياسية في النظرية، والإلحاد بالله سبحانه وتعالى هو دينهم الوحيد الذي لا دين غيره؛ فكل شيوعي إذن ملحد بحكم النظرية، فإن كان مؤمنًا فهو غير شيوعي. وكل شيوعي يدعو إلى حكم البروليتاريا مُتخذًا به ستارًا لقهر البروليتاريا وغير البروليتاريا في آنٍ معًا.

وكل شيوعي يرفض أن تسمح الدَّولة للفرد باستثمار ماله. ومن لا يعتنق هذه المبادئ يكن غير شيوعي، أو شيوعيًّا منافقًا، وأغلبهم كذلك.

وقد اضطُرت الأحزاب الشيوعية في أوروبا أن تهدم هذه الأركان جميعًا؛ لتجد لنفسها منفذًا إلى الحكم، وكشفَت الشعوب عن نفاقهم، ولم يصلوا بهم إلى الحكم. وحين كنتُ في سويسرا شاهدتُ حديثًا تليفزيونيًّا بين عالمٍ كيماوي، أعلن أكثر من مرة أنه شيوعيٌّ متطرف، وكان المذيع — شأن المذيعين هناك — غاية في الذكاء، فما زال به حتى ضيَّق عليه الخناق في فكرة الدين، فأعلن الشيوعي أنه غير ملحد، ولم ينتظر المذيع بل عاجله: فكيف إذن تؤمن بالنظرية الماركسية؟ فأبلَس الشيوعي وأطبق عليه الفخ، فأصبح كفأرة أُحيطت بالمنجل والمطرقة، فلا تستطيع فكاكًا. وفي نفس البرنامج مع هذا الشيوعي أجرى المذيع لقاءً بين ضيفه الشيوعي وبين الكاتب العالمي جورج سيمنون. وبدا أن الشيوعي يحترم الكاتب الكبير احترامًا بالغًا، وجورج سيمنون من أعظم كُتاب الرواية المُعاصرة. والحقيقة أنني لم أكن أعرفه حتى لفت نظري إليه أستاذنا توفيق الحكيم، منذ ما يقرب من عشرين عامًا، وقال عنه إنه كاتب للرواية البوليسية، ولكنَّ العجيب فيه أنه دائمًا

يُضفي على روايته لمسةً إنسانية، ترتفع بها إلى مستوى الرواية العالمية. ومنذ ذلك اليوم وأنا أقرأ له.

كان اللقاء بين الاثنين ممتعًا، وفجأة سأل جورج سيمنون ضيفه الشيوعي: ما رأيك في الروح؟

وهنا ارتجَّ عقل صاحب النظرية المادية، فالعجيب أنَّ هؤلاء الشيوعيين يرمون المؤمنين بالجهل، لأنهم يُصدِّقون الغيبيات، وفي نفس الوقت يقولون إن أصل العالم المادة. وهنا لا بد أن نقول لهم إنهم بين واحدة من اثنتَين؛ إمَّا أن يكونوا قد شهدوا بداية العالم ورأَوه وهو ينشأ من المادة، أو أنهم هم الذين يختلقون الغيبيات التي لا يدُل على صدقها أي شاهد، ثم يُصدِّقون ما اختلقوا، كعُباد الأوثان يصنعونها بأيديهم ثم يُصلُّون لها ويعبدونها.

وبعد، فقد مضى بي الحديث، وأُريد أن أعود إلى عنوان المقال، فأُحس أن قول الله سبحانه: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ جعلني أفكِّر في تراثنا الإسلامي، بالمعنى الذي اكتسبَتْه اللفظة على مَرِّ الأيام، وأُنكر هؤلاء الذين حاولوا أن يأكلوا تراثنا الأدبي، ويحطِّموا اللغة العربية، حتى لقد ذهب بعضهم إلى كتابة كتبٍ بأكملها باللغة العامية. ولم يكن الأمر مُحتاجًا مني إلى إمعانِ نظر؛ فتراثُنا هو لغتنا التي هي لغة القرآن الكريم، فإن حطَّموها حجبوا ما بين الناس وبين الذكر الحكيم، ويضيع الدين. وأُلقي نظرةً على هؤلاء فإذا هم جميعًا ملحدون أو من أعداء الدين الإسلامي بالذات، وهؤلاء لا يدرون أن الله فوق سبع سموات، قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وتسطع المعجزة فإذا الزمن يلتهم كتبهم ويُضرِّس بها، وتصبح هملًا من الهمَل، لا يذكُرها أحد، ثم لا يعرفها أحد. وإذا بالقرآن الكريم يتصدر كل مكان؛ فهو في جيب الرجل أو في سيارته، إن لم يكن في صدره محفوظًا، وهو حلية المرأة المسلمة تعتز به وتفتخر.

ولا يستطيعون — وهيهات لهم أن يستطيعوا — أن يأكلوا التراث، وإنما يأكلهم التراث وينزوي الملحدون كالخجِل الخزيان، وتعلو كلمة ربك. وهل كان يمكن إلا أن تعلو كلمة ربك لهم؟ يكيدون كيدًا، ويكيد ربك كيدًا، فمَهِّل الكافرين، أَمهِلهم رويدًا.

حَيْرة مع مليمٍ ناقص

كانت المدارسُ تبدأ قبل أن يجمع الفلَّاحون القطن، فكان أبي يُرسلنا إلى القاهرة، ويبقى هو في القرية؛ ليُشرِف على جمع القطن. وكانت مديرة منزلنا سيدةً كبيرة السن، وكان زوجها صديقًا لأبي، فحين مات عنها عاشت هي معنا، ترعى أمري أنا وإخوتي. وكانت مصاريف المنزل ومصاريف أيدينا في يدها. وبطبيعة الحال فرتكتُ أنا مصروفي في لحظات، وأصبحتُ يا مولاي كما خلقتَني. وجاءني صديقي إحسان عفيفي، وهو اليوم الدكتور إحسان عفيفي، وقال: إن فيلمًا جديدًا ظهر للوريل وهاردي، ومعروض في سينما متروبول. وعملتُ الحسبة وتبيَّنتُ أنني أريد خمسة قروش لأذهب إلى السينما وأركب الترام ذهابًا وإيابًا؛ فتذكرة السينما صالة درجة أولى ثلاثة قروش ونصف القرش، والترام ستة مليمات ذهابًا ومثلها إيابًا، ويبقى ثلاثة مليمات. ذهبتُ إلى أم عبده وطلبتُ منها القروش الخمسة، وطبعًا سألَتني فيمَ تريدها فقلتُ لها أشتري كتابًا. وكانت بعض الكتب في ذلك الحين تُباع بخمسة قروش. وتظاهَرَت أم عبده أنها صدَّقَت، ونفحَتْني القروش الخمسة.

بكَّرنا في يوم الجمعة أنا وإحسان ذاهبَين إلى السينما، وركبنا ترام ٣٣ إلى العتبة، ودفع إحسان تذكرة الترام. وحين حاولتُ أن أحتج قال: ادفع لي عند عودتنا. فابتلعتُ احتجاجي. كنتُ يومذاك في الابتدائية بمدرسة العباسية، وكان إحسان بالسنة الأولى الثانوية بمدرسة فاروق الأول الثانوية. وهكذا كنتُ لا أعرف أحدًا من أساتذته.

ووقفنا عند شباك التذاكر فرأى أستاذًا له مع آنسةٍ يقفان عند شباك البلكون، فطار عقله، وهتف بي في جنون فرحان: أستاذ الإنجليزي معه واحدة، ويقطعان بلكون، لا بد أن نقطع بلكون معهما.

– نقطع معهما؟!

– نعم.
– كيف؟
– كدا.
– بكم تذكرة البلكون؟
– بأربعة قروش ونصف.
– وكيف أرجع؟ تذكرة الترام بستة مليمات، ولن يبقى معي إلا قرش تعريفة.
– ولا يهمك. أنا أقطع لك تذكرة الترام.

كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أعرف فيها القلق. قطعنا تذكرة البلكون، وظللتُ طوال الفيلم والهواجس تنهش عقلي، وأحاول أن أردَّها بضآلة الفرق بين ما معي وما أحتاج إليه من أجل تذكرة الترام.

لم أتمتَّع بالفيلم مع أنه كان من أحسن أفلام لوريل وهاردي. وانتهى الفيلم وأُضيئت الأنوار، والتفتُّ إلى إحسان، ليس هناك إحسان، امَّحى، ألغاه الوجود، أصبح كأنه لم يُولد، ولا إحسان على الإطلاق.

وقفتُ بباب السينما حتى أغلقوا الأبواب ولا إحسان.

ماذا أفعل؟

الأتوبيس بقرش تعريفة، ولكنني ساكنٌ جديد بحي العباسية، ولا أعرف إلى بيتي طريقًا إلا من محطة الترام، أما أين ينتهي بي الأتوبيس، وكيف أذهب إلى بيتي، لا أعرف. مشيتُ إلى شارع فؤاد لأسأل عن محطة الأتوبيس فوجدتُها.

– هل الأتوبيس الذي يقف هنا يذهب إلى شارع فاروق؟
– لا ولكن ترام ٣٣ هو الذي يذهب، ومن محطة الترام هذه تستطيع أن تركبه.

المصيبة أن محطة الترام كانت أمام محطة الأتوبيس مباشرة في شارع فؤاد نفسه. ووجدتُ نفسي أقول في بلاهة: ولكني أريد أن أركب الأتوبيس. ونظر إليَّ محدِّثي يبحث عن لهجةٍ أجنبية في كلامي فلا يجد، فليس من المعقول أن يفعل هذا إلا سائح، ولستُ به؛ لا كلامي ولا منظري يدُلَّان على ذلك طبعًا. لم يخطُر له على بالٍ أن معي تعريفة، وليس معي ستة مليمات؛ فالمليم لا يستطيع أن يكون فرقًا بأي حال وعلى أية صورة.

وجدتُ على محطة الأتوبيس صديقًا لي من مدرسة المنيرة، ولكن ماذا أقول له، هات مليمًا، أهذا معقول؟ تواريتُ عنه حتى لا يراني. وجاء الأتوبيس وركبتُ وسألَني الكمساري: أين تريد أن تذهب؟!

– العباسية.

– أي عباسية؟!

– العباسية القريبة من شارع الجنزوري.

– تحتاج إلى قرش صاغ.

مصيبة! لم تقدر على المليم، فكيف تقدر على التعريفة كاملًا؟

– اذهب بي إلى آخر محطةٍ تُوصل إليها هذه التعريفة.

وأدرك الركاب الأزمة. وللأسف لم يكن الأتوبيس مزدحمًا، فكان كلامي يرنُّ في أسماعهم جميعًا. والتفتوا إلى صبي يرتدي من الملابس ما يدُل على أنه ميسور الحال، وليس معه إلا تعريفة. أي شعبٍ عظيم هذا؟ في لحظةٍ واحدة سرَت في الأتوبيس معانٍ كثيرة، كلها رفيعة، وشريفة، وجميلة؛ فأنا عند الكبير منهم ابن، وعند الصغير أخ. وتسارعوا جميعًا إليَّ؛ منهم من يريد أن يدفع لي فأبيتُ خجلًا شاكرًا، ومنهم من يريدُ أن يصحبني إلى البيت فيزداد خجلي، وأطلب إليهم في لعثمة أن يدلُّوني على طريق البيت فقط.

ويصل الأتوبيس عند شارع أحمد سعيد، ويأتي إليَّ الكمساري أن أنزل هنا. وينزل معي بعض الركَّاب ويقومون جميعًا بإرشادي إلى الطريق.

وأسير وأصل إلى شارع الجنزوري، وألتقي في منتصفه بإحسان عفيفي. عاد إلى الحياة من جديدٍ بعد أن حُلَّت المشكلة، كانت على وجهه ابتسامةٌ معتذرة لا تُغني شيئًا.

– أين أنت؟!

واحتجزتُ دمعي حتى لا يراه، وذهبتُ إلى البيت، وتلقَّتني أم عبده.

– أنا أعرف أن القروش الخمسة التي أخذتَها لم تكن لكتاب، أنتَ ذهبتَ إلى السينما.

لم يكن ينقصني إلا أم عبده أيضًا. النهاية. تُرى هل استفدت شيئًا من البحث عن المليم؟ لا أظن.

اتنين فلاج وهات مليم

أنا من جيلٍ يُشرِف اليوم على خمسينيات حياته، مظلومون نحن جيل الأربعينيات، الذين وُلِدنا في أواخر العشرينيات. وحين جاءت الثلاثينيات التي كان الجنيه فيها يشتري عمارة، ويبقى منه ما يشتري بيتًا كنا نحن أطفالًا. وكان الحصول على القرش في ذاته عمليةً تحتاج إلى مناورة ومداورة.

وكنا في هذه السنوات نحب أن نتفرَّج على السينما، وكان أهم ما فيها حلقات الشجيع تومكس وغيره من مشاهير الأبطال. وكنتُ أظل الأسبوع كله حريصًا أن أُبقي على قرشٍ لي وقرشٍ لزميل طفولتي إبراهيم، الذي جاء من البلدة خصوصًا ليكون رفيق ملعبي.

ثم نتعرض بعد ذلك للرعب الشديد أن يلحظ أحدٌ تغيُّبي وتغيُّبه عن البيت فترة الساعات الثلاث التي نقضيها بالدرجة الثالثة في سينما الأهلي. حتى إذا كبرتُ بعض الشيء ولم أعُد أحتاج لمن يلاعبني دخل إبراهيم إلى المطبخ سالكًا طريقه إلى أن يكون واحدًا من الطهاة في الأُسرة، وأتممتُ أنا رحلة الشقاء في الدراسة.

وحين ألمَّ بنا الشباب في بواكيره الأولى، التقينا به شبابًا أسود لا نور فيه؛ فقد أقبلَت الحرب العالمية الثانية، وأُطفئَت أنوار القاهرة، وأُطفئ معها نور شبابنا. ولولا أن رمَت بنا الهواية إلى الأدب والقراءة لقطعناه شبابًا فارغًا لا تدانيه أي متعة ولا صخب، ولكننا نحن الذين أحبَبنا الأدب وانصرفنا إلى قراءته، ووجدنا متعتَنا وضجيجنا جميعًا في القراءة. وكنا نجتمع في بيت أحدنا نُناقش ما قرأنا، ويمتد النقاش حتى الوهن الأخير من الليل، فنقوم إلى بيوتنا وننقلبُ إلى أهلنا وقد أوهمناهم أننا كنا نُذاكِر.

وفي ليلةٍ سهرنا في بيت صديقنا الأستاذ عثمان نويه، الذي كان بمثابة الأستاذ لنا، ولكن حبه للأدب كان يجعله يشاركنا في حديث طه حسين، وتوفيق الحكيم، والعقاد، والدكتور حسين هيكل، تاركين مربَّع أرسطو والمنطق والفلسفة والجغرافيا.

وأوغل بنا الليل والوقت صيف والنسمة رخاء، وقمنا وقام معنا صاحب البيت للمشي على غير هدًى.

ولم أجد معي سجائر. وقد كان العثور على سجائر في هذه الأيام ضربًا من المعجزات؛ ولهذا ظَللتُ بخيلًا بها حتى اليوم.

ووجدتُ دُكَّانًا يتخفَّى وراء الظلام يُنير مصباحًا خجولًا، يُحيطه بأسطوانةٍ ورقية من بقايا عُلبةِ سجائر قديمة. وكان باب الدكان لا يزيد على ربع ضلفة من ضُلف الأبواب العادية.

– عندك سجائر نمرة ثلاثة؟

– لا.

– عندك بحاري؟

– لا.

– كرافن إيه؟

– لا.

– ملك مصر أو سفير؟

– لا.

وانغمستُ في حديثي مع صاحب الدكان، ونسيتُ أمر من معي حتى وجدتُ يدًا تنبعث من الظلام، تحمل نصف قرش وتضعه على منضدة البائع، لتقول في حسم: اتنين فلاج وهات مليم وحياة أبوك.

أدرك الأستاذ عثمان أنني أُحادث الرجل بلغة لن يفهمها؛ فلو كان عنده شيءٌ مما ذكرتُ لما سهر إلى آخر الليل، ليهتبل ربحًا لن يزيد على ملاليم. وأراد الأستاذ عثمان أن يُعلِّمني اللغة الصحيحة التي يمكن أن يفهمها. اتنين فلاج وهات مليم. أي إنه يعرف الثمن تمامًا. وقد تعلَّمتُ الكثير من هذه الجملة البسيطة التي طالما ضحكنا منها بعد ذلك.

لمن أتكلم، وماذا أريد أن أقول، وكيف أصل بما أريد إلى فهم من أكلِّمه؟ تلك هي مشكلة أمام الكاتب أو المتحدث.

تستطيع أن تكون أستاذًا عظيمًا في الأدب، ولكن هذا لا يجعلك بالضرورة تعرف اللغة التي تُخاطب بها من تخاطبهم؛ فهناك كلامٌ يُقال في المدرَّج بأسلوبٍ معيَّن وألفاظٍ بذاتها، وهناك كلامٌ يُكتب في المجلات المتخصصة، وهناك كلامٌ يُكتب للجرائد اليومية،

وهناك حديثٌ خاص للندوات العامة. ومعرفة كل مجالٍ وما يتطلَّبه من كلامٍ هو الأساس الذي نستطيع به أن نصل إلى الناس.

ولكنَّ كثيرًا من الأساتذة يكتبون في الجرائد اليومية ما لا تحتمله إلا المجلة المتخصِّصة، وكثيرٌ منهم يكتب في الكتب كلامًا لا يسوغ إلا في الجرائد اليومية. وتختلط الأمور عليهم وعلى قُرائهم، ويقعون في أحابيل «الأستذة» ويقع الجمهور في أحابيل الخوف من التصريح بعدم الفهم، حتى لا يُقال عنهم جهلاء ويصبح الكلام في الهواء لا قيمة له، ولا يجد له فاهمًا .. كم يحتاج هؤلاء الأساتذة إلى عثمان نويه، ليقول لهم: اتنين فلاج وهات مليم وحياة أبوك.

سقط الصنم ولم تسقط القاعدة

أتصوَّر أنه في عهد عبادة الأصنام كان هناك فريقٌ من الناس لا عمل لهم إلا أن يجلس بجوار هُبل وغيره من الأصنام، يرفع عقيرتَه بمعجزات الصنم، وما يناله قُصَّاده من خير على يدَيه، داعيًا الناس أن يزيدوا من الأموال التي يُقدِّمونها للتمثال، مُؤكدًا أنهم كُلما زادوه مالًا زادهم خيرًا ومعجزاتٍ ومنجَزات.

وأتصوَّر أنه حين أشرق النور، وتهاوى الصنم؛ لأنَّ الأصنام لا تعيش في النور، أتصوَّر أنه بقي من الصنم قاعدة، وهذا الفريق الذي كان يعيش على النصب، والأكاذيب، والادعاء الباطل، والشعار الزائف، والاحتيال المقيت. ويجد هذا الفريق نفسه بلا موردٍ يعيش عليه، ولا ناسٍ يحتال عليهم إلا قلةً قليلة لا ترى إلا في الظلام، ولا تحيا إلا في السراديب، ولا تتنفَّس إلا العفن، ولا تأكل إلا لحم البشر، ولا تشرب إلا الدماء الآدمية.

ويدور فريق الصنم المنهار حول القاعدة المهيضة المُحطَّمة يُطلقون المباخر، ويرفعون العقائر، ويستَجْدون النفع الذي زال عنهم؛ فهذه القاعدة هي كل ما بقي منهم، وبغيرها لا حياة لهم؛ لأن حياتهم قامت أوَّلَ ما قامت على هذا البهتان. ولو كانوا يملكون صنعةً غير طبولهم ومزاميرهم التي كانوا يدقُّونها وينفخونها هُتافًا للصنم، وأصبحوا يدقُّونها، وينفخون فيها نُواحًا عليه لذهبوا إلى صنعتهم تلك، ونسُوا ما كان من أمر الصنم والقاعدة، ولكن من أين وهم عجزة إلا عن الهُتاف، جهلة إلا عن الاحتيال، أغبياء إلا عن السلب والزور والغش والسرقة.

ولكل فترة زمنٍ صنمٌ يُقيمه الناس من الدماء، ثم لا يلبث الناسُ أن يتبينوا مقدار ما امتص الصنم من كيانهم؛ ولهذا فلا بد لكل صنمٍ أن يسقط وينهار. ولا بأس أن

تبقى القاعدة حينما يلف حولها هذا الفريق من نفاية البشر. ويمر الزَّمن بالنور فتُمحى القاعدة كما امَّحى الصنم، وتُصبح النفاية عدمًا من العدم، ولا يبقى إلا الأشراف والنور والضياء، فإنه يمكث في الأرض وفي السماء.

لا نخاف إلا الله

توالت الأنباء من داخل المؤسسات الحكومية عن اللصوص والمرتشين. لم تُجامِل هذه الأنباء أحدًا؛ فهي حينًا تتناول وزيرًا، ثم هي ما تلبث أن تتفاقم، وتُصبح أحكامًا نهائية على أربعة من كبار موظَّفي الدولة. ولا تُمثِّل هذه الأحكام إلا جزءًا يسيرًا من قضايا ما زال الجانب الأكبر منها متداولًا في أيدي القضاة، ثم تهب ريحٌ من وزارة الصناعة تتهم جماعةً كبيرة العدد بالرشوة.

وكل هذه الأنباء تُعيد إلى المواطن المصري ثقته بحكومته أنَّ الجميع عندها سواء، وأنها لا تتستَّر على أحدٍ مهما يكن ذا سطوة، أو ذا قرابة، وأنَّ القضاء في مكانه الأسمى لا يعنيه إلا الحق، والحق وحده، معصوب العينَين عن قيمة المتهم ومكانته، متفتِّح البصيرة، نظره إلى العدالة المطلَقة، وما يؤيدها من أدلة وشواهد وشهود.

وليس شيءٌ يدعو إلى الثقة في دولةٍ ما مثل القضاء الشريف، وكاذبٌ كل من يدَّعي أنَّ مثل هذه القضايا تهزُّ الثقة في الاقتصاد المصري. وإن كانت الثقة في الاقتصاد المصري لا تتأتى إلا بالتغاضي عن المرتشين، والتستُّر على اللصوص، والسكوت على المجرمين، فليذهب هذا النوع من الثقة إلى أي جحيمٍ يشاء .. ولتظل مصر على ما تنتهجه من ردع المجرمين، وتقديمهم إلى المُحاكَمة وليأخذ العدل مجراه، وليكن بعد ذلك من أمر الاقتصاد ما يكون؛ فالقاعدة الثابتة أنَّ الاقتصاد والصِّلات المالية إن لم تتسم بالشرف فهي إلى انهيارٍ لا شك فيه.

ولكن العجيب المؤسف أنَّ هذه القضايا جعلَت الموظَّفين الشرفاء في حالة تجمُّدٍ كامل عن إصدار القرار، أضع على رأس هؤلاء الوزراء أنفسهم؛ فقد أصبح الوزراء — وهم يعلمون أنهم شرفاء — يخافون من إصدار القرار الذي يستغرق إصداره يومًا أو بعض

يوم، لا يُصدِره الوزير إلا بعد عدة أشهر. وإذا كان الوزير خائفًا، فوكيل الوزارة هالع، وإذا خاف الوزير وهلع الوكيل، فالسكرتير العام مذعور، ومن يليه من المسئولين في قرفٍ مبين، لا يملكون معه أن يضمُّوا أصابعهم على قلمٍ ليتحمَّلوا به مسئولية رأي.

ما هذا الذي يحدث؟ معقول هذا؟! ألا تُواتي الجُرأةُ إلا اللصوص، ويجمدُ الشرفاء في السجون من الخوف، والهلع المذعور، والقرف المرتعش الأليم؟

بمثل هذا يتجمَّد الاقتصاد، ومن مثل هذا يفر من التعامل مع الحكومة كلُّ الشرفاء مصريين كانوا أو كانوا أجانب، أفرادًا كانوا أو دولًا. هل يُعقل أن يصبح تخريب اللصوص عندنا واسع السطوة إلى هذا الحد؟! إنهم استطاعوا أن يُعَدُّوا أثَرهم الخطير إلى الوزراء وهم وزراء.

أخشى ما أخشاه ألا يكون الوزراء واثقين من شرعية وجودهم على كراسي الوزارة؛ فإنَّ هذا الشعور مُدمِّر فتَّاك يفتك بمصالح الدولة، ويُدمِّر الوزير نفسه. أحسب أن الوزير في كل قرار يُعرض عليه يظل يُسوِّف التوقيع بإنفاذ القرار، موجهًا نظره إلى أعلى حينًا يستمد الشجاعة، حتى إذا افتقدها وفقدها راح يقلِّب عينَيه ذات اليمين وذات اليسار، يحاول أن يتلمَّس التأييد من معاونيه ومساعديه ومستشاريه. وأحسب أن الوزير بهذا يُمِد جميعَ هؤلاء بشحنة من الرعب لا يملكون معها أن يقطعوا برأي، ومن أين لهم الرأي وقد أكلهم الذعر أكلًا وانتهَبهم رعب الوزير انتهابًا؟!

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى وزراءَ واثقين كل الثقة بشرعية وجودهم على كراسيهم، يؤدُّون ما يرون أنَّ الحق هو، ويتوكَّلون على الله العلي القدير.

لا يخشَون فيما يفعلون إلا الله وحده، المُطَّلع على الضمائر، لا يخفى عليه من شيء في الأرض أو في السماء. إنَّ المُعارضة ستعارض، ولكن ما رأي الناس؟ إن المعارضة هي روح الديمقراطية وأساسها الأول، وفي رفضها يستنير الناس، ويعرفون تمامًا ما في القرارات من محاسن وعيوب. ولن يُجمِع الناس على شيء أبدًا؛ فما أجمعوا على شيء من قبلُ، وإنما الأغلبية هي صاحبة القرار، وحسب من يُصدِر القرار أن تؤيده الأغلبية. ولستُ في حاجة إلى القول إن صاحب القرار لا بد أن يبذل أقصى جهده للوصول إلى القرار الأمثل؛ فعليه أن يبحث ويدرُس ويستشير، حتى إذا اطمأن إلى القرار أصدره.

فإن القرار الصَّادر في عَجَلة وبغير دراسة وبالٌ مستطير.

وفي نفس الوقت القرارُ الذي ينبغي أن يصدُر ولا يصدُر وبالٌ مستطير.

وإنه لمن المحزن أن تكون الديمقراطية مدعاةً للخوف والهلع، وهي النظام الذي يقوم على رأي الأغلبية، وفي ظله يكون الخطأ نادرًا، لا يقع إلا في أضيق الحدود. في حين تتسم الدكتاتورية بالقرارات الرعناء التي لا يسبقها تدبُّر أو تفكير أو دراسة.

والديمقراطية تحتمي من الخطأ بحق الجميع في المناقشة، بينما لا حماية للدكتاتورية إلا الإرهاب؛ فليس في الدكتاتورية دراسةٌ تسبقُ القرار، ولا في الدكتاتورية مناقشة القرار إذا صدر، وقديمًا قال الشاعر:

تلَوا باطلًا وجلَوا صارمًا وقالوا صدَقْنا فقلنا نعم

وإنه لكارثةٌ كبرى أن يخاف الوزيرُ وهو في حماية من المناقشة الحرة وتداوُل الرأي، ولا يخاف الوزير في ظل الطغيان وهو بلا رأي ولا فكر، فهو في هذا النظام البغيض لا شيء إلا لسانًا ينطق عن الدكتاتورية، حتى ولو كان ينطق بغير ما هو مقتنع به. ولا يجوز للوزير في ظل الديمقراطية أن يخشى الكُتاب الذين دافعوا عن الدكتاتورية، وارتبطَت أنفسهم ومصالحهم الخاصة بسيفها الظالم السفَّاك؛ لأنَّ هؤلاء أصحاب هوًى، ولا أمانة لهم، وهم لن يؤيدوا الديمقراطية بقلوبٍ خالصة أبدًا.

وقد يقول هؤلاء إنَّ السرقات قد كثُرَت، وإن هذا دليلٌ على الفساد، وهم يعلمون — ولكنهم لا يقولون — أنه في ظل الدكتاتورية قام الحُكام بتأميم السرقات، فلا يسرقُ إلا أصحابُ السلطان وحدهم، والدليل حاضرٌ من قريب؛ فحسبك أن تذكُر جواهر أسرة محمد علي، والقصور المسلوبة، والأموال التي صُودرَت لحساب الدولة، فانتهبها حُكام ذلك الزمان.

هذه واحدة. وأخرى أنه لم تكن هناك حياةٌ تجارية في ظل الطغيان؛ فالأموال كلها كانت خبيئةً مستورة، تتخفَّى وراء الجدران، وتتباعد عن القانون، وتنأى عن الحدس والتخمين، فما كان أحد ليُفكِّر أن يستثمر أمواله خشية أن تنقَضَّ عليه الحراسة، فتستولي على أمواله جميعًا. هذا إذا لم تُضم إليها حريته، وكرامته وعِرضه أيضًا، فمِمَّن يسرق السارق، وماذا يسرق؟ وهل كان هناك مالٌ حتى يسرقه سارق؟

ولا يجوز للوزير أو أي مسئول في ظل الديمقراطية أن يخشى من قضايا اللصوص المقدَّمين إلى المحاكم؛ فليس هناك دول ليس فيها مرتشون أو لصوص بمناصبهم، ولكن الأغلبية دائمًا من الشرفاء.

كل ما في الأمر أنَّ هذه القضايا جديدة علينا، بعد فترةٍ طويلة لم تكن لمصر فيها حياةٌ اقتصادية على الإطلاق، وهذه القضايا تُشكِّل موجة، ولكنها لا شكَّ ستنحصر، فلا ينبغي بأي حالٍ من الأحوال أن تُمسك هذه الموجةُ العارضة بأيدي الوزراء وأصحاب القرار، أن يُصدِروا القرارات التي يتعيَّن عليهم أن يُصدِروها؛ فإن خوفهم هذا قد أصاب الأسواق المصرية كلها بالرعب والتجمُّد. وكم يُحزِنُني أن أرى العاملين في حياتنا الاقتصادية يُصيبهم الظلم الفادح نتيجة الخوف من إصدار القرار العادل.

وكم يُصيبُني الأسى لمصر وأنا أسمع من التجار أنَّ الكثيرين من زملائهم يُفكِّرون في إنهاء أعمالهم التجارية.

وإنك لن تسأل أحدًا ممن يعملون في الحياة الاقتصادية إلا قال لك إنَّ حركة السوق متوقفة تمامًا وركود السوق خراب. فما الخطب إذا توقَّف؟

إنَّ الأدواء الاقتصادية التي تُعانيها مصر معروفة، حتى لغير أساتذة الاقتصاد. والدواء الوحيد لمواجهتها هو الشجاعة في اتخاذ القرار.

فإنْ أحاط بنا الخوف في القرارات الفرعية فويلٌ لاقتصادنا كل الويل حين يتحتم علينا أن نواجه القرارات الكبرى، التي ستُرغِمنا الأيام على اتخاذها شئنا أم أبينا.

فيا مصرنا الخالدة ناشدي المسئولين فيكِ أن يلوذوا بالجرأة في الحق ولا يخشَوا إلا الله وحده.

فهو وحده سبحانه القاهر فوق عباده، وهو أيضًا الرحمن الرحيم الغفور جلَّت آلاؤه.

الخبرة والإدارة

صديقي رجلٌ عالمٌ تخرَّج في كلية العلوم، وكان فيها من النابهين، فأبى أن يقف به العلم عند شهادة التخرُّج، فأخذ سمته إلى إنجلترا، وظلَّ بها حتى حصل على الدكتوراه في صناعة الأقمشة، وعاد إلى القاهرة.

إلى هنا وأخالكم ستُكمِلون أنتم القصة وتقولون: أي جديد فيما ستروي؟ لا بد أنَّه عاد ليجد نفسه مُعيَّنًا بمصنعٍ للسيارات، أو في الإدارة القانونية لإحدى المصالح الحكومية أو الشركات.

والعجيب أنني سأُخلِف ظنكم؛ فإنَّ صاحبي قد عاد ووجد مكانًا في شركة من شركات النسيج، وعُيِّن خبيرًا فنيًّا فيما تخصَّص فيه! وقد شاء الحظ أن يقف إلى جانبه مرةً أخرى، فوجد رئيس الشركة زميلًا له، رافقه في المدرسة الثانوية، ثم تشعَّبَت بهم الطرق فدرس صاحبي في كلية العلوم، ودرس زميله في كلية الآداب قسم تاريخ.

طبعًا اندهش صاحبي حين وجد شركة النسيج تضع على رأسها متخرجًا في كلية الآداب قسم تاريخ؛ فهو فيما تعلَّم في القاهرة أو إنجلترا لم يدرس أنَّ هناك صلةً ما بين التاريخ وصناعة الأقمشة.

ويقول لي: حتى إذا كان هناك تاريخ لصناعة النسيج، فأنا أعتقد أنه ليس ضمن برنامج كلية الآداب قسم التاريخ، فما أعتقد أنَّ قسم التاريخ يدرُس تاريخ الصناعات، وإنما يدرُس تاريخ الدول.

المهم أن فرحتي بوجود زميلي جعلَتني أتغاضى عن هذا التناقُض، وفرحتي بعملي جعلَتني أنصرف إليه بكل خبرتي.

بدأتُ عملي، وإذا بصديقي ورئيسي يُريد أن يتدخل في أدق خصائص عملي ودُهشتُ أول الأمر.

نعم هو أنيق. وهو لا شك ذو خبرةٍ واسعة في اختيار لون القماش الذي يُفصِّل منه حُلَّته، واختيار لون القميص الذي يتماشى مع هذه الحُلَّة، ثم هو ذو خبرةٍ فائقة في اختيار الكرافتة التي تُواكب الحُلَّة والقميص جميعًا، ولكنه من المؤكَّد لا يستطيع أن يعرف مِمَّ صُنعَت الحُلَّة أو القميص أو الكرافتة.

ولا تقُل لي أي عجيبة أن يتدخل رئيسٌ في أعمال شركته؛ فهو يعلم كما نعلم — وإن ظن أننا لا نعلم — أنه وصل إلى منصبه هذا بوسائلَ بعيدةٍ كل البعد عن إتقان صناعة النسيج، وهو يعلم — ويظننا لا نعلم — أنه عُيِّنَ أوَّل ما عُيِّن بهذه الشركة لأسبابٍ لا تتصل مُطلقًا بخبرته في النسيج، وإن كانت وثيقة الصلة بخبراتٍ أخرى يستطيع كثيرٌ من الناس أن يتقنوها، ويعفُّ كثيرٌ آخرون أن يتخذوها وسيلة في الحياة.

فصديقي خبيرٌ من أكبر خبراء فن النفاق، وهو في نفاقه يستغني تمامًا عن الحياء. ولم يكن عجيبًا أن يجد آذانًا تُصغي لنفاقه؛ لأنَّ هذه الآذان نفسها كانت معيَّنة في مناصب وصلَت إليها بخبرة النفاق، وامتهان الكرامة، ولا صلة لها بإتقان العمل أو الخبرة فيه.

وأرى في عينَيك سؤالًا: أي عجيبة فما تروي؟ نعم، أُنا أُحِس أنك تسخر مني في نفسك قائلًا: لقد غاب الفتى فترةً خارج البلاد، وعاد إليها لا يدري من أمرها أمرًا. هوِّن عليك، ولا تَعجَل بالتذاكي والتحليل.

كل هذا الذي رويتُ ليس عجيبًا، ولكن كان من المنتظر أن يعرف صديقي حقيقة خبرته، ويترك الأمور تسير في شركته بخبرة الآخرين. وهذا يتمشَّى تمامًا مع بعض الذكاء الذي يجب أن يتوفَّر عند المنافقين.

وأَحَسَّ رئيسي ما يدور في نفسي من سخرية بجهله، فزاد على جهله التعالي والتعاظُم، مُصرًّا أن يُذكِّرني دائمًا أنه رئيسي، وأنني مرءوس؛ فسكرتيرته تمنعني من الدخول، وحين أحتال على ذلك وأطلبه بالتليفون تأبى أن تُوصلَني به، مُدعية أنه مشغول بوفد أو اجتماع، أو بما شئتَ من هذه الحُجج، التي لا تُتقِن السكرتيرات غيرها، مع الابتسامة الأكليشيه الباردة، فإن رجوتُها أن يطلبني حين يفرغ من وفده، أو اجتماعه، أو ما شاءت أن تختلقه له من معاذير وعدَت في أدبٍ مُصطنَع، ثم لا طلب، والعمل يحتاج التشاور، ولكن كرامة العالم تحول دون ذلك.

وأنا في حَيْرة.

وانصرف صاحبي بعد أن ألقى إليَّ بحَيْرته. وتسألني أنت أيها القارئ: ما اسم الشركة وما اسم الرئيس؟ لا إله إلا الله. أتُريدني أن أُصرِّح لك بكل شيء، ألا تعرف الأدب

الرمزي أيها القارئ؟ لا شك أنك تعرفه؛ فقد مرنتَ عليه سنواتٍ طوالًا، وما عليكَ لو أنك وضعتَ كلامي هذا في إطار الأدب الرمزي، فإنك بذلك تستطيع أن تُطبِّقه على من شئتَ.

كل سلامٍ عندهم حرب

أعرفهم وشاء قدَري أن أعرف خبيء حياتهم، وجميعهم يدين بغير الله، ويصرف ولاءه لغير الوطن، ولكلٍّ منهم مُتَّجَه في الحياة ومَنحًى، ولكلٍّ منهم نحلة أو مهنة، تختلف عن مهنة الآخر، أو نحلته. ولستُ أدري كيف تتابعوا إلى ذهني يشد كلٌّ منهم الآخر إلى تفكيري، ويقف أمامي فأرى عجبًا.

وأنا اليوم أُحاوِل أن أُقدِّم بين يدَيكَ هذا العجب، فلا أدري أأذكُره بادئًا أم أذكره منتهيًا أم لا أذكره مطلقًا وأتركك تصل إليه وحدك. وأنا واثقٌ أنك بهذا خليق.

ولكن هذه الصور التي لا أدري ما الذي جعلني أحاول أن أرسمها لك نوعٌ من الكتابة يجمع بعض ملامحِ القصة، وبعض ملامحَ من المقالة. وإذا أنا قدَّمتُ لك هذه الصور التي أريد أن أقدِّمها لك اليوم، ولم أكشف لك عَمَّا جعلها تتتابع إلى ذهني، ممسكًا بعضها برقاب بعض، أكون قد جنحتُ بقلمي إلى الشكل القصصي الذي يُشير ولا يُصرح، ويُومِض ولا يكشف، ويهمس في خفاء ولا يُجاهر في علن.

وأنا أحب — ولا أدري لماذا — أن أحتفظ لهذه الصور بطابعها هذا الذي لا يجعل منها قصة، ولا يجعل منها مقالة.

دعني أعرض عليك هذه الأشكال.

أمَّا الأوَّل فقد كان جده يعمل في بيت، وكان أهل البيت يعتبرونه واحدًا منهم، حتى إن الأبناء كانوا لا يُنادونه باسمه إلا إذا سبقوه بكلمة عم. وظل هذا حالهم وحاله حتى كبر الأبناء وتزوَّجوا، فكانوا يزدادون له احترامًا وتوقيرًا، كلما مرَّت بهم السنون وعلَت بهم السن.

وقد لقي هذا الجَدُّ ربَّه بعد أن أصبح ابنه موظفًا بالحكومة بشهادةٍ متوسطة. واستطاع هذا الأب بجهدٍ جهيد وكفاحٍ مرير أن يعلِّم ابنه موضوع هذه الصورة فتخرَّج من كلية.

مسكين هذا الفتى! لقد شب في زمن الحقد، فهو ينظر إلى ماضي أُسرته في فزع وقرف وإشفاق، ويخشى أن يعلم الناس حقيقة هذا الماضي. والمجنون لا يعرف أن الناس تعرف هذا الذي يخشاه، وأنهم يقدِّرون جدَّه أكثر مما يقدِّرون أباه، وأنهم يحتقرونه هو مع أنه يحمل هذه الشهادة التي حصل عليها؛ فقد كان أبوه وأسرته جميعًا قومًا شرفاء يُحبهم الناس، ويُقدِّرونهم لأنهم عامَلُوا ربهم في تخشُّع المُسلم الصادق، وعاملوا الناس في ودٍّ وإيناس، يسعَون لهم ويسعَون بينهم بالخير والحب والصفاء؛ فجَدُّه وأخو جَدِّه كانا في زمانهما صفحةً مضيئةً مشرِّفة من صفحات الحياة، يراهم الناس فيحمدون الله أنَّ بينهم مثل هؤلاء الأتقياء. وليس يُعنَى الناس في كثيرٍ أو قليلٍ بهذه الشهادة التي يحملها هذا الغِر ما دامت شهادتُه لم تستطع أن تجعل نفسه شفيفة، ولا استطاعت أن تجعل في قلبه حُبًّا.

مسكينٌ هذا الفتى! يأكله الحقد، فتشتعل النار في نفسه، وهي نار لا تأكل إلا صاحبها؛ لأن صاحبها أهونُ كثيرًا من أن تُحس به الحياة.

وهو ملحد ولكن إلحاده يغريه وحده، كما يغري الضياع صاحبه، فإذا كانت الأرض لا تُحس به أو بإلحاده فكيف بالسماء؟

كل حسنٍ في عينَيه قُبح، وكل سلامٍ في نفسه حرب .. وكل الدنيا في عينَيه قاتمة كنفسه، كئيبة كإلحاده، لا دفء فيها ولا إيناس، ومن أين وهو غريب أشد الغربة عن أهله وهم أهله، وعن وطنه وهو وطنه، وقبل كل هؤلاء عن دينه وهو دينه؟

مسكين هذا الفتى! اختلَّت موازين الحياة في نفسه، وانقلبَت؛ لأنه يظن أنه ينتسب إلى جَد وأسرة لا يُشرِّفانه، وهو في هذا حقيرٌ ساقط الرأي، ولأنَّ أسرته تراه أنه ملحد ويأبَوْن أن تمس أيديهم يد الإلحاد فيه، كما يأبَوْن أن يُمِدُّوا حياته بدفء الأقارب، وحب الأهل، وهم في هذا محقُّون.

من هذا التناقُض نبت في نفس الفتى سرطان الشيوعية.

وفي صورةٍ أخرى بعيدةٍ في جذورها كل البعد عن هذه الصورة قريبةٍ منها في حقيقتها.

كان أبوه ثريًّا غاية الثراء، وبقَدْر ثرائه كانت سخافته، وتفاهة تفكيره. وكان رحمة الله عليه جاهلًا كل الجهل، والجهل في اللغة له معانٍ كثيرة؛ المعنى المعروف الذي يجعل صاحبه حيوانًا أعجم، لا يفهم عن أحد، ولا يفهم أحدٌ عنه، لا يقرأ في الكتب، ولا يقرأ في الحياة، فهو جاهل. وهناك معنًى آخر كانت تستعمله العرب؛ فيقال: جهل فلان على فلان؛ أي أساء إليه وتهجَّم عليه. ويقول عمرو بن كلثوم في معلَّقته:

ألا لا يجهلَن أحدٌ علينا فنجهَلَ فوق جهلِ الجاهلينَا

وأبُ هذه الصورة فيه من الجهل، بل ربما كانت فيه معاني الجهل كلها، إذا كانت له معانٍ أخرى.

والرجل في البيت المصري هو ربُّ الأسرة وقيِّمها، وممثلها الأعلى؛ فحين شبَّ صاحب الصورة عن سن الطفولة، وبدأ لقاءه بالصبا والشباب، وجد هذا الأب التافه الجاهل. وقد اجتمع عليه أيضًا البخل والبخل عند الفقير مَسبَّة، ولكنه عند الغني كارثة، وكثيرًا ما يختلط البخل بالخسة والدناءة، فيصبح البخيل بين الناس أهزوءة، ويُصبح بين أهله مسخرة.

وحين يُصبح عماد البيت مسخرة، فليس غريبًا أن يُصبح صاحب الصورة شيوعيًّا.

أمَّا الصورة الثالثة فهي عن أبِ هذه الصورة أيضًا، وقد كان هذا الرجل جديرًا بأن يكون موضع احترامٍ وتوقير، ولكن شاء الله فجعل منه موضع احتقارٍ وامتهان. وأكمل هو أسباب احتقاره فسرق شركةً كبرى كان يرأسُها، وشَبَّ الفتى وأبوه في سجنَين من الحديد والاحتقار معًا.

وكان من الطبيعي أن يصبح الابن رافضًا للمُجتمع كله، الذي امتهَن أباه واحتقَره. وما دام المُجتمع قد فعل، فهو يرفض الله وهو شيوعي.

أما الرابع فهو ملحد بسبب آيةٍ كريمة تُخاطب الإنسان، وتقول له: إنَّ الله خلقه فسوَّاه فعَدلَه. ولكن صاحب الصورة يعتقد أن الله خلقه فقط وما سوَّاه ولا عدلَه. وهو يصدُر في ذلك عن غباءٍ مُطلق؛ فالله سبحانه وتعالى حين يقول هذا للإنسان إنما يريد — عزَّت مشيئته — أن يميِّز الإنسان عن الحيوان، أمَّا إذا كان الإنسانُ قبيحَ الوجه مشوَّه القوامِ غيرَ معتدل القامة، غيرَ مُتناسقِ الأطراف، فهو لا يُخرجه بذلك عن الإنسان الذي ينتسب إليه، وإنما هو امتحانٌ من الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾. وفي هذا الاختيار يُكرِم الله سبحانه عبده ويُتيحُ له أن يقترب منه بروحه إذا كانت سليمة،

ولم يسمح لها صاحبها أن تلتوي بالتواء ظاهره. وحين يصل الإنسان هذا الإنسان إلى ربه، يجدُ نفسه أجمل الناس جميعًا؛ فالذي يعرف الطريق إلى السماء تُصبح الأرض عند كبريائه هيِّنة لا تساوي أن يُقيم لها وزنًا، ولكن صاحب الصورة شوَّه داخل نفسه أكثر مما شوَّهَته الطبيعة، فحقد وألحد.

وما دام قد حقد وألحد فما بغريبٍ عليه أن يكون شيوعيًّا.

والصور شتى ولكن المرآة ازدحمَت، ولكنني ما زلتُ أعجب كيف جرَّت كلُّ صورة من هذه الصور الصورةَ الأخرى! ويزداد عجبي أنني كُلَّما ذكرتُ شيوعيًّا وجدتُ هذه البؤرة العفنة من الحقد رسبَت في أصله، أو ثبتَت في نفسه، أو تجلَّت في سحنته، سمة واحدة لا يخطئها البصر، ولا تغيب عن البصيرة.

الأدبُ حياة

يرى بعض الناس — ومنهم أُدباءُ وفنانون — أنَّ الأدب ينبغي أن يبتعد عن السياسة. إن المعيار الحقيقي للأدب هو الفن الأدبي فحسب. وهذا قولٌ مردود؛ فالأدب لسانُ عصره وشاهدُه، إن لم يكن نبض وطنه فلا خير فيه، ولا في أدبه. وهناك أُدباءُ مُجيدون نقرؤهم فلا نعرف منهم في أي عصرٍ عاشوا؛ فأدبُهم يمكن أن يكون صالحًا لكل العصور، وهكذا يُصبح غير صالحٍ لأي عصر.

إنَّ الفكر الإنساني والنبضة في قلب البشرية واحدة. والأديب هو هذا الفكر، وهذه النبضة، ولكن الإطار الذي يضع فيه فكره، هو الذي ينبغي أن يُصوِّر آلام عصره وآماله.

وليس من الحتم أن يكون هذا الإطار في نفس العصر الذي يعيش فيه الكاتب؛ فقد يلجأ الكاتب للتاريخ، ويظل مع ذلك ناظرًا إلى آلام عصره؛ فحين كتب طه حسين أحلام شهرزاد، انتقد بها عصره أشدَّ ما يكون الانتقاد. وحين كتب نجيب محفوظ رواياته المصرية كان يكتب بنبض مصر التي كان يعيش فيها، في ذلك الحين؛ فالمعاصرة تكون في المضمون أكثر مما تكون في الزمن الروائي.

وحين كتب شوقي كليوباتره نجده ينتقد عصره في مرارة، واستطاع نقدُه أن يخترق العصور التي تلَته فيصدُق؛ فحين يقول:

اسمَعِ الشعب دُيونُ كيف يُوحون إليهْ
ملأ الجو هُتافًا بحياتَي قاتلَيهْ
أثَّر البهتانُ فيهِ وانطلى الزُّور عليهْ
يا له من ببغاءٍ عقلُه في أُذنَيهْ!

نجد الشعب ظل يقولها معه إلى عهدٍ قريب، ولا يجد غيرها ملجأً حين كانت السياسة في مصر صُراخًا وهمسًا، وحين لم تكن عقلًا ونقاشًا ورأيًا. وقد ظلَّت كذلك حتى أعاد السادات رحمه الله العقل للسياسة، والأمن للناس، وجعلهم يقولون بدلًا من أن يصرخوا، ويجهرون بدلًا من أن يهمسوا.

وحين يقول شوقي في مجنون ليلي:

أُحبُّ الحسينَ ولكنَّما لساني عليه وقلبي معَهْ
إذا الفتنةُ اضطَرمَت في البلادِ ورُمتَ النجاةَ فكن إمَّعةْ

يظل هذان البيتان سيفًا على أعناق المنافقين في كل العهود. والرواية والمسرحية والقصة القصيرة ظلَّت وما زالت وسوف تظل وسيلة للكُتَّاب أن يكونوا لسان عصرهم، والشاهد عليه، فيرى الجيلُ المعاهدُ للكاتب نفسَه في العمل الفني إن كان صادقًا، وترى الأجيال القادمة آباءها في العمل. وإن كانت هذه الفنون حديثة في الأدب العربي، وإن كنا نحن قد اشتركنا في الزمن مع جيل العمالقة الذي أنشأ هذه الفنون، فإننا لا شك والأجيال التي تلت جيلَنا تستطيع أن تعرف مصر القرن التاسع عشر، وأوائل هذا القرن من المويلحي «حديث عيسى بن هشام» كما تعرف الحب الرومانسي والعادات الريفية من «زينب» هيكل، ومن عودة الروح لـ «توفيق الحكيم»، ومن «شجرة البؤس» و«دعاء الكروان» للدكتور العميد، ثم نرى مسحًا لمصر الثورة وما بعدها من ثورة ٥٢ إلى اليوم من كتابات نجيب محفوظ وجيله. والجيل الحديث أيضًا، يعطي صورةَ آلام وآمال عصره، وإن كان القهر قد منعه زمنًا أن يقدِّم هذا الرأي، إلا أنَّ الروائي والقَصَّاص والمسرحي يجد دائمًا الوسيلة ليقول ما يريد أن يقول.

ويقف مسرح الحكيم علمًا شاهقًا بما قدَّمه، ناقدًا عصورًا كثيرة، في فنٍّ رفيع لا يبلغه إلا العمالقة الأفذاذ، فكيف ننسى شجرة الحكم، وشهرزاد، وإيزيس، والورطة، وبنك القلق، والصفقة؟ وهل يمكن الإحصاء للرَّائد العملاق؟ والقصة القصيرة أيضًا لم تتخلَّف، بل أعطت عطاءها في قدرة وفنية على يد كُتابها من جميع الأجيال.

وهكذا ترتبط الحياة بالأدب ارتباطًا وثيقًا. وما دامت قد ارتبطَت بالحياة فهي مرتبطة بالسياسة العامة؛ لأنَّ الحياة في كل وطنٍ إنما تتشكَّل بالسياسة التي تُزامِن كل فترة.

الأدب والسياسة

الشيوعية والدين عنوان كتابٍ جديد للأستاذ الباحث المُتعمِّق، والشاب في نفس الوقت، طارق حجي. وقد راقني الكتاب ورأيتُ واجبًا عليَّ أن أُنوِّه به، ولكنني قبل ذلك أُحب أن أُبيِّن ناحيةً أحسب أنها تخفى على كثيرٍ حتى على الذين يعملون في الميدان السياسي، سواء كانوا مُقحَمين عليه أو علماء فيه.

فكثيرٌ من الناس يظن أنَّ الأدب منفصل عن السياسة؛ ولذلك يحرص كثيرٌ ممن يريدون أن يكتبوا في السياسة أن يُقصوا الأدباء عن هذا الميدان. وبعض الصحفيين يظنون أنهم ما داموا يذهبون إلى مكاتب الوزراء ويخرجون بالأخبار، أو ما دام يتصل بهم العارفون بالأمور، ويُملون عليهم الأخبار، فهم وحدهم أصحاب الحق في الكلام في السياسة، والتعليق عليها، وأن كل من يتجرأ من الأُدباء باقتحام هذا الحرم المقدَّس إنما هو دخيل، يسير في غير طريقه، ويُعلِّق على ما لا يعلم، ويدَّعي ما ليس له بالحق.

ولكن الحقيقة البسيطة أنَّ كل أديبٍ لا يعتمد على السياسة أعظم اعتمادٍ إنما يكون أديبًا خارج عصره لا يمثِّل وطنه، ولا زمنه، ولا يمثِّل الصدق الفني في أدبه؛ لأنَّ الصدق الفني إنما ينبُع من خلايا المجتمع، وهذه الخلايا تُشكِّلها السياسة كما تُشكِّل هي السياسة، يؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر تأثيرًا عميقًا.

وليس هذا الأمر جديدًا على الأدب؛ فمنذ امرئ القيس، إلى حسان بن ثابت، إلى شعراء العصور المتتابعة، إلى شوقي، إلى عزيز أباظة، ومن عاصَرهم، ومن جاء بعدَهم كانت السياسة من أهم المحاور التي دار عليها شعرهم، وحسبك نظرة إلى روايات الشاعرَين العملاقَين لتَصلَ إلى صدق ما ذهبا إليه، ثم امضِ حثيثًا في الأيام، واقرأ مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور تجد السياسة أساسها الأوَّل.

وأترك الشعر وأقرأ القصة وأذكر عودة الروح، ثم بنك القلق، فإذا انتقلنا إلى المسرح العربي الذي أنشأه توفيق الحكيم، تَجد السياسة تقف وراءه في الغالبية الكاثرة من رواياته؛ السلطان الحائر، إيزيس، الورطة، شجرة الحكم. ولن أستطيع الإحصاء.

وأنتقل إلى الرواية في الجيل الثاني، ولستُ بحاجة أن أذكِّرك بنجيب محفوظ والثلاثية، واللص والكلاب، والكرنك، والحب تحت المطر، وثرثرة على النيل. ومرةً أخرى أعجز عن الإحصاء. ثم ننظر إلى يوسف السباعي فنجده أرَّخ الثورة المصرية جميعًا، حتى وصل إلى ابتسامة على شفتَيه، وإحسان، وشيء في صدري، وفي بيتنا رجل، والرصاصة لم تزل في جيبي، والثقوب، وكثير وكثير. ولن أذكُر لنفسي شيئًا.

إنما أريد فقط أن أقول إنَّ الأديب شاهد عصره، وإن السياسة هي العنصر الذي يقف دائمًا وراء أعماله.

والسياسة هي حياةُ الناس ومجتمعهم. والأديب هو نبضُ هؤلاء الناس، وهو مرآةُ هذا المجتمع الصادقة. وكل أديبٍ يقفُ بناحية عن السياسة لا بناحية عن عصره جميعًا، يصبح شيئًا هلاميًّا لا عصر له، ولا مجتمع متميزًا له، أو لفنه.

ونحن حين نُناقش النَّظرية الشيوعية، إنَّما نُناقش نظريةً تصدَّت للمجتمع العالمي في كل نواحيه، ولم تترك للفرد جانبًا واحدًا يتصرف فيه بوحيٍ من ضميره، أو منطقه، وإنما صنعَت هي كل شيء له جاهزًا محتومًا عليه، لا يستطيع منه فكاكًا، ولا عنه حودًا. وقد بدأَت بدين الناس فمَحَته؛ لأنَّ كل ما وضَعَته بعد ذلك يتعارض مع الدين، ولا سبيل لهم أن يقيموا نظريتهم قبل أن يمحقوا الدين أولًا؛ ولهذا عجبتُ حين سمعتُ أن شيوعيًّا وقف منذ قريب يقول إن الدولة حين تُنادي بالدين إنما تُثير نوعًا من الفتنة. وهذا الشيوعي يعرف الحق ولكنه يُخادعه ويُخادع نفسه شأن الشيوعيين جميعًا. الآن الأديان جميعها تُحارب الشيوعية فهي حربٌ عليها جميعًا، وإنما تتحد الأديان وتتواصل قُواها أمام هذه الحرب ضد إلحاد الشيوعية وكُفرها.

وهذا الكتاب الذي أعرضه عليك لكاتبٍ شاب مُتعمِّق واسع الثقافة، سَعَةً أَعجَب أن سَمحَت بها سنوات عمره، وهو يُناقِش النظرية الشيوعية مُناقشةً علمية يبدؤها بوقفة عالمٍ مُحايد. وفي كتابه الشيوعية والأديان يعرض ويُحلِّل العلاقة النظرية والعملية بين الماركسية فكرًا وتطبيقًا — والتطبيق هو الأهم اليوم — وبين الأديان. وأنت واجدٌ أن كل صفحة من هذا الكتاب أساسٌ يُسلمُك إلى أساسٍ آخر في الصفحة التالية، حتى يتم الكتاب أمامك آخر الأمر بناءً فلسفيًّا ينهض صَرحُه على المزاوجة بين النظرية وواقعها التطبيقي.

ويبدأ الكتاب بكشفٍ ناصع لا لبس فيه ولا شك للموقف الأيديولوجي الماركسي من الأديان، فإذا أنت أمام البون الشاسع الذي يفصل التناقُض الذي لا يحتمل الجدل بين فكرة الدين في عميق جذورها، وبين الأيديولوجية الماركسية. ولا يفوتُ الكاتبَ الذكي العميقَ البحث أن يتبعَ موقفَ الشيوعية العملي من الدين، وكيف حاولَت أن تُخادع في هذا الموقف، وتُراوغ فيه منذ عام ١٩٥٥م، في تصوُّرٍ ساذج أنها تستطيع أن تُفوِّت على أعدائها تسلُّحَهُم بالفكر الديني في محاربتهم. وبعدُ، فلا سبيل لي أن أُلِمَّ بالكتاب جميعًا، ولكنني حريصٌ أن أُهنِّئ المؤلِّف بكتابه الصادق، وبحثه العميق المتمكِّن، وأقدِّم الكتاب مثلًا رفيعًا لكل من يتصدَّى للبحث من العلماء والمفكِّرين.

الكتابةُ لوجه الوطنِ والحق

تنقَّلَت الحياة بالإنسان فيلقى فيها نماذجَ وأنماطًا تتَّسع الهوَّة بين بعضها والبعض، ونقف حيارى مشدوهين كيف استطاعت البيئة التي أنشأَت هؤلاء أن تُنشِئ أولئك. ونحن جميعًا فرائسُ للحياة، تضعُنا حيث يتحتَّم علينا أن نُعامل الخسيس والمترفِّع، والذليل وذا الكبرياء. وتزداد بنا الحياةُ قسوةً فترسمُ لنا خطوطًا من مجرى الحديث، فنقفُ أمام من نحقرهم، ونعلمُ أنهم حُقراءُ صامتون، يرفُض المجتمع أن نُجابهَهم بالبشاعة البشرية التي يمثِّلونها.

وأنا واحدٌ من الناسِ تعوَّدتُ أن أسير بالرأي، لا أكتبُ ما أكتبُ إلا لوجه الوطن والحق، وابتغاءً لرضاء ضميري، والله على ما أقول شهيد.

أيَّدتُ الحاكم حين أزال عن شعبي الخوف والطغيان والجبروت. ولو لم يفعل إلا هذا لكان حسبه عند الله، ولكان حسبي لأقفَ في صفِّه، وأدفعَ عنه غائلة الكلمة الرخيصة، وأردَّ عن رحابه عبيدَ كل العهود، وتجَّار الشرف، وسِفْلة الطغيان حين الطغيان سيد، وخدَم الأمان حين الأمان هو ظل الحياة.

وأيَّدتُ الحاكم وهو يُحقِّق النصر الوحيد الذي عَرفَه العرب في العصر الحديث، وأيَّدتُه وهو يشُق التاريخ إلى السلام، ويشُق المُستقبل إلى أمنِ أُمة، فيردُّ الموتَ بمصر حياةً والحربَ سلامًا.

وأعرف وأنا أؤيد أنهم يقولون يُداهن الحاكم لأنه حاكم، ويمالئ السلطان لأنه سلطان .. وردَّتني نفسي إلى الطريق أنَّ من يكتُم كلمة حقٍّ عند التأييد شرٌّ ممن يردُّ كلمة حقٍّ عند المعارضة .. ففي التأييد تُنافِق الغوغاء، وتُقرِّر رأيهم، وتتخلَّى عن أمانة القلم، وأمانة الضمير، وفي المُعارضة قد تركب حصان البطولة وكثيرًا ما يكون حصانًا من القَش.

وظللتُ حتى يومي هذا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أُرضي إلا ضميري الذي يُلازمني ليلي ونهاري، ويصحبني إذا تيقَّظتُ، ولا ينام في نفسي إذا أنا نمت.

ولكني اليوم أقف بقلمي حائرًا وجلًا، أو إن شئتَ فقل خجلًا؛ فإني أبتسم لناسٍ أعرف عنهم شرَّ ما يعرفه إنسانٌ عن إنسان. هم نُفاية من البشرية، يجمعون السيوف والأغماد في غير حرب، وفي غير شرع، وينالون الأموال بما يفعلون، ويُتاجِرون بالكلمة بل وبالوطن، محَق الزمنُ ضميرهم فهم شرٌّ من الحيوان.

وأعرفُ عنهم ما يجعلُني أخجل من نفسي إذا حادثتُهم، ولكني أُحادثهم؛ فإنَّ هذا الذي أعرفه تتناقلُه الألسنة، ويعرفُه الناس أجمعون، ولكن لا دليل عند الناس، ولا دليل عندي، فإذا هاجمتُ بغير دليلٍ أصبحتُ معتديًا، وإذا قاطعتُ بغير برهانٍ فأنا ظالم، ولكني أعرف الحقيقة المريرة، وهي حقيقة من شأنها أن تستخفي؛ فإن خيانة الخلق لا تتم بعقد، وبيع الكلمة لا يكون بميثاق، والمتاجرة بالوطن لا تكون بالعلن.

وتخجل نفسي من نفسي ثم أعود إليها أُهدهِد ثائرها؛ فكما عرفنا هؤلاء عرفنا رجالًا فيهم كبرياء الإنسان، وفي قلمهم شرف الكلمة، وفي مُعاملتهم أمانة الأنقياء، يُذكِّرونك بفروسية العرب إذا تأملتَ ففيهم الإنسان، وبعُمق المخلصين إذا عاملتَ ففيهم الأديب.

بين الفَخْر والجَخ

الفخر هو كما عَلِمتُم بدأ مع الشِّعر، منذ بدأ الشِّعر. أمَّا الجَخُّ فهي كلمةٌ لا يجهلُها أحد، وهي في القاموس تُفيد نفس المعني الذي نستعملها نحن له في مألوف كلامنا. ومعنى موضوع اللفظَين واحد، إلا أنَّ الفرق بينهما شاسع؛ فالفخر فيما نعتقد لا يكون إلا شعرًا، وهو يقع من الأذن العربية. وأُعيد فأقول الأذن العربية؛ لأننا نحن كُتابٌ عرب، وقُراء عرب، ولسنا كُتابًا من الإنجليز، ولا نحن كُتابًا فرنسيين. نحن كُتابٌ عرب، فالفخر يقع من آذاننا ومن نفوسنا موقعًا جميلًا حبيبًا، في حين نستقبل الجخَّ استقبالًا كريهًا رافضًا، مُستخفِّين صاحبه، مستخفِّين بقائله؛ فهو يقول لنا بجَخِّه إننا مغفَّلون، وإن علينا أن نُصدِّق جخَّه. وهو يقول أيضًا إنَّ حقيقته هزيلةٌ تافهة هينة شائبة فهو يحاول أن يُكسبها بالجخ ما ليس لها، ويحاول أن يكسو بالكذب لُباب الواقع، وما نعرفه نحن عنه من قيمةٍ إن كان له قيمة، وأغلب الأمر في شأن الجخَّاخ أنه غير ذي قيمة.

فحين يقول الشاعر العربي:

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفَنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفوا

نُحب قوله ونُسيغه، ولو أننا نعلم أنه ليس صحيحًا، ولكني في الشعر لا أحقِّق فيما هو صحيح، ولكنني فيما يروي لي الشخص عن نفسه لا أفعل شيئًا سوى أن أتبيَّن الحق من الجخ؛ لأن روايتَه لا تحمل أي عنصرٍ جمالي آخر يجعلُني أغتفر له جخَّه.

وحين يقول عمرو بن كثلوم:

ألا لا يجهلَن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهلِ الجاهلينَا
فإنا نُوردُ الراياتِ بِيضًا ونُصدِرُهنَّ حُمْرًا قد رُوِينَا
إذا بلغ الرضيعُ لنا فطامًا تخرُّ له الجبابرُ ساجدينَا

نقول له كذبتَ ولكن ما أعظمك! ولكننا مع النخَّاخ أو الجخَّاخ، نقول له كذبتَ وما أتفهك!

وحين يقول شوقي الخالد:

وأنا الذي أَرثي الشموسَ إذا هوَت فتعودُ سِيرتَها من الدورانِ

وحين يقول:

لا تَرومي غير شِعري موكبًا إن شِعري درجاتُ الخالدينْ
كل فضلٍ لم أَصُغْه زائلٌ خالدُ الحمد بما صُغتُ رهينْ

وحين يقول:

ربَّ جارٍ تلفَّتَت مصر تُوليـ ـهِ سؤالَ الكريمِ عن جيرانِهْ
بعـنَّتْني معزيًا بمآقي وطني أو مُهنِّئًا بلسانِهْ
كان شعري الغناءَ في فَرَحِ الشَّرْ قِ وكان العَزاءَ في أحزانِهْ

وحين يقول:

وإني نُواسيُّ هذا الزمانِ فمَن للزمانِ بأذنِ الرشيد؟

حين يقول هذا جميعَه وغيره، وغيره كثير، ننسى الحق وغير الحق، ولا يبقى أمامنا إلا هذه القيمُ الرَّفيعة من الأدب الشامخ.

ولكننا نرفُض هذا جميعَه، إن قاله في حديثٍ صحفي أو حتى في حديثٍ شخصي، ونرفضه ونُبغضه إذا قاله في مقال.

أثار هذا جميعًا في نفسي عدةُ أحاديث ومقالات، رأيتُها لكُتابٍ وشُعراءَ في أيامنا الأخيرة هذه، جخَّ كلٌّ منهم عن نفسه جخًّا يزيده هوانًا على الناس، وعلى نفسه. والذي أعرفه أن الروائي يكتب الرواية والقصَّاص يكتب القصة والشاعر يكتب ما يكتبه من شعر، والناقد ينقد غيره، ثم يترك للناس بعد ذلك أن يُحدِّدوا مكانتَه وقيمةَ عمله .. ولكن لا أدري لماذا اختلطَت الأمور وماعَت، وأصبح كلٌّ من هَب ودَب يتكلم عن نفسه بدلًا من أن يترك عمله يتكلم عنه. ولعل أَعجَب هؤلاء كاتبٌ لا يعرف العربية، ولم يقدِّم عملًا فنيًّا واحدًا، طاح في صفحات الجرائد والكتب مُصنِّفًا الناس كما شاء مذهبُه الشيوعي، وتطرُّفه غير الشيوعي، وفَرضَ نفسه على جيله، واعتَبر نفسه كاتبًا من الكُتاب.

تُرى هل يظُن أن أحدًا سيُصدِّقه؟ إنَّ أبسط سؤالٍ يتجه إليه: بموجب أي كتابٍ أو رواية أو قصة أو ديوانٍ جعلتَ نفسك مع هؤلاء الكُتاب؟ وإن كان في كل ميدان من هذه الميادين تجربةٌ واحدة، أُيتيح هذا لك أن تفرض نفسك كاتبًا عربيًّا مع الكُتاب العرب؟

وآخر يقول إنه وحيد ميدانه وزمانه، ما سبَق منه وما لحِق، وإن العالم كله لا يقرأ إلا له، ولا يعرف من كُتاب مصر ولا العالم العربي إلا هو. حتى ليُخيَّل لمن يقرؤه أنه إذا مشى في شوارع لندن وباريس وروما وبرلين، فستتجمَّع من حوله الجموع وتُصبِح السينما والإذاعة والتليفزيون لا شغل لها إلا الكاتب الجخَّاخ.

وآخر يقول في حديثٍ إنه وحده فارس الميدان لمدة ربع قرن أو تزيد، وإنه لا يُشاركه في روعته وعظمته أيُّ مشارك.

ما هذا أيها الأبله؟! ماذا تركتم للقُراء والنُّقاد أن يقولوا؟ وكيف وأنتم تدَّعون أنكم أُدباء لا تُدرِكون وَقْع هذا النوع من الحديث في نفوس القُراء؟ ولِمَ لا تتركون الناس والقُراء يَقْدرون أعمالكم قَدْرها الحقيقي؟ وكيف ظننتم أنكم بمثل هذا الذي تدَّعون تُزيِّفون الحق وتمسخون التاريخ، وتغيِّرون الواقع؟ وهَبْكم نجحتم مع جيلنا هذا الذي نعيش فيه، فخلقتم من أنفسكم هذه الأكاذيب، فأين أنتم من التاريخ وأنتم جميعًا تعلمون أن الفن تاريخ، وأن التاريخ على مدى التاريخ قد يكذب في الأحداث السياسية، ولكنه لا يكذب في الحكم على فنانٍ قط؟ أم أنتم أطفالٌ تريدون أن تفرحوا بلُعبٍ في أيديكم، حتى وإن أدركتم أنها ليست لكم، وأنها ليست شيئًا إلا أنها لُعبٌ لا أكثر بل ربما أقل؟

أنتم بما تصنعون تشوِّهون وجه الأدب جميعه، وتجعلون الناس يميلون عن الأدباء ويعتبرونهم فئةً لا همَّ لها إلا الأحاديثُ الفارغة عن نفسها. ويُرى في بعضهم الدَّعي؛ فهو بعيد عن العربية كل البعد ومع ذلك يُصِر أن يفرض نفسه عليها فرضًا، وهو يعلم أنه

يعيش حياته في داخلها وخارجها بعيدًا كل البعد عن كل ما هو عربي، بل كارهًا كل الكره لكل ما هو عربي.

وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. ولا يستطيع أحدٌ أن يفهَم القرآن الكريم أو لغة القرآن إلا إذا كان ذا لسانٍ عربي مبين .. وهيهاتَ لغير العربي أن يفهم، ومن الكوارث أن يحكُم مَن لا يفهم .. والله حافظٌ لكتابِه ولغتِه مهما يأفك الأفَّاكون، سبحانه! له وحده القوة والجبروت.

الصوت المرتفع والتليفون والفن

تعوَّد أبناء الريف أن يرفعوا صوتهم إلى أعلى الدرجات حين يتكلَّمون في التليفون. ولا شك أن هذه العادة قد لازمَتْهم من أيام تليفونات المركز المتصلة بالعمدة .. وهي — بالمناسبة — ما زالت موجودةً حتى اليوم. وكان الخفير لا يكاد يسمع محدِّثه حتى كان يرفع عقيرتَه إلى القمة. وأغلب الأمر أنه كان حين تنتهي المُكالمة يرتمي إلى أقرب مقعدٍ أو مصطبةٍ مقطوعَ الأنفاس، وكأنه جرى مائة كيلو بغير توقُّف.

وكان المرحوم أحمد عبد الغفار «باشا» فلَّاحًا، لم تتخلَّ عنه أخلاق الفلاحين، ولا عاداتهم، رغم تعلُّمه في أكسفورد، ورغم كرسي الوزارة الذي تَبوَّأه.

وفي يومٍ كان أحد الزوَّار يجلس عند سكرتيره في الوزارة، وكان صوت الوزير عاليًا جدًّا، حتى كان الزائر يسمع كل كلمةٍ يقولها صارخةً في أذنه. وأحَسَّ السكرتير بحرجٍ فنظر إلى الزائر وكأنه يعتذر: أصل الباشا بيكلم تلا.

فردَّ الضيف بسرعةٍ ذكية: ولماذا لا يُكلم الباشا تلا عن طريق التليفون؟

هذا الصوت المرتفع نلتقي به كثيرًا في الأعمال الأدبية، وهو عيبٌ أجمع النقاد على أنه ينال من العمل الفني، وينقُص من قيمته؛ فالعمل الفني بطبيعته همسةٌ تتسلَّل في ذكاءٍ شديد ولباقةٍ إلى أبعد أغوار النفس الإنسانية، وتُرسي فيها ما يشاء أن يُرسِيَه الكاتب من معانٍ.

والصوت المرتفع لغةُ المقال وليس لغةَ العمل الفني؛ فحين يعلو صوت الفنان في عملٍ أدبي ينقلُ عملَه من قصة أو رواية إلى مقالة أو خطبة.

ولكننا مع ذلك نجد أعمالًا كثيرة لأُدباءَ يرتفع فيها صوتُهم إلى درجة الإزعاج، وتسقُط هذه الأعمال، وتُمنى بالفشل. والكُتاب الذين ترتفع أصواتهم غالبًا ما تكون

كتاباتهم بتوجيهاتٍ صادرة إليهم، فيرتفع منهم الصوتُ ليُسمِعوا من أصدَر التعليمات؛ لأن هؤلاء المُصدِرين للتوصيات لا يُحسِنون أن يسمعوا الفن؛ فصِلتُهم بالفن مقطوعة، وإلا فكيف يُصدِرون الأوامر إلى الفنَّانين؟!

الشعر وحده هو الذي نستطيع أن نسمح له باللغة المباشرة، والنغمة العالية؛ لأنَّ الشعر العربي يعتمد في تُراثه على المدح، والذم، والغزَل، والهجاء، وغير ذلك من أبواب الشعر المعروفة؛ فحين يأتي الشعراء المحدَثون، ويسيرون على نفس النهج الذي سار عليه الأوائل، فلا جُناح عليهم، بل إننا قَبِلنا هذه النغمة المباشرة في المسرحيات الشعرية التي قدَّمها شوقي، ومِن بَعدِه عزيز أباظة.

فحين يقول:

اسمَع الشعب دُيونُ كيف يُوحُون إلَيهْ
ملأ الجوَّ هُتافًا بحياتَي قاتلَيهْ
أثَّر البهتانُ فيهِ وانطلَى الزُّورُ علَيهْ
يا له من ببَّغاءٍ عقلُه في أُذنَيهْ!

يقبل الناس منه هذا الكلام، ويردِّدونه من بعده إلى اليوم. وحين يقول عزيز أباظة في العباسة:

شعورُ الشعب يا جعفَـ ـرُ حقٌّ لا هوى فيهِ
يُحس الكُره والبغضَ فيُجريه على فيهِ
يَميز بوَحيِ فطرتِهِ عدَاه من مُحبيهِ
له من وعيهِ الساذ جِ مصباحٌ فيَهْديهِ

نقبل منه هذا الكلام، ونردِّده من ورائه.

وحين يرتفع صوت الشرقاوي في رواياته، يقبل منه الناس هذا الصوت المرتفع في مسرحياته؛ الفتى مهران، ووطني عكا، والنسر الأحمر، وغيرها، وينظرون إلى مسرحه في تقدير.

والواقع أنَّ الشعر الحديث في المسرحية يقع في المكان الذي خُلق له؛ لأنه يُضفي على الحوار نوعًا من الموسيقى والجرْس، مع تحرير الشاعر من القافية، وإطلاق يدَيه في تنويع الحوار، والسير به إلى حيث تبتغي المَشَاهد والمواقف.

ولهذا لم يكن عجيبًا أن تنجحَ مسرحياتُ الشرقاوي ويتخلَّج الشعر الحديث على الطريق، ولا يستطيع أن يبلُغ من نفوس الناس ما بلَغه الشِّعر.

وعَودًا إلى الصوت المرتفع. أعتقد أن القُراء أنفُسَهم يُحبون في العمل الفني أن يصلوا إلى خوافي معانيه بشيءٍ من الجهد يبذلُونه مع الكاتب، حتى إذا أغناهم الكاتب الروائي أو القاصُّ عن هذا الجهد انصرفوا عن العمل جميعًا، في غير احتفاء، ولا تقدير.

الشخصيةُ المثاليةُ في الفنِّ الدرامي

المثاليةُ في الفن غيرها في مفهوم رجال الدين أو رجال المجتمع. وهذا أمرٌ قد يصدمُ رجال الدين، وأنا لا أذكُره هنا في معرض التحبيذ أو التفنيد، وإنما هو حقيقةٌ فنية. وربما احتاج الأمرُ مني أن أسوق مثالًا أو بعض أمثلةٍ للشخصية المثالية في مفهوم رجال الدين؛ فهي تلك الشخصية التي لا تأتي المحرَّمات على أي لونٍ من ألوان هذه المُحرَّمات، ولا بد لها أن تُصلي الصلواتِ الخمس، وأن تصوم الشهر، ولا تَقرَب الزنا، وتؤدِّي الزكاة. والشخصية المثالية في المجتمع لا تبعُد كثيرًا عن هذا، وإن كان رجال المجتمع يكتَفُون بأن يكون الشخص أمينًا لا يكذب، ولا يسرق، ولا يحتال، ولا يخادع. وليس يُعنى علماء المجتمع بفرائض الدين؛ فهم يعتبرون أن صِلاتِ الإنسان بربه أمرٌ ليس لهم هم أن يُصدِروا فيه أحكامًا، وإنما يُصدِرون أحكامهم على صِلة الإنسان بمجتمعه؛ فمن كان على وِفاقٍ مع هذا المجتمع فهو شخصيةٌ سوية، ومن ليس كذلك فهو عندهم منحرفٌ مائل عن الطريق، طريدٌ من المجتمع.

الفن لا يعترف بهذه المقاييس، والدليل على ذلك حاضرٌ من قريب؛ فشخصية «أرسين لوبين» مثلًا شخصيةٌ مثالية في الفن الروائي، مهما تكن رواياته بوليسيةً مرصودة للتسلية وإزجاء الوقت، وإنما أخذتُه لأنه مثالٌ غاية في الوضوح لمثالية الفن الروائي. وإن كان مؤلِّفه حاول أن يُسمِّيه «اللص الشريف»، إلا أن هذه التسمية كانت بقصدِ الإبهار ولَفتِ الأنظار إلى اجتماع المتناقضَين. وهيهات أن يعترف المجتمع أن اللصَّ يمكن أن يكون شريفًا.

لا علينا؛ فقد تواتَرَت الشخصياتُ الروائية بعد ذلك في الأدب العالمي، وأغلبها بعيدٌ كلَّ البعد عن مثاليات الدين، أو مثاليات المجتمع؛ فنجد «شتاينبك» مثلًا يقوم بتجربة في

روايتَيه الخميس العذب، وطريق السردين المعلَّب، والروايتان منفصلتان في موضوعهما انفصالًا تامًّا، ولكن الأشخاص في كلٍّ منهما لا تتغير، والأماكن أيضًا. وهذه تجربةٌ جديدة في الشكل حاولها «شتاينبك» فيما حاول من تجديداتٍ في الشكل، ولكن الذي يهمُّني فيما أسوق إليكَ من حديثٍ أنَّ أشخاص الروايتَين إنما هم جماعةٌ من الصعاليك الخارجين على المجتمع بكل مفاهيم الروايتَين يقومون بعملٍ مثالي على كل المقاييس؛ فهم في طريق السردين المعلَّب يبذلُون كل جهودهم بالطرق المشروعة وغير المشروعة، ليحصلوا على مِجهَرٍ لعالِمٍ يعيش بينهم فقيرًا، لا يستطيع أن يحقِّق اكتشافاته العلمية، ولا يملك ثَمنَ مِجهَر.

وهم في رواية الخميس العذب يبذلون جهودهم المشروعة وغير المشروعة أيضًا، ليُتِمُّوا زواجًا بين فتاةٍ يوشكُ أن يفوتَها سن الزواج من شخصٍ هم يُحبونه، ويعلمون أنه يريد الزواج بها، ولكن موارده المالية لا تكفي.

والأمثلة كثيرةٌ لا تكاد تُحصى. وإن جاز لي أن أضرب مثلًا من عملٍ لي قدَّمتُ شخصية الأخ الأكبر في رواية «ثم تشرق الشمس»؛ فهو من الناحية الدينية لم يكن متدينًا، ولكنه من الناحية الفنية يمثِّل نوعًا متفوِّقًا من الترفُّع؛ فهو يرفُض أن يتزوَّج هوى طفولته وحياته وشبابه؛ لأنه أصبح فقيرًا، حين ظل أبوها على غناه الباذخ، وهو في موقفٍ آخر يأبى أن يمسَّ فتاةً أُعجبَت به، وأُعجب بها؛ لأنَّها أُخت أستاذه الذي أصبح صديقه. ومثالٌ آخر لا أستطيع أن أنساه في هذا المجال، وهو رواية «أفراح القبة» لأستاذنا نجيب محفوظ؛ فشخوص الرواية جميعها مرفوضةٌ من المجتمع بكل مقاييس المجتمع، ولكننا في نفس الوقت نجد لكل شخصيةٍ مثاليتَها الخاصة التي تؤمنُ بها أعمقَ الإيمان، وهو بإيمانه هذا يلتزم في كل ما يقوم به من أعمالٍ يبدو أغلبها أمام المقاييس العامة للدين أو المجتمع مرفوضًا رفضًا كاملًا.

فالشخصية المثالية في الأعمال الفنية إذن ليس حتمًا أن تكون مثالية، وفقًا لرأي الدين أو المجتمع. وإنما مثاليتُها تنبعثُ من داخل العمل الفني ذاته، ووفقًا لمعنى المثالية التي تعتنقُها الشخصية من خلال تكوينها الفني.

إلا أنَّ هناك كُتَّابًا بعينهم لهم في رسم الشخصية المثالية طريقةٌ عجيبة؛ فالمفروض أصلًا أن تكون الشخصيةُ المثالية الروائية قريبةً إلى نفس المتلقِّي للعمل الفني. حسبُك أن أُذكِّرك بـ «أرسين لوبين» مثلًا، والشخصيات الأخرى في الروايات العالمية، يُحاول دائمًا المؤلِّف أن يجعلها قريبةً إلى النفس غير منفِّرة، حتى تكون مثاليةً مقنعةً إقناعًا فنيًّا،

حتى وإن لم تَصِل إلى الإقناع الخُلقي، ولكن الكُتاب الشيوعيين يُطبِقون على شخصياتهم المثالية بأيديولوجيَّتهم، ويصبُّونهم في قالبٍ حديدي، فإذا أنتَ أمام شخصيةٍ خشبية، يُحيط بها المِنجَل والمطرقة، إن حادت يمنيًا أو يسارًا، كما يريدها الفن الروائي أن تحيد، سارع المِنجَلُ وأعادها إلى القالب. وإن حاولَت أن تُبديَ رأسها من التابوت الذي وُضعَت فيه سارَعَت المطرقة تدُق رأسها لتعودَ إلى القالب.

الحقيقة التي لا شك فيها أنَّ الشخصياتِ الروائيةَ في الأدب الشيوعي تهربُ من الشيوعية، شأن كلٍّ من جثَمَت الشيوعية على بلاده؛ مثل الناس الأحرار .. الأحرار بحقٍّ في ألمانيا الشرقية، وفي المجر، وفي تشيكوسلوفاكيا، والآن في بولندا، وفي الحبيبة أفغانستان، وفي اليمن الشيوعية.

لقد رفضَت الشخصياتُ الرِّوائية في الأدب الشيوعي المذهبَ الشيوعي، وهربَت منه وتحرَّرَت، وتمرَّدَت على مؤلِّفها ومذهبه، فمن أطبَق عليه فخُّ الكاتب، وقع كريهًا شاحبًا حاسدًا ذميمًا. وليس على الشخصية في ذلك حرج؛ فالحرية هي طبيعة الفن، فإن وقعَت في مخالب القالب وصلَت فتيلًا إلى الجمهور بلا وجود أو بوجودٍ بغيض. وأنا أسأل المؤلِّفين الشيوعيين لماذا وأنا أدري أنني لن أجد عندهم جوابًا. إنما الجواب عندي أنَّ كل فنٍّ يدخُل في قالبٍ محكوم عليه بالسقوط، وكل فنٍّ يصدُر به فرمان أو مانفستو مقضيٌّ عليه بالفشل الذريع، الذي لا تشوبه مَسْحة من نجاح؛ فالفن شعاعٌ من داخل النفس، ولا بد مع الشعاع من نور، والنور عند الكاتب لا بد أن يكون جذوةً في كيانه، شعلةً في نبضه، إشراقًا في نفسه. وكيف للمُلحد لا يعرف إلى السماء طريقًا أن تُضيءَ نفسَه أيُّ ومضةٍ من شعاع؟ وكيف لذليلٍ تُلقى إليه الأوامر لتكون نفاذًا بلا مناقشةٍ من رأي أو منطق أو ضمير، أن يعرف حُريةَ الفنَّان، وشلَّالاتِ الضياء التي لا تستمدُّ جلالها إلا من نور الله؟ سبحانَه! آياتُه كل مخلوقاته، ولكن أعظم آياتِه قوله سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سبحانكَ! إنهم وحقِّك كما قلتَ إنهم لا يُبصرون.

بين الأدب والدين والعلم

أقرأ كتابًا لأستاذنا توفيق الحكيم. ولي مع أستاذنا الكبير ذكرياتٌ وذكريات؛ فقد نشأ جيلُنا كلُّه على أدبه. وأذكُر أنَّ قوة الأَسْر التي يُسيطِر بها على قارئه لا يُدانيه فيها كاتبٌ آخر، حتى إنني كنتُ لا أُطيق أن أترك الكتاب الذي أقرؤه له فترةَ ارتدائي ملابسي، فكنتُ أسند الكتاب إلى ما يجعلُني أقرؤه في الدقائق التي أرتدي فيها هذه الملابس.

وربما ظن البَعضُ أنَّ هذا الأَسْر الذي يقع فيه قارئ توفيق الحكيم لا يكون إلا في المسرحيات والروايات التي كتبَها، ولكن العجيب أنَّ هذا الظن غير صحيح؛ فهو قادر أن يُحيط بقارئه بنفس القوة في كُتب المقالات؛ فالقارئ لها يجتذبه ذات التشويق الذي تجتذبه به المسرحية أو الرواية.

ولكن أعظم ما في توفيق الحكيم أنَّه قادر أن يقدح الشرارة في ذهن الكُتاب. والكتاب الذي أقرؤه هذه الأيام لأستاذنا الكبير هو «نظرات في الدين والثقافة والمجتمع».

وقد وجدتُني وأنا أقرأ له في الدين أفكِّر في ظاهرة لم أفكِّر فيها من قبلُ أبدًا.

فأولئك الذين يقولون إن الطبيعة هي الخالق، قومٌ فاتهم أن يتعمَّقوا بنظرهم بعض الشيء؛ فإنهم إذا فعلوا لوجدوا أنَّ هذه الطبيعة محكومةٌ بيدٍ عُليا لا تستطيع منها فكاكًا؛ فالطبيعة لا مشيئة لها، وهيهات لمن لا مشيئة له أن يكون خالقًا، وإنما قُصارى ما يصبو إليه أن يكون مخلوقًا.

فالطبيعة تقول إن الأيدروجين والأكسجين يكوِّنان ماء، وهكذا تجري جميع المعادلات الكيميائية. وهذه المعادلات جميعًا لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجةٍ أخرى غير ما أراد لها الخالق أن تؤدي إليه؛ فلا يمكن أن يُنتِج الأكسجين والأيدروجين ذهبًا أو نحاسًا. وهيهات أيضًا ألا يخرج الماء من العنصرَين.

ولكن الله حين يقول إنه يجعل من يشاء عقيمًا هنا نجد المشيئة، ونجد أنها وحدها القادرة على أن تجعل من تشاء عقيمًا، فيجتمع الزوجان ولا ينجبان، ويذهبان إلى الأطباء في شرق العالم وغربه، ويقول الطب كلمته، وهي كلمةٌ متواضعة تعرف قَدْر العلم: ليس هناك ما يمنع من الإنجاب. إذن فلماذا لا يحدث الإنجاب؟ لأنَّ هناك مشيئةً عُليا تقدرُ ولا تُسأل عما تفعل، فإذا مَرَّت سنون أنجب الزَّوجان، نفس الزوجَين، دون أن يتغيَّر في بنائهما شيء، إلا أنَّ مشيئة الله — وهو الله وإن رغمَت كل الأنوف — أرادت، فإذا ما كان ممتنعًا يُتاح، ومن كان عقيمًا يُنجِب.

وقِس على ذلك في المطر؛ فقد قامت دولٌ على أساس المطر ينزل في مكانٍ معيَّن في موسمٍ معيَّن، فيكون الزرع والنَّماء وتكون الحياة. ولو أنَّ الطبيعة هي صاحبة الأمر لتحتَّم نزول المطر في مواقيته لا يختلف موعدٌ عن موعدٍ هنيهةً من دقيقة، ولكن المشيئة العليا هنا تريد شيئًا آخر، ويمتنع المطر عن النزول عامًا، ثم قد يليه عامٌ آخر، ثم قد تليه أعوام. ولو كانت الطبيعة هي صاحبة الأمر لنزل المطر؛ لأنها هي نفسها محكومة وليست حاكمة، يُراد لها ولا تستطيع أن تريد.

وأقرأ في كتاب أستاذنا الحكيم ما نقله عن ألفريد كاستلر عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه في المادة، ومؤلِّف كتابٍ عنوانه «المادة هذا المجهول». وهو مثل أينشتين من العلماء المؤمنين. وقد قطع في أبحاث المادة شوطًا أبعدَ مما وصل إليه أينشتين؛ لأنه انطلق في مساره بعد المرحلة التي وقف عندها سَلفُه العظيم؛ يقول العالم العظيم العالمي: «إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئًا؛ فهناك دائمًا وسوف يكون وإلى الأبد .. ما هو مخفيٌّ عنا.» ويُجيب أستاذَنا الحكيم حين يسألُه عن الصلة بين العلم والدين، فيقول: «إنَّ العلم ينتمي إلى منطقة المعرفة التي تُفسِّر الكون على أساس مبدأ السببية، في حين أنَّ الدين يعتمد في إدراك الكون على مبدأ الغاية، وهذان المبدآن يُكمِل أحدهما الآخر، ولا يُعارِضه.» وبذلك يرى كاستلر أنه لا تعارُض بين العلم والدين؛ فهما طريقان لصلاح البشرية وتقدُّم الإنسان، ولكن لكلٍّ منهما طريقه الخاص. والخطأ في التوفيق بينهما إنما يأتي من مطالبة الاثنَين بالسير في نفس الطريق واستخدام نفس الطريق؛ فالطريقان مختلفان والغاية واحدة .. طريق العلم تمتد فيه قضبانٌ حديدية تسير عليها قاطرة العقل البشري، وتظل هذه القاطرة تسير حتى تجد أمامها سدًّا منيعًا من بحارٍ لا نهاية لها، وجبالٍ لا نفاذ خلالها، فتقف القاطرة العقلية عاجزةً أمام طريق الدين؛ فليس فيه قضبان ولا قاطرة، إنما هو نورٌ يملأ النفس ويُشعِرها بالوصول في حضرة الله دون أن تراه.

أقرأ هذا جميعًا، وتأخُذني روعة الفكر المتَّسِق عند عالِم المادة العالمي، وروعة التلقي عن أديبنا المفكِّر العملاق، وتمتلئ نفسي خشوعًا أمام جلال العلم، وجلال الفكر، وأفكِّر في خالق هذا جميعه، فأُصبِح وكل ما فكَّرتُ فيه، وكل ما قرأتُه هباءةٌ هائمة في نورٍ إلهي لا يشبهه شيء .. فما نحن .. وما الحياة .. وما القمر الذي بلغوه ومشَوا عليه .. وما الزهرة وما المريخ .. وما الأرض .. إلا هباءاتٌ جميعها في ملكوته .. وإن كانت هذه الأجرام الكبرى هباءات .. فما الإنسان .. ما ذلك الإنسان الذي يظُن أنه شيء، ولو اجتمع هو والجن ليخلقوا جناح ذبابة لعجزوا؟ ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ كم هو هيِّن .. حتى لا يستطيع أن يستردَّ ما اغتصَبَته منه ذبابة! وأَعجَب فما هذا الكبر يُلِم ببعضهم حتى كأنهم خَرقوا الأرض أو بلغوا الجبال طولًا؟! بل وأَعجَب ما الأرض حتى وإن خرقوها، وما الجبال حتى وإن بلغوها طولًا؟! هباءٌ كله في هباء.

وأَرثي للملحدين وأَرثي لمن سيَّدوا المادة وغفلوا الله. إنهم وحقِّ الله هم المغفَّلون الغافلون، وهم الأخسرون في الدنيا والآخرة، وهم لا يعلمون أو هم يعلمون. لا يهم.

أرأيتَ كيف استطاع أستاذُ أجيالنا أن يُومِض إليَّ وإليكَ بكثيرٍ من الأفكار .. ذلك هو الكاتب المتفرد العملاق المتعمِّق الأصيل، وإن لم يكن هكذا توفيق الحكيم فمن يكون؟!

الدراما الشعرية في رؤيةٍ جديدة

قدَّر الله لي أن أجلس إلى شاشة التليفزيون لأشهد برنامجًا يدَّعي أنه ثقافي، ودار فيه النقاش عن المسرح الشعري. وشَهِدتُ عجبًا، وسَمِعتُ أفكارًا وزيفًا عن الحق، وعمًى عن الإنصاف، وبُعدًا عن شرف الضمير، واستهولتُ ما أسمع وأسيتُ له؛ فمن حق أي إنسان، أديبًا كان أو كان غير أديب، أن يرى رأيه في شاعرٍ ما بالإعجاب أو الرفض، ولكن ليس من حق إنسانٍ أن يحكُم على شاعر بالوجود أو عدم الوجود .. لأنَّ هذا حقٌّ من حقوق الله وحده، فليس إذن من حق إنسانٍ ما أن يقول إن التاريخ لا يعرف شاعرًا اسمه المتنبي، أو البحتري، أو شوقي، أو عزيز أباظة؛ لأنَّ الله فوق سبع سموات قد سبق بمشيئته فكانوا.

وأمر سبحانه بسابق مشيئته، وأصبح تاريخًا أنَّ المسرح الشعري لم يظهر فيه على مدى العصور والقرون إلا شاعران هما شوقي وعزيز أباظة. لك أن ترفُض شِعر شوقي، ولك أن تُبغِض شِعر عزيز أباظة، ولكن ليس لأحدٍ في الوجود الكوني أن يُناقش هذه الحقيقة؛ فهي أصلًا غير مطروحة للمناقشة.

والشعراء الذين ظهَروا بعد ذلك كتَبوا المسرح الشعري في إطارٍ شعري لم يتأكَّد بعدُ أنه شِعر.

ومأساةٌ أن تكون الحقائق الثابتة موضوعَ مناقشة، فالألم يُمزِّق نفسي أنني أُجري القلم بهذا الذي أُجريه الآن؛ فكم هو مؤلم أن أقول إنَّ الأهرامات تقع في مصر، وإن مصر تقع في أفريقيا!

ولكن حين ينماع الإنسان ويبلُغ الحضيض في الرَّقاعة، نجد أنفسنا مضطَرين أن نقول له إن الأهرام تقوم في مصر، وإنَّ مصر تقع في أفريقيا. وقد كنتُ جديرًا ألا أكتب

هذا لولا أن وافاني كتابٌ طبعَتْه مكتبة الفلَاح بالكويت للأستاذ العالم الدكتور إسماعيل الصيفي، عنوانه الدراما بين شوقي وأباظة، ولم يقُل العنوان عزيز أباظة؛ لأن المؤلِّف يعلم أنها حقيقةٌ أكبر من إي إيضاح.

إذن فالعالم العربي وغير العربي يعرف أن الأهرام في مصر معرفتَه أن مصر في أفريقيا، ولكن البرنامج الذي يدَّعي أنه ثقافي في القاهرة عاصمة مصر يجهل هذه الحقيقة، فيُسقِط اسمَ عزيز أباظة من المناقشة جميعًا، وكأنه لم يكن.

وقد هاجَم عزيز أباظة الشيوعيين وهاجمَه الشيوعيون، ولكن لم يجرؤ واحدٌ منهم في أشد عهودهم طغيانًا أن يُسقِط اسمه من المسرح الشعري؛ لأنَّهم لو فعلوا لجعلوا من أنفسهم مسوخًا تستجلب الهُزء والسخرية والضحك. ولم تكن عندهم في أعظم أوقاتهم طغيانًا الجرأة أن يجعلوا من أنفسهم هذه المسوخ. ووجد البرنامج الذي يدَّعي أنه ثقافي هذه الجرأة التي تقاصَر عنها جهدُ أجرأ أوقات الشيوعية عتوًّا، وطغيانًا، وعربدة، في زمن الحرية المنتعشة، والأمن على النفس والمال والعِرْض. وإني لأَعجَب كيف فكَّر البرنامج أن يقتل تاريخًا بأكمله في هذا الزَّمن الذي يحترم كرامةَ الإنسان وحُريتَه، حتى لا نجد في السجون معتقلًا واحدًا! كيف يعدو البرنامج هذا العَدْو على الحق، فيعتقل تاريخ المسرح الشعري كله أو نصفه؟ أليست كبيرةً هائلة تستحق أن نستهولَها ونتساءل؟ وأتركُ هذه المُسوخ، وهذا الصَّغار لأُلقيَ معكَ نظرة على هذا الكتاب الوافد إليَّ من الكويت.

تناوَل الكتاب في الفصل الأول مجنون ليلى، وعرض للحَبكة والصراع فيها، ثم الحدَث بين التصاعُد والتهاوي، وتناوَل رسم الشخصيات، ثم الحركة النفسية في هذه الشخصيات، وسرعة الصراع، وانتظام الحركة النفسية مع سرعة هذا الصراع، ثم تناوَل بعد ذلك في الفصل الثاني مسرحية قيس ولبنى، وطبَّق عليها نفس المبادئ التي تناوَل بها مجنون ليلى.

وفي الفصل الثالث تناول الكتاب فكرة التكامُل في عالم المسرحية، والمقدمة المنطقية للمسرحية. كما عرض في عمقٍ وإطالةٍ لفكرة الحَبكة المسرحية، فعرض لها عرضًا تمهيديًّا، ثم تناول التوتُّر والصراع، وأشكال الصراع وأنماطه، والحدث المتصاعد، والحدث المتهاوي، والعقدة المزدوجة، وفكرة العاكسات المتماثلة الوحدات، ثم أفرد بحثًا عن الشخصية في المسرحية وأبعادها، وفكرة البطل، وأهم ما يُراعى في الشخصيات، ثم ختم الباحث كتابه بحديثٍ يقع في حوالي عشرين صفحة عن لغة المسرح، وعن الشعر والمسرح، وتطويع الشعر العربي للحوار.

ويقول في هذا الباب فِقرةً يطيب لي أن أنقلها كما هي:

«والشاعر العربي عزيز أباظة لا يَعزِل نفسه عن التيار العالمي للأدب؛ فحين صدر عن طه حسين وعن أحمد شوقي، كلٌّ في مكانه، معارضةُ المسرحية الشعرية، أو تأييدُها، وإنجاحُ محاولاتها، لم يُنكِر أحدٌ منهما موضوعَها المُواكِب لحركة تاريخ المسرح العالمي، فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ الشاعر على هذا الوعي الشامل والمتفائل بالظاهرة التاريخية والمستقبلية للمسرح الشعري، أمكَن أن نُقرِّر في اطمئنانٍ أنَّ عزيز أباظة من ذوي الآراء الذي يكتبون عن بصيرة، وبحماسة وإيمان مستمدَّين من هذه البصيرة.» وبعدُ، فأُشهد الله أن الكاتبَ الباحثَ المتعمِّق الأستاذ الدكتور إسماعيل الصيفي كان صادقًا مع نفسه غاية الصدق، فلم يجنَح إلى حُكمٍ من الهوى، ولم يترك الإنصاف كما يراه قَيدَ أنمُلَة.

وإذا أختلف معه في شيءٍ فالاختلاف يرجع إلى طبيعة كلٍّ منا؛ فهو ناقد يقيس الأعمال الفنية والشعر بمقاييس الأصول الثابتة، وأنا رجلٌ أقف عند الشعر موقفَ المُحب الهاوي؛ فحين يُعنى الأستاذ الدكتور ببطء المسرحية عند شوقي، وثَبات المواقف لفتراتٍ طويلة لا يُسيغُها الفنُّ المسرحيُّ أقف أنا مبهورًا أمام:

جبلَ التُّوبادِ حيَّاك الحَيَا ... وسقَى الله صِبانا ورعَى
كم بنَينا من حَصاهُ أربُعًا ... وانثنَينا فمَحَونا الأربُعَا!
وخطَطْنا من نَقَا الرملِ فلَم ... تحفظِ الريحُ ولا الرمل وعَى
وحدَونا الشمسَ في مَغربِها ... وبكَرنا فسَبَقنا المَطلِعَا
لم تَزَل لَيلَى بعَيني طفلةً ... لم تَزِد عن أمسِ إلا إصبعَا
قد يهونُ العُمرُ إلا ساعةً ... وتهونُ الأرضُ إلا مَوضِعَا

وأنا على أتم الاستعداد أن أمكُث عمري كله أستمع إلى هذا الشعر، وخاصةً البيتَ الأخير. وما أَحبَّ إليَّ أن يقف المسرح بل تكُف الدنيا عن الدوران لأسمع المجنون وهو يقول:

مُنى النفسِ ليلى قَرِّبي فاكِ من فمِي ... كما لفَّ مِنقارَيهِما غِردانِ
نذُقْ قُبلةً لا يعرف السُّقمَ بعدَها ... ولا الهَمَّ رُوحانا ولا الجسَدانِ
فكل نعيمٍ في الحياة وغبطةٍ ... على شفتَينا حين تلتقيانِ

ويَخفقُ قلبانا خُفوقًا كأنما مع القلبِ قلبٌ في الجوانحِ ثانِ
وكم قُبلةٍ يا لَيل في مَيعَة الصِّبا وقَبلَ الهَوَى ليسَت بذاتِ مَعانِ!
أخَذْنا وأعطَيْنا إذ البَهمُ ترتَعي وإذ نحن خَلْف البَهمِ مُستَتِرانِ
ولم نكُ ندري يومَ ذلكَ ما الهوى ولا ما يعودُ القلبَ من خفَقانِ

حيَّا الله الدكتور إسماعيل الصيفي، وشكَر له جهده، وأتاحَ له من الوقت ما يُكمِل به بحثَه عن بقية أعمال الشاعرَين المسرحيَّين العربيَّين. إنه سميعٌ قريب.

وقد عادَت العَقْرب ...

طلعَت الجريدة الكبرى باستطلاعٍ قام به الصبيُّ الذي يعملُ بها، ولو كان يعرف القراءة، ولا أقول الكتابة، لعَرفَ أن كل الآراء التي استجلَبها تؤيد ما أذهب إليه؛ فقد أردتُ هذا الذي فعلوه تمامًا، وهو أن يقولوا رأيهم في هذه المعارك.

وبعدُ، فإني أعتذر عن الصبي إلى القُراء؛ فهو يحمل اسمًا أحمله، ولكنه تربَّى في عهدٍ كانت الكارثة الكبرى فيه القضاء على القيم، وتعليم الصغار كيف يتهجَّمون على من يكبرونهم سنًّا على الأقل. وإني أُطَمئِن من يملأ نفوسَهُم الألم، لِما يرونَه من عَربدَة هذا الفتى، أنه من قلةٍ قليلة سقطَت عندها القيم تمامًا، ولم تعُد إليها بعد مايو. وأُطمئِنهم أيضًا أنني لن أعود إلى العفَن الذي انداحَ فيه مهما يُحاوِل هو أو جريدتُه على السواء.

الكلمة العربية

ما بالُ أقوامٍ لا يُدرِكون ماذا يعني لقَب كاتب؟! أقرأ كتابًا عظيمًا للعالم الجليل الشيخ عبد العزيز عيسى .. وإني لأعلَم أنك ستَعجَب كيف اتصلَت الجملة الأولى بالجملة الثانية، وأنك ستسأل: وأين أنتَ من قولكَ لقب كاتب إلى قفزتكَ العجيبة، حيث كتاب تقرؤه لعالمٍ ديني جليل؟ وأعلم أنكَ ربما لم تستطع أن تُصبِّر نفسَكَ بعضَ حينٍ ليتَّصِل ما انفَصَل، ويستبين ما غمُض، ويتضِح ما استَبْهَم.

كتابُ الشيخ الجليل كتَبه وهو شابٌّ يافع، والكتاب من أمتَع ما قرأتُ. وقد تفضَّل مولانا الشيخ فأهداه إليَّ بغير إهداء؛ استحياءً منه أن يكون الكتابُ الذي كتَبه وهو في مَيْعة الشباب غيرَ جديرٍ بالقراءة اليوم، وخاصةً وقد سلك الفتى بعد ذلك طريقًا غير طريق البحث الأدبي، وأخذ سمَقه الموفَّق إلى الشريعة السمحاء يتعلَّمها ويعلِّمها وينتفع بها وينفع. ولو كان مولانا الدكتور يقرأ ما نُفْجَع به من بحوثٍ يتبجَّح بها أصحابها ويشمخون، ويُدلي بها كُتابها وتميلُ رقابهم كِبرًا لا كبرياء، وتتصاعد أنوفُهم في أَنَفَة العلماء، ولو درءوا الحقَّ عن أنفسهم لأدركوا أنهم علماءُ في الجهل والتكبُّر، وفي التشامُخ وفي تصعير الخدود، ولكنهم — على أية صورةٍ من الصور — ليسوا في العلم عُلماء.

ولو كان مولانا الدكتور يقرأ لهؤلاء — وحاشاه أن يفعل — لاعتَز بكتابه العظيم، ولعَلِم أنَّ ما كتَبه كان في الأدب عِلمًا .. وعِلمًا عميقًا يستحقُّ عليه كل إجلال وإكبار.

ويُنادي بي هذا الحديثُ عن الصِّلة بين لغة القرآن الكريم واللغة العربية، وكيف ينبغي للأجلَّاء من عُلماء الدين أن يكونوا أئمةً في لغة القرآن. وحسبُنا أن نذكُر الأئمةَ الأربعة وتلاميذَهم المشاهير، وكيف كانوا جميعًا يهتمُّون باللفظ العربي، ويتغَلغَلون إلى أبعدِ أعماقه، حتى إذا جلَسوا للفُتيا كانوا على وعيٍ بلُغة المُعجِزة الوحيدة الباقية من معجزات السماء التي أنعَم الله بها على أنبيائه.

وإني لذاكرٌ في هذه العُجالة التي أكتبها بعضَ أبياتٍ مما اختاره واستَحسَنه الشيخ عبد العزيز عيسى، لتكون معي شاهدًا على رَهَافة حِسِّه الأدبي، ورِقَّة مشاعره الفنية، وإدراكه الواعي بموسيقى اللفظ والبيت. اقرأ معي ما اختار ليتَمثَّل به من شِعر عمرو بن الحارث الجرهمي:

كأنْ لم يكُن بين الحَجونِ إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يسمُر بمكةَ سامرُ
بلَى نحن كنَّا أهلَها فأبادَنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

واقرأ ما استَشهَد به من شعر:

أتى على الكُل أمرٌ لا مردَّ له حتَّى قضَوهُ فكان القوم ما كانُوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ كما حكَى عن خيالِ الطَّيفِ وَسْنانُ

ثم يختارُ لكَ ثلاثةَ أبياتٍ من أروعِ ما قرأتُ في الشعر العربي، وفي تحرُّج العالم الثَّبت، لا يقطع أنَّ صاحبها هارون الرشيد، وإنما يكتفي بالقول بأنها نُسبَت إليه. تقول الأبيات:

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني وحلَلْن من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تُطاوِعُني البريةُ كلُّها وأُطيعُهن وهُنَّ في عِصياني؟!
ما ذاك إلا أنَّ سُلطان الهوى وبه قَوِينَ أعزُّ من سُلطاني

ويمضي الأديبُ العالم في حُسنِ اختيارِه من أبياتٍ إلى أبيات، فتحارُ أيها تختار وأيها تدَع، إلا أنني لن أَحرِمك من أبياتٍ أستدل بها على أن الأندلسيين من الشعراء، كانوا يُحاولون التجديد دون إسرافٍ في التقليد، فيَروي لك:

وماذا عليهِم لو أجابوا فسلَّموا وقد عَلِموا أني المشُوقُ المُتيَّمُ؟
سَرَوْا ونجومُ الليل زُهرٌ طوالعٌ على أنَّهُم بالليلِ للناسِ أنجُمُ
وأخفَوا على تلكَ المطَايا مسيرَهُم فنَمَّ عليهِم في الظلامِ التبسُّمُ

ثم يمضي الأستاذُ الكبير بعد ذلك عارضًا لمُختلف الفنون الأدبية في الأندلس العربية، فيقدِّم إليك أمثلةً من شتَّى ضروب الأدب، فيتكلَّم عن الخَطابة في الأندلس ودواعيها،

وأساليبها، ثم يُقدِّم إليكَ بحثًا رائعًا عن تطوُّرها من الإطالة إلى الإحكام، ومن الشقشقة اللفظية إلى استعمال الكلمة المؤدِّية، مع حفاظٍ على الموسيقى الأسلوبية والعربية في وقتٍ معًا، ثم ينتقلُ بعد ذلك إلى الكتابة في الأندلس، ويقدِّم منها أمثلةً صادقة كل الصدق مع ما يذهب إليه من تطوُّر. حتى إذا بلَغ الشِّعر في الأندلس عَرضَ لأغراضه جميعًا، ثم هو في درايةٍ واعية، ونظرةٍ مُتعمِّقةٍ فاحصة، يغوصُ إلى أقصى أبعادِ هذا الشعر، مُبْديًا رأيَه في لفظِه، ومبناه، ومعناه، وموسيقاه، وقافيتِه، حتى يصل بكَ بعد ذلك إلى الحديث عن عوامل الرُّقيِّ بالأدب الأندلسي، وعنايةِ الخلفاء والملوكِ بالأدب.

وبعدُ، فعَوْدًا على بَدْء.

إنَّ لقَبَ الكاتب الذي يحملُه مولانا الجليل الوزير السابق الشيخ عبد العزيز عيسى، هو الذي أتاح له أن يصِل إلى ما وصَل إليه من مكانةٍ وعلم .. لأنه كاتب، ولأنه عَرفَ سِر الكلمة العربية استطاع أن يصل في علمه الديني إلى المكانة الرفيعة التي يتبوَّؤُها في العالم العربي والإسلامي جميعًا. ولو جَهِل سِر هذه الكلمة لأصبح عمادُ الدين الأساسي مُستبهمًا عليه. ولو جَهِل سِر الكلمة لما درى كيف يشرح ما حصَّله من علمٍ باذخ، بلغة يفهمها عنه الناس.

فلا خير في عالم دينٍ لا يعرف سِر الكلمة العربية؛ لأنه — بإذن الله — لن يفهم القرآن .. ولا خير في عالمٍ فهِمَ ولم يستطع أن يُفهِم الآخرين. وبهذا الكتاب الذي أشرُف بتقديمه اليوم إليك، عَرفْنا السر الحقيقي الذي جعل مولانا الشيخ عبد العزيز عيسى هو هذا الصرح الشامخ في ميدان الله ودينه، وميدان شَرف الأساتذة وكَرامة العلماء.

أمَّا الخطاب الأول فقادمٌ إليَّ من الأستاذ محمد عبد الوهاب حسن، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، ص. ب ٢١١٩، القاهرة.

وفي الخطاب تعريضٌ بي وبالأمانة التي يفرِضُها عليَّ العلم. وواضحٌ أنَّ الأستاذ كان يُريدني أنْ أُجيب خطابًا بخطاب؛ فصندوق البريد لا يصلُح لغير البريد.

ولكنني أنشُر فَحْوى خطابه؛ لأنه خطابٌ يحمل المعارضة. ولو لم أكن واثقًا من أن مُعارضتَه لن تُعرِّضه لأي أذًى لَمَا نشرتُ خطابه، وأعتبرُه سرًّا بين قارئ وكاتب، ولكنَّ الأمر ليس كذلك؛ فقد تكلَّم في قضيةٍ عامَّة تكلَّمتُ أنا فيها، فأصبح من حق القُراء أن يُشاركوني ويُشاركوه فيما ذهب إليه كلٌّ منا، ثم أنا بعد ذلك أفدي حريته وسلامته بدمي وجسمي وكل ما أملك، لا شجاعةً مني، ولكن لثقةٍ راسخة في نفسي بالعدل الذي أصبحنا

نعيش فيه. وبنفس هذه الثقة الرَّاسخة كتَب هو خطابه، وأسفَر عن اسمه، وما عليه في ذلك من حرج؛ فالأصل أن يكون الإنسان حرًّا يُبدي ما يراه من رأي.

لن أُحاوِل أن أُصحِّح للأستاذ الكاتب الأخطاء اللغوية والنحوية التي وقع فيها؛ فما ادَّعى أنه كاتب، ولا هو ادَّعى أنه عالم.

ولن أحاول أيضًا أنْ أُساجلَه بأسلوب المهاجمة الذي ارتضاه لنفسه؛ فما عليه في ذلك بأس، ما دام يُريد أن يَستعرِض قدرته على اختيار الأسلوب البعيد عن آداب النقاش. وميدانُ الهجوم، والبدء به، والرد على الهجوم أمرٌ الغالبُ فيه شرٌّ من المغلوب، وأنا لا ألجأ إليه إلا مُضطرًّا، وهو أمرٌ اضطُرِرتُ إليه كثيرًا، فمَرنتُ عليه بصورةٍ أُشفق معها أن أُساجل صاحب الخطاب خشيةَ أن يمتنع بعد ذلك عن إبداء رأيه. أتركُ هذا جميعًا جانبًا، وأسأله وأرجوه أن يجيب.

هل يرى الأستاذ أنَّ المعارضة هي «لا» فقط أم هي محاولةٌ لإبداء الرأي الآخر لتأخذ الأغلبية بالرأي الأحسن؟ وإذا كان المُعارِض مقتنعًا أنه على غير حق، أيكون أمينًا إذا عارض لوجه المعارضة فقط؟ وليُحاوِل أن يبدو أمام الناس جريئًا؟ وهل يرى الأستاذ أنَّ هناك حُكمًا في العالم مهما يكن اسمه يمكن أن يصلُح بغير قانون؟ وهل يرى أن وجود القانون ديكتاتورية، أم أن عدم وجوده هو الفوضى والرجوع بالبشرية إلى عصر ما قبل التاريخ؟ وأنت يا سيدي، زعمتَ أنني أدعو إلى الدكتاتورية فيما كتبتُ، ويبدو يا سيدي، أنك لم تقرأ لي من قبلُ شيئًا، بل إنك حتى لم تُشاهِد ما ظَهر عن أعمالي من أفلامٍ في السينما أو التليفزيون. ولا تثريبَ عليكَ في هذا، ولكنني كنتُ أرجو على كل حالٍ أن تُبيِّن لي فيما كتبتُ بمقالي الأخير ما أدعو به إلى الدكتاتورية، إلا إذا كانت دعوتي إلى المعارضة الشريفة دعوةً إلى الدكتاتورية! وكنتُ أرجو أن تُجيب على التساؤلات التي بدأتُ بها مقالي. وكنتُ أرجو — ولا أزال أرجو — أن تقرأ التاريخ يا سيدي، وأن تدرُس الديمقراطية يا سيدي. وكنتُ أرجو — ولا أزال — أن أذكُر عهدًا لم يمُرَّ عليه إلا عشر سنوات ونصف، كان المصريون فيه يرتعدون إذا فكَّروا أن يفكِّروا.

وأنتهِز هذه الفرصة لأرُدَّ على الخطاب الآخر الذي جاءني من الإسكندرية لكاتبٍ شاء أن يُخفيَ اسمه. وأشهَد أن كاتبه صاحبُ أسلوبٍ رفيع، وقلمٍ عليم باللغة واللفظ. وأشهد أنَّ كاتبه أديبٌ من الطبقة الأولى، وأني أُوافِقه على نقده، ولكنَّنا يا سيدي لا نُحاسِب عهدًا بأكمله بأخطاء بعض أفراد؛ فأنا يا سيدي في وادٍ وأنت في وادٍ. لا شك أن بيننا مَن يستحق العقاب، ومَن يستحق هذه السخرية القادرة التي تناولتَه بها، ولكن أيُعمينا هذا عن أمنٍ

أظلَّنا بعد رعب، وعن سلامٍ وافانا بعد حربٍ قاتلة صَلِيانها في أبداننا وفي نفوسنا، وعن ثقةٍ من العالم بنا بعد بُغضٍ وكراهيةٍ واحتقار؟

إن شأننا مع المُسيء أن نتهمَه بشرطٍ واحد، أن نملك عليه الدليل، وما الدليل بعزيز، ولا هو صعب المنال. وبعدُ، سيدي فإن حُطام عشرين عامًا لا يمكن أن يُزال إلا في سنواتٍ أربعين على الأقل؛ فما أيسَر أن تَهدِم، وما أصعَب أن تَبني! اللهم هل أجبتُ؟ اللهم فاشهَد أنني أصدقُ ما أكون مع نفسي، وإليكَ وحدَك سبحانك أتركُ الحكم عليَّ، وحسبي عظيمُ عَدلِك، أو فحسبي كريمُ غفرانِك.

الناسُ والملائكة

حين يرتفعُ الإنسان إلى مسابح السماء، وتَرِفُّ له أجنحةٌ كأجنحة الملائكة، يحقِّق جانبًا في الإنسانية أصبح مُعطَّلًا غائبًا عن الحياة .. وقديمًا قيل إن الحيوان صُنع من الشهوة، وإن الملائكة صيغَت من الروح، وإن الإنسان ركِّب من كلَيهما، فمن غلبَت شهوتُه على رُوحه كان شرًّا من الحيوان، ومن غلبَت روحُه على شَهوتِه كان خيرًا من الملائكة.

ومنذ عهدٍ ليس قريبًا اتُّهِم أحد الضباط بأنه يتآمر على قلب نظام الحكم، وزُجَّ به إلى المُعتقَل دون مُحاكمة، وما لبِثَ أن جاءه من جاءه.

– اعتَذِر يُفرجْ عنك في الحال.

– أعتذر عن ماذا؟

– عما فعلتَ.

– فإذا كنتُ لم أفعلْ شيئًا.

– اعتَذِر والسلام.

– إذا اعتذرتُ فقد اعترفتُ أنني صنعتُ شيئًا.

– أنت تريد أن تبقى في السجن.

– أنا لا أريد أن أعتذر عن شيءٍ لم أصنعه.

– حتى لو أدى ذلك إلى أن تبقى في السجن سنينَ لا تعرف لها عددًا؟

– أن أبقى في السجن وأنا مرتاحُ الضمير خيرٌ من أن أكون خارج السجن، وقد صنعتُ شيئًا لا يرتاح إليه ضميري.

– محاولة بطولة؟

– بل محاولة شعور بالرضا عن النفس. إنَّ نفسي إذا أغضبتُها أصبَح عذابُها لي أكبر من أي سجنٍ أو قَيد. إنَّ نفسي هذه لا تتركُني في صباحٍ أو مساء، وستظل تنغِّص عليَّ عيشي جميعًا، فإرضاؤها عندي خيرٌ من تَرْكي للسجن ألفَ مرة.

ورفض الضابط أن يعتذر، وظل في المُعتقل إلى أن فُتِحَت جميعُ المعتقلات. ولو كان هذا الضابط صنَع هذا فقط ما اهتمَمتُ بهذا الحديث عنه؛ فالذي يُرضي ضميره ليس ملاكًا، وإنما هو إنسانٌ يُقارِن بين حرية النفس والحرية من القيود، ويختار حرية النفس.

ولكن الذي وقَع لهذا الضابطِ في السجن هو الذي جعلَني أقدِّم قصته. مرَّت على السجين فترة، فإذا هم يأتون له بزميلٍ في السجن، وتقوم بينهما صلةٌ أقربُ ما تكونُ بصِلَة الابن البارِّ بالأب صاحب المُثُل الرفيعة.

أما الابن فمهندسٌ في بواكير عمره، وأما الأب فهو من عَرفْت. أمَّا التهمة التي دخل بها المهندس إلى السجن فليس لها أي أهمية؛ فقد لا تكون هناك تهمةٌ على الإطلاق.

أُعجِب الضابط بالمهندس وأحَبَّه، وأحَبَّ المهندسُ الضابط، حتى كان يومٌ سَمِعا فيه أن المهندس أوشَكَ على الخروج من السجن، فتقدَّم المهندسُ إلى الضابط.

– لقد عاشرتَني وعرفتَني كما يعرف الأب ابنه.

– وأحببتُك أيضًا كما يُحب الأب ابنه.

– وإني أريد لهذه العلاقة أن تتوطَّد.

– ليس من سبيل؛ فليس هناك علاقةٌ أوطد من علاقة الأب بابنه.

– إن لك ابنةً وأريد أنَّ أخطبها.

– لكَم أُحبُّ ذلك!

– لقد عرفتُها وعرفَتني من زيارتها لك، وما أظُنها ترفُضني.

– اسمع. إن ابنتي في الجامعة.

– أعرف ذلك.

– إن أردتَ أن تقدِّم لي معروفًا فاخطب ابنةَ أختي.

– أخطبُها.

– إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولن تجد شخصًا يُكرمها، فكن أنت هذا الشخص.

– سأكون.

وهكذا ارتفع الإنسان إلى مسابح الملائكة. كلاهما كان عظيمًا؛ أمَّا الأب والخال فقد آثَر مصلحةَ ابنة أخته على مصلحة ابنته، وفضَّل أن يخطبَ الشابُّ الذي عَرفَه وأَحَبَّه وأُعجِب به والذي يستطيع أن يَطمَئِن على فلذة كبده إذا هي عاشت في حِماه، ابنةَ أُخته وليس ابنته. وأمَّا الشاب فقد قَبِل في سبيل الصداقة والإعجاب بالمُثُل الرفيعة التي رآها في الضابط، أن يخطبَ فتاةً كلُّ ما يعرفُه عنها أنها تجهل القراءة والكتابة، وهو مَن هو علمًا وثقافة.

وخرج المهندس من السجن وخطب ابنة أخت الضابط، ولم تنتهِ القصة. بدأ المهندس يُعلِّم الفتاة، ثم انتظمَت في الدراسة. واليومَ المهندسُ في بعثة في أمريكا، والفتاة معه تُعِد نفسَها لتنال الدكتوراه في الأدب. إنَّ السماء دائمًا تُحب الملائكة.

لم يتَّسِعِ الوقت

حين تقرَّر أن يُسافر إلى السعودية لأعمال الشركة البولندية التي يعمل بها، لم يُفكِّر في شيء آخر إلا أن يزور الأماكن المقدَّسة، ويطوف حول الكعبة المُكرَّمة، ويقف أمام شباك النبي .. ولم يكن تَوقُه إلى العمرة عن أي شعورٍ بالإيمان، بل كان كل ما يُفكِّر فيه هو تَحدِّي هذه الرواسب التي تُسيطِر على أفكار المسلمين، والتي يرى أنَّ انصياعَهم لها ما هو إلا تعلُّق ببقايا الأبوة وعهود الصِّبا والطفولة. وكان واثقًا أن الإنسان المُتحضِّر لا يمكن أن يؤمن بفكرة الدين والتعلُّق بأوهامه.

وهو واثقٌ من نفسه وأفكاره، قد ازداد بها وثوقًا حين اختار المذهب الشيوعي مذهبًا، وانسلكَ في قالبه، وواجَه كل ما واجهَه أصحاب المذهب من عقاب، كما نال كل ما ناله هؤلاء من ثواب.

والوظيفة التي يرتَع فيها الآن ما هي إلا نهلةٌ من فيض البحر الذي انسكَب على أبناء مذهبه؛ فما كانت الشركة البولندية لتُعيِّنه لو لم يكن شيوعيًّا غارقًا في الشيوعية، وهَب لها نفسه وإلحاده، ويُقدِّم إليها فقره لتردَّه عليه غنًى ووفرة ورفاهية ورخاء.

وقد استطاعت الشيوعية أن تُوفِّر له ما لم تستطع الرأسمالية أن تُوفِّره لأحدٍ من أمثاله؛ فسيارته كاديلاك من آخر طراز. نعَم السيارة رأسمالية، ولكن ما دام الشيوعي قد استخدَمها فإنَّ سيارته هذه الكاديلاك بالذات تُصبح شيوعيةً بالتخصيص.

ومنزلُه من أفخم منازل الزمالك، وأثاث بيته غالي الثمن غلاءً فاحشًا. ولا يهمُّ مِن بعدُ إن كان يتَّسِم بالذوق السليم أو لا يتَّسِم؛ فكل ما يهمُّه أن يكون غالي الثمن.

أما ملابسه فهي في الحق مضحكة؛ فإنه يبدو مصابًا بعمى الألوان؛ فتراها تختلط على جسمه كقصةٍ غير معقولة، أو كموسيقى صاخبة يعزفُها قومٌ لا قائد لهم، ولا نُوتة

تجمع بينهم، ولكن كل وَحْدةٍ من وحدات ملابسه ثمينةٌ في ذاتها، واضحٌ أنه بذل فيها المال الكثير. فيما يركَب أو يسكُن أو يلبَس.

وكان يَتِيهُ دائمًا بين الناس بأنَّه لا يمُد يدَه لأي دولةٍ شيوعية، وأنه شيوعي بالمبدأ لا بالجيب. وهو بطبيعة الحال يرى وظيفتَه هذه التي يشغلُها، والتي تسكُب عليه المال، حقًّا طبيعيًّا له، لا صِلة لها بالشيوعية.

هو يرى ذلك أمام الناس حين يُخاطِبُهم، ولكنه في دخيلة نفسه يعرف تمامًا أنه لو لم يكن شيوعيًّا لما زاد دخلُه على دخل زملائه الذين تخرَّجوا معه، والذين يَعجِز مرتَّبهم أن يُطاوِل عُشر مرتَّبه.

هو واثقٌ كُلَّ الوثوق أن ذلك الخير الذي يمرحُ فيه سببُه الوحيدُ الذي لا سبب غيره أنه شيوعي. ويعلم أن الكلية التي تخرَّج فيها قد منحَت الحياةَ لآلاف من أمثاله، أغلبُهم أكثرُ منه علمًا ودرايةً بهذا العمل وإتقانًا له.

ولكنَّ الشيوعيين وحدهم من هؤلاء الآلاف هم الذين يستطيعون أن ينالوا ما تَهبُه له الحياة من حَظْوة. وأصحابُ الجُرأة فيهم هم الذين يستطيعون أن يُواجهوا الناس أنهم لا يمدُّون يدَهم لأي بلدٍ أجنبي. وهو من أصحاب الجُرأة هؤلاء.

حين نزل إلى جدَّة قصَد فندق الرياض؛ حيث كانت شركتُه قد حجَزَت له حجرةً فاخرة ذات غرفةٍ ملحقة وتليفزيون. وبعد أن أودَع الحجرةَ حقيبتَه، ونظر إلى المرآة، واطمأن على القصَّة غير المعقولة التي يضعُها على نفسه، نزل إلى بهو الفندق ينتظر أصحاب العمل الذي جاء من أجله.

ولكنه فوجئ بصديقه رفعت جالسًا في البهو.

– أنت؟! أنتَ في السعودية؟

– عمل.

– فقط؟

– طبعًا سأعمل هذه العُمرة التي تحكُون عنها في دينكم.

– وأنتَ، ألكَ دينٌ آخر؟

– أنتَ تعرف.

– فعلًا .. أنت مسكين .. أنت بلا دينٍ على الإطلاق.

– أحمَدُ الله على ذلك.

– بل احمَدِ الشيطانَ إن شِئتَ.

– المهم أنتَ ماذا تفعل هنا؟
– أنا جئتُ من أجل هذه العمرة التي نؤمن بها نحن المسلمين.
– وهل قمتَ بالعمرة؟
– ليس بعدُ. أنا على موعدٍ مع الأصدقاء أن نقوم بها.
– أذهب معكم.
– ألا تخاف؟
– أخاف!
– ألا تخاف أن تؤمن؟ إنَّ للكعبة روعةً وإن لقبر الرسول ضياءً لا تراه العين، وإنما ينفُذ إلى القلب، وإلى حنايا المشاعر، فيرُجُّ الإنسان رجًّا عميقًا، وترى روحكَ حلَّقت إلى عليِّين، تطوف مع النبي في رحلة آخر دينٍ أُرسل إلى الناس، وتراه معذَّبًا في سبيل عقيدته، ثم تراه في خطبة الوداع أتمَّ دينه، وبشَّرنا أنَّ الله رضي لنا الإسلام دينًا، يخطب في أصحاب حجِّه: إن دماءكم وأموالكم حرامٌ بينكم، حُرمةَ يومكم هذا، في شهركم هذا، في عامكم هذا.

ويهتفُ بهم وهو يختمُ رسالتَه إلى البشرية: اللهم هل بلغت؟ ويصيحون: نعم. ويهتف مرةً أخرى: اللهم فاشهد.

أتحتمل هذا جميعه؟
– قد لا يحتمله السذَّج من أمثالك، أمَّا أنا فأحتمله. إني واثق.
– لكَم أخشى أن أجدكَ أكثر سذاجةً مني ومن أصحابي المؤمنين!
– لقد جرَّبتُ نفسي مع الإيمان.
– حقًّا؟
– ووجدتُ نفسي غير قابلٍ للإيمان على الإطلاق.
– هل أنت واثق؟
– كل الثقة.
– وكيف عرفتَ؟
– تعرَّضتُ لمحنةٍ فلم أذكُر الله.
– ما نوع المحنة؟
– هل يهمُّك هذا؟
– كل الأهمية.

كنتُ راكبًا سيارتي وغفَت عيني لأجد نفسي غائصًا بسيارتي في الماء، وحاولتُ أن أفتح باب السيارة فاستعصى عليَّ. ورحتُ أُحاول وأنفاسي تختنق بي تشُدُّني إلى الموت في جذبٍ آسرٍ عنيف. ولم أجد أمامي إلا أن أُحاوِل الخروج من شُباك السيارة، فرحتُ أدفع جسمي خلالها دفعًا، ثم لم أدرِ بعدُ من أمر نفسي شيئًا.

– أُنقذتَ وأنت مغمًى عليك؟

– نعم.

– ومتى كنتَ تُريد أن تذكُر الله؟

إننا نحن المؤمنين نذكُر الله حين نصبح عاجزين؛ فإنَّ الله يأمرنا أن نُدبِّر نحن أمر أنفسنا، ونتوكَّل عليه، ولا نتواكَل.

وقد كنتَ أنتَ مشغولًا بإنقاذ نفسك، وحين جاءت اللحظة التي يجب أن تقول فيها أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله كنتَ مُغمًى عليك، يا صديقي إن هذه التجربة لا تصلُح دليلًا تطمئن إليه أنك مُحصَّن ضد الإيمان.

– أترى ذلك؟

– لا شك في ذلك. أتأتي معنا؟

– لا، سأذهب وحدي.

وأثار الحديثُ الكثير من الوساوِس في ضميره: ما مصيري إذا اهتزَّت مشاعري من الإيمان، واستيقظَت من سُباتها تلك البذرةُ القديمة التي ألقى بها في نفسي أبواي، وسقَتها البيئةُ والتقاليد، وتاريخُ أجدادي الطويل ذلك في ظل العقيدة؟

وما البأس أن أُومن وأظل في عملي؟ هُراء .. إن عملي متوقِّف على إلحادي، ولماذا أُلقي بنفسي إلى صراعٍ أنا في غِنًى عنه، وما لي لا أُبعِد مشاعري عن هذا الامتحان؟ قد أجُوزُه، وأظلُّ على إلحادي، أو قد أرسبُ وأعود إلى الإيمان، ويومئذٍ وداعًا للكاديلاك، والملابس الأنيقة والعيش السعيد.

وبعد أيامٍ التقى الصديقان في بَهو الفندق.

– أراك تُنهي إقامتكَ بالفندق.

– عائدٌ إلى بيتي.

– هل أدَّيتَ العمرة؟

– لم يتَّسِع الوقت.

اللغة في القصة والرواية رؤية وليست بحثًا

كانت اللغة العربية قبل ظهور عمالقة الأدب الحديث الوسيلة والغاية. وكان الكُتاب يضَعون جَمالَ اللغة في المقام الأول، ثم ليس يهمُّ من بعدُ إن كانوا قد قالوا شيئًا فيه بحثٌ وأصالة أو لم يقولوا، فحين جاء رعيل النهضة بعباقرته الكبار تغيَّرَت موازينُ الأدب، وأصبحَت اللغة أداةً لا غاية، ولكنهم مع ذلك حَرصُوا على جمالها وسلامتها.

فطه حسين الذي أدخل أصول النقد الحديث في الأدب العربي، والذي أصَّل الدراسات الأدبية على القواعد الفلسفية الغربية، والذي كتب في كل ألوان الرواية، كان يكتُب بأسلوبٍ موسيقي رفيع، وفي ألفاظٍ منتقاة شريفة، تقع من الأذن والنفس أحسَنَ موقع. والعقاد ذلك العملاق السامق كان حريصًا في كتابته أن تؤدِّي كلُّ لفظةٍ المعنى المطلوب منها في تحديدٍ واضح، وكأنها ثوبٌ مُفصَّل على المعنى أدقَّ تفصيل وأحسَنَه؛ فلا هي واسعةٌ فَضْفاضة تلُفُّ في طواياها معانيَ أخرى، ولا هي ضيقةٌ حَرِجة تخنُق المعنى وتعُوقُه عن الانطلاق. والغريب أنه نهَج هذا النهج في الشِّعر أيضًا، جامعًا في شِعره بين العقل وتأمُّله، وبين المشاعر وسُموِّها.

وكتب هيكل روائعه الخالدة فإذا هو يُطلِق أسلوبه سهلًا ميسورًا جاريًا في نقاءٍ رقراق، وفي عفَّةٍ شفيفة بلورية.

واهتَم أستاذنا توفيق الحكيم بقضية اللغة اهتمامًا كبيرًا، فكتب مسرحيةً بتلك اللغة الغريبة التي يظنُّها القارئ عامية وهي عربية، وعمَد إلى تجاربَ خاصةٍ في الحوار اللغوي مثل هذا النهج الذي انتهَجَه في مسرحية الورطة. وهذه اللغة يظُنها السُّذَّج سهلةً مُيسَّرة لكل مَن يمسك القلم بينما هي في الحقيقة من أصعب أنواع الأساليب وأشدها عنتًا وإرهاقًا للكاتب. ولا يستطيع الكاتب أن يكتُب بها إذا لم يكن على ثَروةٍ لُغويةٍ باذخة.

وكذلك اهتَم تيمور بقضية اللغة بطريقٍ آخر؛ فمع أنه بدأ حياته راصدًا قلمه للقصة دون كبير عنايةٍ بلُغتها، حتى لقد كتَب بعض رواياته باللغة العامية، إذا هو يعود إلى اللغة الأصلية في إصرارٍ عليها، وتمسُّكٍ بها. ويزداد حِرصُه على اللغة العربية السليمة، فيتوفَّر على جميع ألفاظ الحضارة مُحاوِلًا أن يجعل لكل جديدٍ من مخترعات العلم اسمًا عربيًّا. وأذكُر أنني كثيرًا ما ناقشتُه في هذا الجهد، وكانت حُجتي عنده أنَّ هذه المُخترَعات لو وُجدَت في الجاهلية لظلَّت باسمِها الذي اختُرِعَت به، والدليل على ذلك الألفاظ الفارسية الكثيرة التي دخلَت اللغة العربية وأصبحَت جزءًا منها، مثل سندس وإستبرق، ومثل فنجان والكنكة، والأرابزين، والفستان، والستان، ولكنه لم يكن ليقتنعَ بهذه الحُجة، وظل يُوالي جهدَه.

ولعل من المناسب أن أذكُر هنا حوارًا دار بيني وبين أحد القُراء، حين كتبتُ مرةً أنَّ القرآن استعمل ألفاظًا فارسية الأصل، فإذا بخطابٍ يصل إليَّ فيه أن القرآن عربيٌّ بنص القرآن، وذكَّرني بآياتٍ كثيرة منها الآية الكريمة السامقة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ولقد فات صاحبَ الخطاب أنني لم أقصِد مُطلقًا القول إن القرآن غير عربي — لا قدَّر الله. إنما أقصِد أنَّ هذه الألفاظ الفارسية التي دخلَت إلى اللغة العربية أصبحَت عربية وإن كانت من أصولٍ أعجمية، شأنها شأن الناس في كل أنحاء العالم.

وحتى نعودَ إلى ما كُنا بصَدده نُكمِل الكلام عن هذا الرعيل وصِلَته باللغة العربية، ونترك مصر فنجد الأدباء في أنحاء الوطن العربي جميعًا نهَجوا هذا المنهج. وحسبُكَ أن تذكُر ميخائيل نعيمة، وإسعاف النشاشيبي، وجبران خليل جبران؛ فهذا الرعيل إذن حافَظ على اللغة الرائعة، إنما لم يجعلها هدفًا .. كانت وسيلة، ولكن هذا لم يمنَعه من تجميل الوسيلة؛ فبها يصِل إلى حيث يجب أن يصل من نفس قارئه وعقله وقلبه.

وجاء الجيل الثاني وحاوَل أن يُحافِظ على اللغة، ولكن محاولته لم تكُن في جمال جيل الروَّاد، وإن كنا لا نستطيع أن ننسى محمد عبد الحليم عبد الله، وعبد الرحمن الشرقاوي. كما لا نستطيع أبدًا أن نُغفِل اللغة الجديدة التي ابتكَرها العملاق نجيب محفوظ للرواية؛ فقد جعل الأسلوب العربي يخدمُ الرواية بحيث يُماشِيها مماشاة اللون للَّون، فهو يصف حينًا، فإذا هو يختار أرق اللفظ وأحلاه؛ لأنَّ ما يصفه حلوٌ رقيق، أو يصف حينًا آخر، فإذا الأسلوب قاتمٌ لا شفافية فيه؛ لأن ما يصِفُه قاتمٌ بلا شفافية. وهكذا أكمَل نجيب فضلَه على الرواية العربية لا في البناء وإنما أيضًا بالأسلوب الذي يُقيم به هذا البناء.

وجاء الجيلُ الثالثُ الذي أجدُ نفسي واحدًا منه، وما أحسبُ أنني سأكون مُتجنِّيًا إذا قلتُ إن بعض جيلنا اهتَم باللغة وعناها، وكانت تُشكِّل عنده جزءًا عضويًّا من العمل الفني. ولعل فتحي غانم يمثِّل هذا الاتجاه أحسَنَ تمثيل، ولكن يؤسفُني كل الأسَف أن بعض كُتاب جيلي هذا وقفوا من اللغة موقفًا عَدائيًّا، مُعلنِين أنهم فنانون وليسوا مُعلِّمي لغة، وكأنما الفن الأدبي يمشي في طريقٍ بعيد عن طريق اللغة، أو كأنما الفن الأدبي شيءٌ مجرد بلا مُقوِّماتٍ من أسلوبٍ قوامه اللغة، ومن بناءٍ عماده اللغة؛ فقد تكون اللغة عِلمًا، ولكنه عِلمٌ لا يغني الأديب عن أدوات العزف؛ فبغيرها لن يستقيم له لحن. ولمَّا كان الإنسان بطبيعته يميل إلى الأسهل، فقد اختار كثيرٌ من شباب الجيل الرَّابع أن يُغمِضوا أعينَهم عن اللغة تمامًا، فإذا بقصصهم تُصبِح لقيطةً لا تعرف لها أصلًا تُنسَب إليه.

وقد يختار بعضٌ منهم تلك الجُمل القصيرة ليميز بها قصتَه، وهذا الأسلوب نفسه لا عيب فيه، ولا ضير عليه؛ فهو يتمثَّل في جُملٍ حاسمةٍ حادَّة باترة، تجعل السرد حيًّا، تتواكَب فيه الومضاتُ السريعة، لتكون آخرَ الأمرِ ضياء.

ولكن هذا الأسلوب يحتاج إلى ثراءٍ لفظي كبير. وحسبُكَ أن تقرأ نجيب محفوظ وهو يستعمل هذا الأسلوب في بعض قصصه القصيرة، لتعرف أنَّ هذا الأسلوب يستطيع أن يكون شامخًا ضخمًا؛ فاللفظة فيه تؤدي وظيفة جملة، أو لعلها أحيانًا تؤدي وظائفَ جملٍ كثيرة. ولن يتأتَّى هذا لكاتبٍ إلا إذا كانت ثروتُه اللغوية واللفظية ضخمة. كما ينبغي له أن يكون حسُّه اللغوي مُكملًا شفَّافًا يُدرِك أعماق المعنى في الكلمة، كما يُدرِك كل الإشعاعات التي تصدُر عن اللفظ.

فلا ضير على جيل الشباب أن يستعمل هذا الأسلوب، وإنما لا بد له أن يوفِّر له أمرَين؛ الأمر الأول: أن تكون القصة التي تُروى محتملةً لهذا الأسلوب، متوافقة مع حَزْم الجُمل وحدَّتها. والأمر الثاني: أن يكون الكاتب مُدركًا لموقع الكلمة التي يستعملها وأعماقها.

وإن كان بعضُ النقاد الكبار قد بذلوا غاية جهدهم ليُلغوا الأدب العربي، ويقيموا بدلًا منه مَسخًا من أدبٍ لا نعرفُ له أصلًا، يُبصبِص للأدب الإنجليزي، ويتقافز على الأدب الفرنسي، ويتكئ على الأدب السوفييتي، ويرفُض الساحة العربية، فإننا نَعذرُ بعض الشباب الذين تابعوا المزمار الأجنبي مُتابعة الفِيران إلى بِركةٍ يغرقون فيها، ولكنَّ تمهيد العُذْر لهم لا يرفع عن كاهلهم عبء القيام بواجبهم، كأدباءَ عربٍ لا مكان لهم إلا في الأدب العربي. لهم أن ينظروا إلى كل آداب العالم، ولكن ليُفيدوا بها أدبهم، وليُنشِئوا آخر الأمر أدبًا عربيًّا خالصًا في لغته، وفي شكله، وفي مضمونه جميعًا؛ فهم لن يبلغوا في أي

أدبٍ آخر ما يُقدَّر لهم أن يبلغوه في أدبهم؛ فلكل أدبٍ كُتاب. والعالَم في غير حاجةٍ إلى أجانب ليقتحموا عليهم آدابهم. والعالَم حين يقرأ ما يُترجم لنا إنما يَقْرؤنا على أننا كُتابٌ مصريون، فإن وسَّعوا حولنا الوطن فعلى أننا كُتابٌ عرب. هكذا خُلقنا، وبهذا الذي خُلقنا عليه نحن مُعتزُّون، ولا نريد عنه مُنصرَفًا، ولا نبغي عنه حِوَلًا. والحمدُ لله على هذا غايةَ الحمد وأكملَه.

أبياتٌ من الشِّعر

هناك أبياتٌ تكتنزُها الحافظة، وتُلقي بها إلى زوايا النسيان، لا تظهر على سطح الفِكْر، أو يُنعِشها من مَرقَدها ما نشهدُه حولنا، فإذا البيتُ أو الأبيات تقفزُ فارضةً نفسها عليك، لا تستطيع منها فِكاكًا، ولا عنها مُنصَرفًا. والبيتُ الذي يُلِحُّ عليَّ في هذه الأيام، ورُبَّما جهلتُ سبب إلحاحه، هو قول الشاعر القديم:

لا يبلُغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلُغ الجاهلُ من نفسِه

ويُلِحُّ عليَّ بيتٌ آخر للخالد المتنبي:

وتكبرُ في عَين الصغيرِ صِغارُها وتصغُر في عَين العظيمِ العظائمُ

ومرةً أخرى لا أدري سبب إلحاحه. إنما هي أبياتٌ تتقدَّم إلى الحافظة الواعية، تلبيةً لنداءٍ خفي، وكأنَّما للأبياتِ عَقلٌ وحِسٌّ وشُعور، وكأنما تُدرِك وهي في غَيابة النسيان أن صاحبها الذي أكرمها بحِفْظها في حاجة إليها، فهي تقدِّم نفسها إليه في طواعية ووفاء؛ فإنَّ للُّغة العربية وفاءً لا يعرفُه الناس في مألوف حياتهم؛ فهي تُحب من يُحبها، وتُكرِم من يُكرمها، وتكشف عن أسرارها لمن تُحس في قلبه ومشاعره خَفْقًا بجمالها، ووَجيبًا برنين ألفاظها، وموسيقى جُملها. وما الشِّعر إلا شجرةٌ من جنة اللغة الباسقة، ودَوْحةٌ من رَوْضِها المئناف الوريف.

أتكون هذه الأبيات قدَّمَت نفسها إليَّ إجابةً لما أراه حولي، أم تكون قد جاشت إلى قلمي لما أراه في العالم العربي؟ فهل كان أحدٌ يستطيع أن يُصيب أبناء العراق بمثل ما

يُصيبهم به زعيمُهم الأخرق؟ أو كان أحدٌ يستطيع أن يصيب أبناء فارس المسلمين بمثل ما يُصيبهم به زعيمُهم الأخرق؟ والزعيمان كلاهما أكان أحدٌ يستطيع أن ينال منهما بمثل ما ينالان هما من نفسَيْهما؟! والأهبل الآخر في ليبيا، أكان أحدٌ يستطيع أن يُشوِّه صورتَه بمثل البشاعة التي يصنعُها هو بصورة نفسه؟ وهكذا الأمر مع الأسد الذي أعتقد أن نصيبه من اسمه ليس نصيب الأسد على أية حال، ولا حتى نصيب الأشبال. ونجهَد إذا مشينا وراء الآخرين. أليس كلهم يصدُق عليهم البيتان في صدر هذا المقال؟ لقد جنى عليهم جهلُهم بما لا يستطيع أن يَجنيَه عليهم أحد. والجهل كلمةٌ من أكثر الكلمات ثراءً في اللغة العربية؛ فهي لا تُفيد أن صاحبها لا يعرف فقط، وإنما تُفيد أنَّ صاحبها أحمقُ مُعتدٍ؛ يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينَا

ويُذكِّرني ما تعانيه إيران بالبيت الأشهر:

ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمَّا صِرتُ في غيرِهِ بكيتُ عليهِ

ويُذكِّرني بقصةٍ حدثَت في بيتنا حين كان قريبُنا الشاعر توفيق يبيت مع صديق أبي في حجرةٍ واحدة. وكان الصديقُ كثير الجلَبة في ليله، فطلب الشاعرُ إلى أبي أن يأمر له بمكانٍ آخر يبيت فيه، فتَمَّ له ما أراد، وإذا هو يُرسِل إلى أبي في باكر الصباح هذَين البيتَين اللذَين اشتُهرا في محيط الأُسْرة والأصدقاء، يسخَرون بهما من حامد الذي صاحَب توفيق في حُجرته الأخرى التي هَربَ إليها:

نحَّيتَ عني حُسينًا فجاء حامد ألعَنْ
ما زال يصخبُ حتى سمعتُ صوتَ المؤذِّنْ

وتُذكِّرني العراق، وما يُعانيه شعبها، ببيتٍ لشاعرنا عزيز أباظة على لسان شعبِ بغدادَ نفسِه في خالدته العباسة:

قطيعُكَ ذلَّ واستخزى فأدرِك أيها الراعي

أبياتٌ من الشعر قفَز بعضها إلى عقلي قبل أن أشرع في الكتابة، وقفز بعضها الآخر إلى سن القلم وأنا أكتُب، ورحتُ أرويها لك. تُرى هل وافتني لهذه الأسباب التي جاءت في هذه الكلمة، أم لأسبابٍ أخرى، من يدري؟ ومتى عرفَت نفسَها النفس؟ هيهات .. هيهاتَ لها أن تعرف وهيهاتَ لي.

هيبة الكُتاب

تأتي الفكرة إلى الكاتب، وتروقُ له، ولا يُمعِن فيها النظر، ولا يُمعِن فيها الفِكْر، وإنما يُسارِع إلى القلم ويكتُبها. وقد يظُن أنه جاء بما لم يأتِ به الأوائل ولا الأواخر، أو قد يتهاون ويظُن أنها مجردُ كلمةٍ يقرؤها القارئ في بعضٍ من دقائق، ثم يرمي بها دُبر نفسه، فكأنه ما قرأ شيئًا.

ويلٌ للكاتب إن كان هذا دأبه؛ فإنَّ القارئ يرصُد على كاتبه كل كلمةٍ يقولها. وقد يُطالِع القارئُ كاتِبَه بكلمةٍ قالها منذ سنواتٍ وسنوات.

والكاتب لا يستطيع أن يذكُر كل ما كتَبه، وخاصةً إذا كان كاتبًا منتظمًا في جريدة أو مجلة. لا عاصم للكاتب ألا يُناقِض نفسه إلا أن يكون صادقًا مع نفسه هذه؛ فالنفس لا تتناقض. قد يختلف بها الحال من الرِّضا إلى السخط، ومن الإقبال إلى النفور، ومن الانشراح إلى الضيق، ولكنها في رضاها وسخطها، وفي إقبالها ونفورها، وفي انشراحها وضيقها تظل كما هي، لا تنماع مقوِّماتها، ولا تتغيَّر دعائمها، ولا تختلف القيم الأساسية التي تتوطَّد على أطنابها معالُمها واتجاهاتُها.

والكاتب إنسانٌ قسَم الله له أن يكون مرسومُ تَعيينِه صادرًا من السماء، وهو مرسوم من مادتَين؛ المادة الأولى صادرة إلى الكاتب كن كاتبًا فيكون. والمادة الثانية للقُراء، اقرءوا لهذا الكاتب فيقرءون. ولا يكون الكاتب كاتبًا إلا إذا اكتمل المرسوم بمادته الثانية تلك؛ فليس هناك كاتبٌ بلا قُراء.

وقد كان الكُتاب في مصر قومًا يستعينون على إقامة مكانتهم في المجتمع بوظائفَ أخرى؛ فمنهم من كان يعمل رئيسًا لتحرير جريدة. ومنهم من كان يعمل موظَّفًا ويحرص على هذه الوظيفة. ومنهم من بلَغ كرسي الوزارة على سِن قلمه، ونال رتبة الباشوية بأدبه، ولكنَّ كاتبًا واحدًا في تاريخ مصر صمَّم أن تكون قيمةُ الكاتب في مصر مُستمدةً من أنَّه

يحمل لقَب كاتب وفقط، فما استعان في بناء قيمته بوظيفة، ولا سعى إلى رتبة، وإن كانت الرتب والنياشين والأوسمة والقلائد قد سعَت إليه؛ ذلك هو أستاذنا وأستاذ الجيل الذي سبقَنا، كبيرُ كُتاب العالم العربي اليوم، توفيق الحكيم.

فكما أنشأ توفيق الحكيم المسرح العربي المصري، أنشأ في نفس الوقت القيمة السامقة للكاتب بما هو كاتب فقط، لا بما هو باشا، ولا بك، ولا بما هو وزير، أو نائب وزير، أو وكيل وزارة.

وعلى نَسَقه مشى نجيب محفوظ، ومشت الأجيال اللاحقة تستمدُّ القيمةَ العُليا لنفسها في المجتمع بلقب كاتبٍ فقط، مُدرِكين أنَّهم يحملون هذا اللقب بمرسومٍ صادر من فوق سبع سموات، لا يُلغيه إنسان، ولا يعوقُه عن أن يكون حقيقةً دامغة لا تقبل الجدل من سلطانٍ مهما يكن شأنه، ولا جماعة مهما تكن كافرةً عاديةً على الحق، ولا قوة في الأرض بالغةً ما بلغَت هذه القوة من جبروت.

وقد مرَرنا بأزماتٍ عسيرة، ووقَف الكاتبُ الشريف ليكون الضياءَ الوحيد في حالكِ الظلمات، ولتكون كلمتُه نورَ الحق في جائح الظُّلم، وفي جوائح الليالي الداكنة السوداء. بهؤلاء الكُتاب ظل وجه مصر مُشرِقًا في طول البلاد العربية وعَرْضِها، بل وعلى اتساع العالم والمعمورة أجمع، تُعلن أنَّ مصر الخالدة الباقية فيها الكلمة الشريفة، وفيها من يستطيع دائمًا أن يقول الله أكبر على كل مَن طغى وتجبَّر؛ فأنا لا أعرف وظيفةً في العالم تَعدِل أن يكون الإنسان كاتبًا؛ لأنَّ كل وظيفةٍ بها إنسان أو جماعة، ولكن الكاتب يُصدِر الأمر بكينونته كاتبًا السماء، وهيهات للأرض أن تُطاول السماء.

إنسانٌ واحد هو الذي يستطيع أن يَعزِل الكاتب من وظيفته، هو الكاتب نفسه؛ لأن الله حين منحه موهبة الكتابة أخذ عليه عهدًا غير مكتوبٍ أن يكون شريفًا، لا يخادع الناس، ولا يقول إلا ما يؤمن به، ولا يُفشي إلا الخير، ولا يدعو إلا لما هو الأسمى والأرفع من قيم الحياة. لقد وهب الله للكاتب قبسةً من نوره، وما كان لقبسةٍ من نور الله أن تكون خداعًا، أو غشًّا أو كذبًا، أو دعوة للسفول، أو اعتداءً على الحق، أو اعتسافًا لكرامة الإنسان، فإذا خان الكاتب العهد سقط عنه اللقَب، وأصبح حفنةً من تراب الحياة، ترابُ الموت بالنسبة إليها أمل، وأي أمل. ومهما يبلغ الكاتب من وظائفَ فهو إنما يتولى الوظائف ليؤدي واجبه نحو وطنه، ولا ينكُص عن نَدْب بلاده له أن يقف في خدمتها في الميدان الذي تريده فيه أن يكون، ولكن مهما تكُن هذه الوظيفة رفيعة ومهما تُكسِبه من سلطان وهيبة، يظل لقبُ الكاتب أعظمَ رفعة، وهَيبةُ كلمةِ كاتبٍ لا تَلحَق بها هَيبة.

كتاب السادات

انتهيتُ وشيكًا من قراءة كتاب السادات الأسطورة، للأستاذ موسى صبري. ولا شك أني تأخرتُ في الانتهاء من قراءة الكتاب. وقد كان ذلك لأنني أقرؤه في إمعانٍ شديد، وهو في نفس الوقت كتابٌ ضخم تستغرق قراءتُه الكثيرَ من الوقت، ولكن المُتعة التي تُصاحِب القارئ في رحلته الطويلة تجعلُه يستعذب جهد القراءة.

فالسادات علامةٌ من أهم علامات جيلنا، وأثَره ليس مقصورًا على مصر وحدها، وإنما هو اتسع فشَمِل العالم أجمع.

فإنَّ هذه الأسطورة المسمَّاة أنور السادات استطاعت أن تُبهِر العالم أجمع، حتى لأذكُر أنني كنتُ في باريس، وركبتُ مع زوجتي سيارةَ أُجرة، وكان ذلك عقب أن عبَر السادات التاريخَ إلى القدس، وسمعَني السائق أُكلِّم زوجتي بلغةٍ لم يفهَمها فقال: من أي البلاد؟

قلتُ: من مصر.

قال: إن لكم زعيمًا عظيمًا. أتُحبونه في مصر أم لا؟

قلتُ: بل نُحبه كل الحُب.

قال: إننا لم نُحب زعيمًا من خارج بلادنا مثل حبنا لديجول كما أحببنا أنور السادات. وكَم فرحتُ بما قاله السائق! وقارنتُ بين هذا الذي يقولُه وبين ما كنا نسمعه قبل ذلك حين كُنا نُلِم بباريس.

وخرجتُ من المقارنة بشعورٍ من الاعتزاز برئيسنا أكرم الله مثواه. إن إنسانًا لم يستطع أن يشغل من صفحات التاريخ الحديث ما شغلَه السادات بعناوين المجد والسموق؛ فالعالَم لم يسمع عن دولةٍ تنهزم هزيمةً لم يشهَد التاريخ لها مثيلًا، ثم

تستطيع في مدى سنواتٍ ستٍّ أن تقلب هذه الهزيمة إلى نصرٍ لم يشهد التاريخُ له مثيلًا أيضًا. والعالم لم يشهَد إنسانًا يُواجهُه ويُنفِّذ ما يعتقدُ أنه الصواب على رغم كل التحديات إلا أنور السادات. والعالم لم يشهَد زعيمًا يُضحِّي بنفسه ليُنقِذ وطنه ضاربًا عُرضَ الأُفقِ بالدِّعايات والشِّعارات الجوفاء الفارغة إلا أنور السادات.

وتَمُر السنوات ويتَبارى الذين وجَّهوا إليه سهامهم المسنونة لينالوا بعض ما نال، فيخذلُهم الطريق وهم في غيِّهم، بدلًا من أن يعترفوا بالخطأ الذي وقَعوا فيه يزدادون عَداءً للرجل، حتى وهو في مثواه الأخير.

ولستُ أدري أي مصير كان ينتظرنا إذا نحن لم نَستظلَّ بالسلام. وكيف يتصوَّر إنسانٌ أن عدُونا كان سيسكُت على الهزيمة لتكون نهاية علاقته بمصر، وهي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تُحاربه، والعدُو يعيش في المنطقة تحت شعار القوة وحدها، والقوة ما زالت كما كانت في العصر الحجري هي الحقيقة التي تحكُم علاقات الدول بعضها ببعض؟ ولو لم تكن إسرائيل مذعورةً من أمريكا الطرف الثالث من معاهدة السلام لما خنعَت، ولافتعلَت ألف سببٍ لتدخُل في حرب مع مصر. رحم الله السادات في عليين. أدركَ — رحمه الله — هذا جميعه، وأَصَر أن تكون أمريكا شريكًا ثالثًا في المعاهدة، وبهذا الإصرار اكتسبَت المعاهدة قوَّتها وجبروتَها. واستطعنا أن نعيش السلام الذي نعيشه اليوم والحرية التي نحياها الآن، واستطعنا أن نتفرغ لأزماتٍ جَرَّها علينا حُكم الطغيان لمدة تقرب من عشرين عامًا، وفرضَتها علينا سنواتُ الحرب التي تواصلَت منذ عام ١٩٤٨، حتى عام ١٩٧٣.

ومع أن هذه الحقيقة ساطعةٌ لا شك فيها نجد المُغرِضين والأفَّاكين، والجبناء، والنهَّازين، لا يتركون فرصةً إلا اهتبلوها لينالوا من الزعيم الأسطورة.

ويظهر كتاب موسى صبري وكأنه لم يظهر. ويستطيع الشيوعيون والنَّاصريون بما لهم من أصواتٍ صارخة، وعلى رغم قلَّتهم الضئيلة، أن يفرضوا الصمت أو شبه الصمت على الكتاب. ولو ظهر لطفلٍ منهم صفحةٌ من كتابٍ لملئوا الدنيا ضجيجًا وعجيجًا؛ فهو الكتاب الأوحد وهو العبقرية والخلود، وهو المجد التليد، والفن الأصيل، والرفعة التي لا تُدانيها رفعة، والسُّموق الذي لا يعلو إليه سُموق. وسبحان الله العظيم من قبلُ ومن بعدُ!

وأجد في كتاب السادات الأسطورة شيئًا رُبَّما حلا لي أن أُعلِّق عليه؛ فقد أعاد إليَّ شخصيًّا ذكرياتٍ لا تنمحي من ذهني؛ فقد جاء في الصفحة ١٨٠ من الكتاب هذه الواقعة،

أرويها كما جاءت، وهذه الواقعة حدثَت في معتقل الزيتون، حيث كان المؤلِّف مُعتقَلًا، وحيث التقى لأول مرة بالزعيم السادات:

وذات صباحٍ طلبني جلال الدين الحمامصي للتحدُّث معه في غرفته، ثم أغلَق الباب بالمفتاح.

وقال: سأُفضي إليك بسرٍّ سياسي خطير، وحذارِ من البَوحِ به لأي إنسان.

قلتُ: خيرًا.

قال: هل لفَت نظركَ شيءٌ في أخبار الصحف؟

قلتُ: لا.

قال: هناك خبرٌ هام أنَّ النائب إبراهيم دسوقي أباظة «باشا» عضو الأحرار الدستوريين قدَّم استجوابًا للحكومة عن سوء معاملة المُعتقلين السياسيين.

قلتُ: وما أهمية ذلك؟

قال: لقد فكَّرنا هنا بأن من واجبنا الوطني أن ندعم هذا الاستجواب.

قلتُ: كيف؟

قال: هذا هو السر. لقد قرَّرنا أن يهرب عددٌ من المعتقلين هنا، ووقع الاختيار عليكَ ضمن من تقرَّر هربُهم.

وشرح لي جلال الحمامصي التخطيط الكامل للهرب، وبابُ الحجرة مُقفل بالمفتاح. ويمضي المؤلِّف بعد ذلك شارحًا قصة الهرب من المُعتقل؛ ذلك الهرب الذي دبَّره الزعيم السادات والذي نجح.

وإنما أروي هذه الواقعة لأذكُر ما لم يذكُره المؤلِّف عن ذلك الاستجواب الذي قدَّمه أبي. والواقع أنَّ المؤلِّف لم يكن محتاجًا في واقعة الاستجواب إلا إلى هذا الجزء الذي أوردَه، فلا لوم عليه ولا تثريب أنه لم يمضِ في الواقعة إلى نهايتها.

فالذي حدث أن حكومة الوفد اختارت اليوم الذي ستُناقِش فيه الاستجوابَ المقدَّم من أبي لتعتقل في ذات اليوم المرحوم مكرم عبيد باشا. وهكذا وقف أبي على المنبر، وبدلًا من أن يُناقِش الاستجواب، قال: إننا متضامنون مع مكرم عبيد باشا في كل ما فعله، ولتفعل بنا القوة الغاشمة ما تشاء.

وجُن جنون الحكومة الوفدية، وفُوجئنا في بيتنا بعد منتصف الليل بقواتٍ ضخمة من الشرطة تُحاصِر البيت ثم تقتحمه، وتعلن أبي أنها ستفتِّش البيت. وعرفنا أنها كانت تبحث عن الكتاب الأسود الذي أصدَره مكرم عبيد باشا في ذلك الحين، بمُعاونةٍ من الأستاذ

جلال الحمامصي. وقد كُنا فعلًا نُوزِّع الكتاب من بيتنا، ولكن أبي بعد أن ألقى كلمته في مجلس النواب، توقَّع أن يدهموا البيت ليبحثوا عن الكتاب أو المنشورات الأخرى، التي كانت تُوزَّع في هذه الأيام في ظل الحكم العسكري والصحافة المهدَّمة، فهرَّبنا كل ما كان لدينا من نُسخ. وجرى التفتيش، وحسبنا نحن أهل البيت أن هذا الذي يحدُث شيءٌ بربري بعيدٌ كل البعد من أي معنًى كريم.

واليوم حان لي أن أَشْهَدَ أنَّ التفتيش الذي تم كان تفتيشًا هينًا لينًا شريفًا، إذا نحن قارنَّاه بما كان يحدُث بعد ذلك في سنوات الطغيان الغاشمة، وأين بضعة شرطة يمُرُّون بالغرف، أو يفتَحون الدواليب والأدراج، من تلك العواصفِ التي كانت في عصر الطغيان تُدمِّر البيوت تدميرًا، حتى إذا انحسرَت لم تترك إلا تُرابًا مَهيلًا وفَناءً مُلحقًا.

ذكريات، وما لنا لا نذكُرها؟ أليست الذكرى تنفع للمؤمنين؟!

وبالحق نزل

قرأتُ فيما قرأتُ منذ قريبٍ كلامًا حاولتُ أنْ أَجْمَع شتاتَه أو شَعثَه فتأبَّى عليَّ، ونفَر أن يلتئم، ورفَض أن ينسجم بعضُه مع بعض؛ فقد قال القائل إن الشيوعية لا تتعارض مع الإسلام. وتلك عجيبةٌ من العجائب! وقد حاول الكاتب أن يسُوق الأدلة ويدعَم رأيه بالبراهين، فإذا بالأدلة تنهار جميعًا، وإذا دعائمه تتساقط مع براهينه لتصبح أنقاضًا من هُذاء، وحُطامًا من لغو الكلام.

فالشيوعية لا تجتمع مع الإسلام في وعاءٍ واحد أبدًا، ولا يستطيع أن يكون إنسانٌ شيوعيًّا ومسلمًا في وقتٍ معًا مُطلقًا.

فالإسلامُ يقوم على خمسٍ؛ أهمُّها شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ مُحمدًا رسول الله. وهاتان الشهادتان ليستا مجرد كلامٍ يُقال، وإنما هما كلامٌ وعمل، وقولٌ وفعل، ونطقٌ وإيمان، لا بد أن نؤمن أنَّ الله واحدٌ أحد، وأنه سبحانه أرسل رسوله محمدًا عليه الصلاة والسلام، وجعل معجزتَه هي المعجزة الوحيدة الخالدة في تاريخ جميع الرسل والأنبياء؛ فكل مُعجزات الأنبياء كانت بصريةً شَهِدها قَومُ النَّبي الذين أُرسِل إليهم، والذين عاصروه، بل والذين تصادَفَ وجودهم وقتَ وقوع المعجزة.

أمَّا الإسلام فمعجزتُه القرآن، كتابٌ لا يأتي عليه الزمان، ويأتي هو على الزمان، باقيًا خالدًا دائمًا، تتلقَّاه الأجيال كما أُنزل، لا يختلف في حرفٍ من حروفه عن يومِ أُوحِي به إلى خاتم الأنبياء إلى يوم تقوم الساعة.

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٥). تعالَيتَ يا سبحانك! هذه الدقَّة في التعبير، لم تعرفها اللغة في كلِّ ما كان من كلامٍ قبل الكتاب، وفي كلِّ ما تَبِعه من ألوان القول. وهذه التفرقة الدقيقة في آياته

الكريمة لم تعرفها اللغة إلا في القرآن الكريم؛ فالله سبحانه وتعالى يُعلِن البشرية أنه أنزل كلامه بالحق، ولا يكتفي بهذا، بل يُعلنهم جلَّ وعلا أنه بالحق نزل، فهو حقٌّ في بداية رحلته، وهو حقٌّ حين انتهت رحلته، ليصبح بلاغًا إلى العالمين، فيا أيها الناس، اعلموا منذ نزل القرآن إلى أن يرث الله الأرض وما عليها أنَّ هذا القرآن صدَر عن الحق، وأصبح بلاغًا لكم بالحق، لا يستطيع باطلٌ أن يتغشَّى حرفًا منه بظِلٍّ مهما يكن هيِّنًا.

وهو سبحانه يضمَن للعالمين أنَّه هو المسئول عن ذِكره ليقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ صدق الله العظيم (سورة الحجر: ٩). وقد فعل سبحانه، وبقي الكتاب، وهو باقٍ إلى الأبد الأبيد.

فالذي يقول لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله يشهد بهاتَين الشهادتَين، أنَّ الله أرسل سيدنا محمدًا بكتابه العزيز، وأنَّ الكتاب أنزلَه الله بالحق، وأنَّه بالحق نزل، وليس في الأمر اجتهادٌ إذن، وما دمتَ شهِدتَ الشهادتَين؛ فأنتَ إذن تشهد أن القرآن من عند الله.

وأنت مُلزَمٌ أن تؤمن بكل ما جاء في هذا الكتاب، وما دام كتابَ الله فأنت لا تستطيع أن تقبل منه ما تقبل، وترفُض منه ما ترفض؛ فهو ليس كلام بشرٍ مثلك، وإنما هو كلام الله الذي هو الله، فإذا كان الأمر كذلك، وإنه لكذلك، فكيف يستقيم في الأذهان أن يكون هناك شيوعيٌّ مسلم.

ولستُ أريد أن أدخل في جدلٍ عريض حول أصل النظرية الشيوعية من ماركس إلى من تَبِعه بإلحادٍ إلى آخرِ شيوعي، وإنما أريد أن أناقش ما لا شك فيه.

فالنظرية الشيوعية ترفُض الملكية التي تعود بمالٍ على صاحبها، وترفُض النظرية الشيوعية فكرةَ الميراث، جملةً وتفصيلًا. وأسأل هؤلاء الشيوعيين: كيف يستقيم هذا مع ما جاء في القرآن؟ فهل تُراهم يُجيبون؟ لن يُجدي هنا قول القائل منهم أنا مسلم، وأنه يقيم الصلاة في مواقيتها، وأنه حج بيت الله الحرام؛ فكل هذا لن يُغنِيَه عن الإجابة شيئًا.

فهو ما دام مسلمًا، فلا بد أن يعرف أنَّ هناك سورةً اسمها سورة النساء، وما دام يعرفها فلا شك أنه يعرف تفاصيل المواريث التي أوردَها الله سبحانه في هذه السورة. وهي تفاصيلُ لم يذكُرها سبحانه وتعالى عن الصلاة وهي الصلاة؛ فالقرآن لم يذكُر عدَد الركعات في كل صلاة، ولم يذكُر سبحانه كيفية الصلاة من ركوع وسجود. ولستُ أريد بذلك أن أقول إنَّ المواريث أهم — أعوذُ بالله سبحانه أنْ أقصِد إلى شيءٍ من هذا — وإنما أردتُ فقط أن أُشير إلى مقدار الأهمية التي شَمِل الله بها الميراثَ في قرآنه الكريم.

فكيف يُريد الشيوعيون أن يُحرِّموا الميراث والملكية ويظلُّوا بعد ذلك مسلمين؟ هيهات. لقد كان كارل ماركس أكثر صراحة — أم الأجدر بي أن أقول إنه كان أكثر وقاحةً — منهم؛ فقد عَلِم يوم أنشأ نظريته أنها ستتعارض مع جميع الأديان، فألغى الأديان جميعًا واستراح، وأتعب البشر من بعده.

فإذا نظرنا إلى تطبيق النظرية في البلاد الشيوعية، وجدنا الكنائس أصبحَت متاحف، ووجدنا الدول الشيوعية تمنع غير المُلحِدين أن يدخلوا الحزب الشيوعي، وويلٌ أي ويلٍ لإنسانٍ في البلاد الشيوعية لا يكون عضوًا في الحزب الشيوعي. إن الشيوعية حربٌ على الأديان جميعًا بنص النظرية. وإذا كان المشرِّعون للنظرية الشيوعية في موسكو يُجيزون لأتباعهم أن يدَّعوا التديُّن ليجتذبوا الناس إلى نظريتهم، فإنَّ الإسلام وجميع الأديان لا تُتيح لأتباعها أن يختاروا من الدين ما يحلو لهم فيعتنقوه، وينصرفوا عما لا يروق لهم وينبذوه.

إنَّ الدين كلٌّ متكامل لا يجوز لأحدٍ من البشر أن يختار منه ويرفض. وإذا كانت الأوامر قد صدرَت للشيوعيين في الدول الإسلامية أن يدَّعوا الإسلام لفترة يُسمُّونها مرحلية، فإنَّ الإسلام والمسلمين، والإسلام والمؤمنين والكافرين يستطيعون، في يُسرٍ وفي منطقٍ لا يقبل الجدل، أن يعرفوا المسلمين إسلامًا يستُرون به إلحادهم، والمؤمنين الذين يعرفون ماذا يعني قولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله. ومن عَجبٍ قولهم في ميدان الإلحاد إنَّ أصل العالم مادة، ثم هم يُفصِّلون نظريتهم في الخلق تفصيلًا جريئًا لا مثيل لجرأته! وهم بهذه النظرية يريدون أن يقولوا إنهم يرفضون فكرة الإيمان بالغيب، وإنهم لا يؤمنون بغير العلم.

فإذا هم — ودون أن يشعروا — يُقيمون نظريةً تقوم كلها على الغيب لا يؤيِّدها أي دليلٍ علمي أو روحي؛ فالأمر الذي لا شك فيه أنَّ ماركس لم يكن شاهدًا على بدء الخليقة، كما لم يكن إنجلز أو لينين حاضرَين، فكيف إذن استقامت النظرية بين أيديهم ويُطلِقون عليها اسم النظرية ويطمئنون إلى ذلك ويستريحون؟

بينما نُصدِّق نحن المؤمنين ما جاء في القرآن عن بدء الخليقة في منطقٍ منسجم مع طبيعة إيماننا كل الانسجام؛ فالذي عرف سِرَّ الروح في الإنسان أَرسَل إلينا كتابًا هو معجزة الدهور، وفي هذا الكتاب ذكر كيف نشأ الخلق، وما دُمنا لم نعرف سِرَّ أرواحنا فحتمٌ علينا أن نصدِّق كل قولٍ يُقال.

ويصيح القرآن الكريم في خلق الله أجمعين: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. سبحانك ما أعظمك! ولكن الملحدين لا يُبصِرون ولا يريدون أن يبصروا؛ فعلى القلوب أقفالها. هم يستمدُّون إلحادهم من جيوبهم، ومن أرباحهم، ثم هم يزدادون جرأةً على الحق، ويدَّعون أنهم مؤمنون!

وما داموا قد فقدوا الإيمان فلا عجَب أن يفقدوا الإيمان بوطنهم، وها هم أُولاء يُشعِلون الفتن في كل يوم، ويُلحقونها بالسخيمة، والأحقاد، والضغائن. ويستجيب لهم فتيةٌ أبرياء يريدون أن يجعلوا منهم الوقود ليحرقوا به أمن الوطن.

ليس لكافرٍ ميثاقٌ ولا عَهْد. وهؤلاء الشيوعيون يعلَمون أن نباتهم لا ينمو إلا في الأرض المحترقة، وفي أنقاض الأوطان. وها هم أولاء يُحاوِلون أن يحرقوا بلادهم، ويهدموا أركانها، ولكن هيهات. إنَّ الشعب لهم بالمرصاد، ومن فوقه العزيز ذو القوة المتين. وما خاب من كان الله ظلَّه وعونَه، وملاذَه، وملجأَه.

ويصل إليَّ خطاب من الصعيد يسألني لماذا أكتب عن الشيوعيين، وهو لا يعرف عنهم شيئًا، هنيئًا لك أنكَ تجهل أمرهم؛ فقد أكرمَكَ الله بهذا الجهل، كل الإكرام، ولكنني يا أخي، لا أعرف ما هو الموضوع الذي تعرفُه أنت حتى أكتُب فيه أنا، وما دام الأمر كذلك فاقرأ أنت عما لا تعرفه؛ فإن هذا هو خيرٌ لكَ ولي من أن أكتب أنا عما أجهلُه أنا وتعرفه أنت. ألا ترى ذلك؟

سيدة اللغات

أيُّ حربٍ طاحنة تلقاها اللغة العربية من الشيوعيين المُلحِدين، والمُغرِضين الكافرين؟ وليست اللغة العربية هدفًا في ذاتها، وإنما يتقصَّدونها بسهامهم؛ لأنها لغة القرآن الكريم .. والحرب ليست بنتَ اليوم، ولكنها قديمةٌ قِدَم الكفر والأغراض الخبيثة. وقد خُيل إليهم أنهم نجَحُوا يوم ألغَوا جامعة الأزهر القديمة، ولم يُصبِح حفظُ القرآن شرطًا للانتساب إلى ساحة الأزهر الشريف، ولا إلى حصن دار العلوم العتيد الشامخ، وتحطَّمَت اللغة على شفاه الأساتذة، وانسحقَت على شفاه التلاميذ، وشَبَّ جيلٌ لا يعرف اللغة العربية. وزاط الأعداءُ وتهلَّلوا، وحَسِبوا أنهم نالوا ما كانوا إليه يطمحون.

وما هي إلا دورة زمن — وما أسرع ما يستدير الزمن! — حتى تبيَّنوا أنَّ اللغة على ألسنة الشباب تهشَّمَت، ولكن الدين الإسلامي يزدادُ في نفوس الشباب رسوخًا وثبوتًا وتأصيلًا.

وتطيشُ منهم السِّهامُ ويتولَّاهم الهوَس، ويتخبَّطون في حربهم كما يتخبَّط مَن به مِن الشيطان مَس.

ويعود إلى الأزهر، وتملأ ربوعَ مصر، المعاهدُ الدينية؛ تكاد تُغطِّي قُراها جميعًا، وتعود اللغة العربية إلى الشفاه. وما هي إلا دَورةُ زمنٍ أخرى نرى ملامحها منذ اليوم، حتى يستقيم اللسان العربي، كما كان مُستقيمًا. ويرى الشيوعيون المُلحِدون والمُغرِضون مرضى القلوب مطالعَ الصباح فيَهيجُ هائجُهم، ويقول قائلهم: إن اللغة العربية ما هي إلا صدًى. وتمُر أيام ولا نقرأ تعليقًا على ما قال الرجل المُهلوس.

وأعجَب ويتملَّكُني الأسى والحزن والأسف. أهانت لغتُنا على أصحابها كل هذا الهوان؟ إن الأمم العريقة كلها تعتَز بلغتها، بشرفها، فكيف إذا كانت لغتنا هي لسان كتابنا،

الكتاب السماوي الوحيد الذي بقِيَت لغتُه منذ نزل حتى اليوم، وحتى يرثَ الله الأرض ومَن عليها. ويقول سبحانه في الآية ١٠٣ من سورة النحل:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

ويقول جل شأنه في الآيات ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥ من سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

ويقول تقدَّسَت كلماتُه في الآية ٩٧ من سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾.

ويقول تباركَت آياته في الآية ٥٨ من سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فإذا كان اللسان العربي صدًى فما الصوت؟ وإن كان ظلًّا فما الأصل؟ ولماذا يُحاوِل هؤلاء المُغرِضون في حُمقٍ وإصرارٍ أن يكونوا قومًا لُدًّا، يصُبُّون على الدين كراهيتَهم سمًّا ناقعًا؟ أيحسبون أنه يخفى علينا ما يَسعَون إليه من مُحاولة تحطيم اللغة العربية؟ وهل يتصوَّرون أنهم سيبلُغون الأمل الذي يُصوِّره لهم جهلُهم من تحطيم الدين في نفوسنا، إذا حطَّموا لغةَ هذا الدين وصوتَه الأصيل، وصوتَ الآباء والأجداد على مدى آلاف السنين؟

لقد حاولوا أن يُهاجموا علماء الدين والمصابيح الهُداة من شيوخ العقيدة، فانهالت عليهم الأقلام، فعاجُوا طريقَهم إلى محاولةِ تحطيمِ اللغة العربية، قائلين إنها صدًى، وعجَزوا أن يقولوا لأي صوتٍ كانت لغتنا العربية هي الصدى.

أيُريدون أن يقولوا إنها صدى التراث الذي يسمُّونه رجعيةً صَلَفيةً وتَحجُّرًا؟ أولَيس لكل أمةٍ تراثُها في لغتها؟ أولَيس للفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين واليونانيين تُراثٌ لغوي؟!

أهذه اللغات جميعها أصل ولغتُنا نحن التي هي لغة كتابنا هي الصدى؟! بئس ما يدَّعون.

لماذا نُكرِمهم ويستخفُّون أمرنا؟ ولماذا نقدِّس حريتهم ولا يقدِّسون عقيدتنا؟ وهم الملحدون ونحن المؤمنون، ونحن الأصل وهم الاستثناء، ونحن الأكثرية وهم الأفراد القلَّة، أما يستَحون؟!

وكيف لهم أن يستَحُوا وهم الكافرون عقيدةً وخُلقًا وقولًا وقلمًا؟

ويتصدَّرون وسائل إعلامنا الرسمية ويُبجِّحون بهذا الكفر، وهذا التجديف، ولا يجدون من يردُّهم. وإننا نربأ بأنفسنا أن نقول من يمنعهم؛ فالحرية هي أساس ديننا الواثق من عظمة تعاليمه، يرفض في كبرياء أن يُرغِم أحدًا على الإيمان به. هكذا نزل بالحق، وهكذا دعا إليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وهكذا سيظل إلى قيام الساعة؛ فالحرية في ديننا أصل؛ ولهذا نحترم حريتكم، ولكن عليكم أنتم أيضًا أن تحترموا حريتنا، وعليكم لو كنتم على شيءٍ ضئيل من الحياء أن تُراعوا مقدَّساتنا ولا تمسُّوا عقيدتنا بسُمِّكم الناقع.

اللغة العربية هي لغة القرآن، كتاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهي اللغة الوحيدة بين لغات العالم اليوم التي بقي كتابُها بلسانها لم يتغيَّر فيه شيء. أليس من الطبيعي أن تكون هذه اللغة هي أعظم اللغات قاطبة؟ فأيُّ لغةٍ في العالم الذي يعيش اليوم يُقرأ بها كتابٌ إلهي إلا لغتنا نحن؟

أهذه اللغة صدًى، فما الصوت إذن؟

وبعدُ، فماذا نحن صانعون بتراثنا جميعًا من قَبل الإسلام حتى اليوم؟ وهل تُراث الأدب العربي جميعًا إلا اللغةُ العربية؟ تُرى أيريدنا الملحدون أن نُلقي بهذا التراث في البحر، ونتلقَّى عنهم لغتنا وأدبنا لغةً جديدة وأدبًا مُستحدَثًا؟

ويلٌ لهم! بماذا يَهرِفون؟

إن لم يكن للأمة تراثٌ فليس لها حاضر، ولا ينبُت جديدٌ من معدوم، ولكل فرعٍ أصول، فإذا قُطعَت الأصول قُطعَت الفروع جميعًا.

إنَّ التاريخ العربي مُرتبطٌ بالتراث الأدبي كل الارتباط. وقد كان الشعر العربي هو المؤرِّخ لكل أحداث العرب. ومن هذا الشعر العربي ومن النثر العربي تكوَّن تُراثنا جميعًا، فهل تكوَّن هذا التراثُ جميعًا صدًى؟

إننا اليوم ننزل بالبلاد العربية فإذا تحدَّثوا أمامنا بلغتِهم الدارجةِ أصبَح الكلام بالنسبة إلينا غريبًا، لا يكاد يُفهم، ولا نفهمه حرفيًّا. حتى إذا نطقوا باللسان العربي استقام حديثُهم، وفهِمنا ما يريدون.

رُبَّما كانت لغتنا الدارجة في البلاد العربية بفضل الفنون المختلفة التي تُصدَّر من مصر إلى العالم العربي، ولكن اللغة تفاهُم بين طرفَين، فإن يفهم الآخر عنا فلا بد لنا نحن أيضًا أن نفهم عنه، فإذا لم يكن التفاهم بيننا باللغة العربية التي يقول عنها الكافرون صدًى فبأي لغة يكون؟

يا أيها الذي قال هذا، لقد عدَوتَ في قولك على لغة القرآن، وعدَوتَ في قولك على لغة التُّراث، وعدَوتَ في قولك على لغة الأدب العربي الحديث؛ فلن يكون الأدبُ أدبًا إلا إذا كُتب باللسان العربي، وعدوتَ في قولك على لغة التفاهُم بين العرب أجمعين، وبعُدتَ مرةً أخرى، فأيُّ لغةٍ تختارها ليكتُب بها الأديب العربي، أو الشاعر العربي؟ إذا كتب المصري لغته الدارجة، فإن أحدًا لن يستطيع أن يفهم ما يكتب حتى أبناء مصر؛ لأنهم تعلَّموا القراءة باللغة العربية الأصيلة وليس اللغة الدارجة. وإذا كان المصري لن يفهم فما ظنُّك بأبناء العربية من الدول الأخرى؟

وإلى أين ينتهي بنا الأمر إذا كتَب كل عربي بلغته الدارجة؟ إنهم سيُصبِحون كالطيور العجماء، تقول ولا يفهم أحدٌ عنها شيئًا، بل سيكونون شرًّا مصيرًا، وأسوأَ حالًا؛ لأنَّ الطيور تفهم بعضُها عن بعض. أمَّا الإنسان العربي فلن يفهم أحدٌ عنه شيئًا حتى أبناء وطنه؛ لأنهم جميعًا تعلَّموا القراءة والكتابة باللغة العربية، لا بالدارجة، وبهذه اللغة تُكتب صُحفهم، وبها تُقرأ نشراتُ أخبارهم في الإذاعة والتليفزيون.

ما أحسب أيها الكافرون إلا أنكم تَهرِفون بما لا تفهمون، وكُبُر مقتًا أن تقولوا ما لا تفهمون، فاحذروا أنفسكم؛ فهي حين تجهل يبدأ جهلُها عليكم، وتُصبِح لكم شَر عدُو.

أمَّا نحن المؤمنين فدينُنا يزداد مع الأيام قوةً ومنَعةً وانتشارًا، ولغتُنا ستظَل إلى ما بعد الزمان سيدةَ اللغات، وإن رغمَت منكم كل الأنوف.

صورةٌ قلمية، الثور المذءوب

سُعارٌ أصاب الرَّجل منذ البواكير الأولى من حياته، أنفق عمره يتعلم لغات غير لغته العربية، وله من الوقاحة ما يُحاول به أن يكون أديبًا في اللغة العربية. وانتهت حياته وأوشكَت، ولكن المسكين فَشِل أن يكون بين قومه أديبًا، وفَشِل أن يكون في اللغات التي تعلَّمها وأتقنها شيئًا مذكورًا أو غير مذكور.

إنه ثورٌ أصابه سُعار الذئاب المفترسة، يُريد أن يُحطِّم الحياة من حوله، ولكن لأنه ضئيل القَدْر هيِّن الشأن حقير النفس، وضيع الفكر، لم يُحطِّم إلا نفسه.

همَّ أول ما همَّ باللغة العربية، والتراث العربي، وراح يُحارب كل ما هو أصيل في أدبنا وتراثنا، ونظره الكليل المنحرف مصوَّب على أنَّ اللغة العربية هي لغة القرآن. وهو يظن بما ركِّبت عليه نفسه من اجتماع الثور والذئب، أنَّه يستطيع أنْ يحطم اللغة ليُبعد الناس عن القرآن، وعن الدين. واستقبله فيما تكالب عليه الفشل الوبيل، وأحس الناس بما في هجمته من سُعار فرفعوا المصاحف على الرءوس وألجموه بما لا يطيق، وانهالوا عليه رجمًا، فإذا الثور فيه والذئب جميعًا يتمخضان عن كلبٍ أجرب، يضع ذيله بين فخذَيه الخلفيتَين، ويُسارع في تلصُّص المجرمين، يعدو باحثًا عن مخبأٍ أمين يلعق فيه جَربَه وجراحه، ويصمت حتى يهدأ ما ثار من الناس، وحتى ينثني عنه الراجمون، وينساه الذين يقولون لا إله إلا الله محمد سيد الخلق رسول الله.

فإذا هذا الضجيج عاد إلى الميدان مرَّةً أخرى يُحاول في غباء الثور، وفي سُعار الذئب أن يبحث عن قنصٍ آخر، بعد أن عزَّه أن يُهاجم لغة القرآن بشائه بصره ومريض بصيرته، أن يُهاجم من يُجلُّه المسلمون من عمالقة العُلماء، وأشراف الفقهاء. وراح يرمي عليهم سخائمه، ويختلق عنهم تهمًا لم يسمع أحد أنها يمكن أن ترقى إلى أعتابهم، ولكن ذنبهم الوحيد أنَّ العرب المُسلمين يذكرون أسماءهم في إجلال وإكبار وتقديس، وذنبهم

الأكبر عنده أنَّ كل الفقهاء الذين جاءوا بعدهم تتلمذوا عليهم، أو على تلامذتهم، بل إنَّ أعلام الوطنية والإخلاص القومي ينتسبون بأفكارهم إلى تعاليمهم، وهذه ذنوب عند الثور المذءوب لا غفران لها، فماذا عليه لو أنه صدَم فيهم مشاعر الجماعة، وحاول أن يُزيل هذه الهالة، عن أفذاذ لم يذكرهم التاريخ إلا بما يُشرِّف الرجال، ويرفع صليهم على أحقاب الزمان.

ومرة أخرى تداولَته الحجارة، وانهال عليه المسلمون، والعرب، والوطنيون بسهام الحق، يَردُّونه عن قومٍ يُكنُّون لهم الاحترام والتوقير ويعلنونه.

ويُحاول الثور المذءوب أن يلجأ إلى حرية الرأي، وإلى أنَّ كل إنسان ينبغي أن يتمكن من إبداء رأيه مهما يكن شأن هذا الرأي، وهو قولٌ حق ولكنه يستر عند هذا الرجل بالذات باطلًا فادحًا؛ فأولئك الذين يجرح مشاعرهم بهذه الوحشية، ويسُبُّ لهم أعلام دينهم، لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم الحرية في مهاجمة ما يُقدِّسه هو وأمثاله من الذين يُحاولون أن يحطِّموا المساجد وأشياخها على رءوس مرتاديها ومريديهم؛ لأن ديننا ينهانا أن نُثير الفتن بين الناس، والفتنة عندنا أشد من القتل، بينما هي عند الثور المذءوب هدف حياة، ونشيدة عمر، وهَبَ نفسه لها، لا يروم عنها ولا ينثني.

وبلغَت به الوقاحة أن هاجم القرآن نفسه، وحاول أن يردَّ آياته إلى عصورٍ سابقة عليه، وحاول أن يُفَسِّرها وهو أبعد ما يكون عن دراسة أعماقها، أو لغتها، أو مفاهيمها، أو أسباب نزولها.

والحرية هي كرامة الإنسان، ولكن من قال إن الحرية هي تحطيم الأديان، وامتهان كرامة الجماعة، والاعتداء على مُقدَّسات الشعوب وما آمنوا به؟

فصِلة الإنسان بربه صِلة لا يعلمها إلا الإنسان نفسه، وعالم الغيب والشهادة. والاعتداء على هذا الحرم تحطيم للحرية نفسها، إلا أن تكون الفتنة هي بغية المعتدي، والوقيعة بين الأديان هي هدفه الذي يتغياه، ويرصد حياته لبلوغه. ومرةً أخرى يفر الثور المذءوب كلبًا أجرب يلوي ذيله بين فخذَيه، ويتلمَّس مخبأً يردُّ عنه عاديات الهجوم.

ولكن هل من ينتهي؟ هيهات. إذا كان قد خاب فأله، وحبط مسعاه مع الدين وجهًا لوجه، ومع فقهاء الدين بالإعلان، فما له لا يُحاول أن يُهاجم شعراء العربية وكُتابها أجمعين، ويجعل من ذكراهم عفنًا، وحينئذٍ يقول هذا رأيي، وما عليَّ من بأس أن أرفض كل هذا الشعر، وكل هذا الأدب؟ وهذا حقه لا شك في ذلك، ولكن كشأنه يستر به باطلًا حقيرًا.

فإن الناقد حين يرفض شاعرًا عملاقًا وكاتبًا شامخًا، يتعين عليه أن يذكر عيوب هذا الشاعر، أو ذلك الكاتب، وما الذي يدعوه إلى رفضه؟ ولماذا هو أكذوبة في أدبنا؟ وإلا كان الرفض وليد أغراضٍ أخرى وخبيئاتِ نفسٍ مريضة ترمي برفض الشاعر أو الكاتب إلى رفض اللغة التي أكبرها هذا الشاعر أو ذلك الكاتب فأكبَرتْه، والذي أكرمها فأكرمَتْه، ورفعها فرفعَتْه.

إنَّ الأفذاذ من شعراء الأمة وكُتَّابها هم تاريخ أدبها، هم الرايات الخفاقة التي تُسافر عَبْر الأجيال، تحمل الخلود لبلادهم على مر العصور، وتحمل أجيالهم على أعناق الزمن إلى سائر الأجيال.

وقد كان تشرشل، الزعيم الإنجليزي، على وعيٍ عظيم بشأن الشعراء، حين قال: لو لم يكن لبريطانيا فضل إلا أنها ولدَت شكسبير لكان حسبها.

وما زال الفرنسيون يتيهون فخرًا بكورني، وراسين، وهيجو، وبودلير، وبكُتابها من أمثال بلزاك ودوديه، وأناتول فرانس، وغيرهم. وما زالت ألمانيا ترفع علَم جيته وزفايج وعظماء شعرائها خفَّاقًا على كل الأجيال. وكذلك تفعل كل الدول.

فما بال هذا الثور المذءوب يريد أن يُنكِّس أعلام العمالقة من شعرائنا، وكتابنا، ويرفض أي شاعر أو كاتب لم يشهد هو ميلاده، ولم يعلن هو شاعريته، ويمنحه هو صك الوجود؟ إلا أن يكون متشبثًا بتحطيم لغتنا في وهمٍ منه كبير أنه سيستطيع أن يحطِّم بها ديننا وقرآننا، لكن ربنا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهو طبعًا لا يؤمن بما قال ربنا، ولكن ألا يؤمن بما تم فعلًا، وبما يرى من أن القرآن بقي ألفًا وأربعمائة عام ونيفًا لم يتغير منه حرفٌ واحد، ولكن على قلوب أقفالها، وعلى البصائر منه مغاليقها، فليمكر ما شاء له المكر، فإنا نحن المؤمنين نعلم كل العلم أنَّ الله خير الماكرين.

قردة

يأتي على القرد لحظات يُخيل إليه أنه أصبح إنسانًا أو قريبًا من الإنسان. وتعاود هذه الحالة بالذات القردة المعروضة في حدائق الحيوان؛ ذلك أنَّ الأطفال — وأحيانًا الكبار — يتحلَّقون حولها، ويُلقون إليها بأصابع الموز إن أرادوا إكرامها، وبحبات الفول إن أرادوا أن يشهدوا حركاتها وهي تقشره وتأكله.

فإن زادت حلقات الناس خُيِّل لبعض القرود أنهم أصبحوا على قَدْر من الأهمية، فترى القرد منها يشيح عن الإنسان الذي أكرمه، ويصرف عنه وجهه واهتمامه واهمًا أنه أصبح أعظم منه شأنًا، وأرفع منزلة.

وترى القرد منها يتقافز على أعراف الشجر الصناعية، وينط على أسياخ الحديد، فإذا هو في أعلاها، وحينئذٍ يُخيل إليه أنه أصبح أعلى قامةً من الإنسان. ولو لم يكن قردًا لأدرك أنه مهما يتقافز ومهما ينط فسيظل قردًا، ويظل الإنسان إنسانًا، كما يظل أيضًا النجم نجمًا والقمر قمرًا.

وفي عالم الأدب نجد شاشة التليفزيون قد جعلَت بعض القرود يظنون أنفسهم آدميين. ولو رأوا أنفسهم من أعين الناس، ومن عقولهم، لأدركوا أنَّ الناس لا تراهم إلا قردة، مهما يتقافزوا وينطُّوا، ولكنهم هم يَرونَ أنفسهم من داخل أنفسهم، ومن عيون ذواتهم، ولكم تُخادِع نفسَها النفس، ولكم تكذب العينُ صاحبها فتُوهمه أنَّه أصبح شيئًا وما هو بشيء، وأنه يستطيع أن يُصدِر الأحكام، ويقسم الأقسام، وهو نفسه لا يجوز أن يكون موضوع حكم؛ لأن الحكم لا يكون إلا على موجود، وهو غير موجود، والأقسام لا تكون إلا بين كياناتٍ قائمة، وهو لا كيان له ولا كينونة.

الناس تراهم داخل آلة التليفزيون قردةً داخل أقفاص، لن يجديهم شيئًا صوتٌ كمُواء القطط، كما لن يُجديَهم شيئًا تصنُّع في النطق، وتمشيط لشعر الرأس، وترجيل

للحواجب، وحركات للأيدي مرسومة في تكلُّفٍ بغيض، وفتح للفم، وإقفال له بمسطرة وبرجل ومنقلة. ولو دَرَوا أنهم بهذا يقتربون إلى عالم القردة أكثر مما يقتربون إلى عالم الإنسان، لكفُّوا، ولكن من أين لهم أن يدروا؟!

أغلب الأمر أن القارئ الآن سيقول ألغزتَ فأفصح، ولكن المؤكَّد أن أغلب القراء من مشاهدي التليفزيون سيقولون أفصحتَ فاستر. وعهدٌ عليَّ لهم ألا أزيد الأمر إبهامًا أو إيضاحًا؛ فالقردة لا يُقال عنها إلا قردة، والقرد لا يُسمَّى، وإن كان له اسم فإني أربأ بقلمي أن يجمع من حروفه اسمًا.

ولكن كل ما أستطيع أن أقوله، حسبنا الله ونعم الوكيل.

تحطيم الهواء

يشهر الكاتب المبتدئ قلمه الطفل، ويشرع سنَّه الأخضر الغض، ويهتف صارخًا: سأُحطِّم. وأوَّل ما يتصوَّر أنه سيُحطِّمه التقاليد؛ فهي عنده تلك القيود التي رثَّت على تعاقُب الأزمان، والتي عبَرَت الأجيال مقدَّسة الخطى، بفضل جمود العقول في رأيه، موفورة الجلال بفضل الشعوب التي تأخذ بها فيما يظن.

ويحسب الكاتب النضير الإهاب أنه أصاب من الأمر مفاصله، وأنه وقع على طلبته، ووجد الشيء الذي إذا حطمه فسيُصفِّق له الشباب، والمتحررون بتفكيرهم، والمتسامون بعقولهم.

ويكتب الطفل، وما هي إلا بعض سطور حتى يجد التقاليد تحيط به من كل جانب، وأن القيم الكبرى التي اعترفَت بها البشرية قبل ظهور الأديان ثم أكَّدَت الأديان معانيَها، وثبَّتَت رواسيَها، وشدَّت أطنابها، هي المُثُل الثابتة التي لا تستطيع أي قوةٍ شريفة أن تقف في مواجهتها، بل إنَّ القوى الوضيعة إذا ما واجهتها، فإنما تواجهها خفيةً متسترةً بأستار هذه القيم نفسها، مُتَّشِحةً بخمار هذه المثل الرفيعة، مُحاولة أن تميل بها عن طريقها، وتحيد بها عن جادَّتها، وتصرفها عن سِمَتها الواضحة الجلية، التي لا سمة غيرها؛ فالشرف واضح، والصدق جلي، والخلق الرفيع هو الخلق الرفيع، مهما تتكالب حوله الأغراض، وتتثعلب دونه شرازم اللئام. ماذا يستطيع الكُتاب الذين يريدون أن يحطِّموا التقاليد أن يحطِّموا؟ أيستطيعون أن يحطِّموا الشرف؟ أيستطيعون أن يحطِّموا الحب؟! كيف؟! يمتدحون البغض مثلًا؟ والحقد والسخيمة السوداء والغل المعتم الوضيع؟

أيستطيعون أن يقولوا إن الأمانة شر، وإن السرقة رفعة، أم إن الصدق سقم، وإن الكذب متعة؟

إن القيم ثابتة لا تتغير، وكل الذي تغيَّر هم الناس؛ فقد أصبحوا يعرفون الشر ويأتونه علانية، ولكنهم بعدُ لم يستطيعوا، ولن يستطيعوا، أن يدافعوا عنه.

إنَّ الشباب الذي يريد أن يحطِّم التقاليد لا يحطِّم إلا الأعراض الهينة الساذجة البسيطة، التي لا تمثل إلا مظاهر هذه القيم، والتي لا تصل إلى لبابها أو حقيقتها، فمن الأمور مثلًا التي يُصِر الكُتاب من الشباب على تأكيدها، حُرية الفتاة في الاختيار. ويتوهم الشاب أنَّه أتى بجديد يحطِّم به التقاليد. وقد يكون في إرغام الفتاة شيء من التقاليد، ولكنها تقاليدُ لا تمثل القيم الحقيقية، بل هي حتى لا تمثل الدين، وهو القمة لعُليا القيم؛ فالنبي — عليه الصلاة والسلام — كان يرى أنَّ الفتى يجب أن يرى عروسه مُقبلة مُدبرة، ويرى — عليه الصلاة والسلام — أنه أحرى بالعروسين أن يؤدَم بينهما، أي يأكلان معًا. وكان الرأي في الإسلام أنَّ الفتاة لها أن تختار زوجها. وكُتب التراث مليئة بالروايات عن الفتيات اللواتي رفضن الخاطبين لهن.

فأنت إذن أيها الكاتب الشاب لم تُحطِّم قيمة؛ فالقيمة ثابتة، وإنما حَطَّمتَ مَظهرًا ليس من القيم في شيء. وحين يكتب الشاب عن احترام الأبناء لآبائهم، فهم يُحاولون أن يحطِّموا عماد البيت وأساسه، إذا مالوا إلى مظاهر الاحترام، فإنهم سيجدون مُتسعًا يُقر الاحترام في دخيلة نفوسهم. والاحترام علاقة مُتبادلة؛ فالأب غير المحترم لا يحترمه ولن يحترمه أبناؤه، فإذا وقفوا له رائحًا وغاديًا فهم قردةٌ لا يدُل وقوفهم إلا على السخرية والتحقير، وليس يعني مُطلقًا الإجلال أو التوقير.

والفتاة في تصرفاتها قد تعدو على المظاهر. وقد نجد مؤلفين من الشباب أو مؤلفات من الثائرات يقولون لها اصنعي ما شئت؛ فما دمت شريفة فقد حل لك أن تخرجي حين شئت، وترجعي حين أردت، والعبرة بما تصنعين، وليس بما يبدو منك. والكُتاب هنا يوقعون الفتيات في كارثة ما من سبيل إلى عِلاجها؛ فالشرف سُمعة. وأقولها ثانية وثالثة وعشرًا.

الشرف سمعة، فإذا راحت الفتاة تعبث بهذه السمعة بغير حكمة، ولا تعقُّل، أو بصيرة، أصبحَت في نظر المُجتمع عاهرة، وهي التي ستدفع الثمن وحدها. والمُصيبة الكبرى حين تكون شريفة، وتُرمى بهذه الوصمة، والناس لهم الظاهر، وهم معذورون؛ فما من أحدٍ يصل في أمر الشرف إلى الحقيقة العارية، وإنما الأمر كله سماعي حين يتجاوز الفاعلين.

ليت هؤلاء الشباب من الكُتاب يُوجهون همهم إلى الدولة، وليس إلى التقاليد. ليتهم يقولون للدولة ونقول معهم لا تظلمي فئة على حساب فئة، ولا تطحني الموظفين في

ساحتك حتى لا يشب الحقد بنفوسهم، وتغلي مراجل الغضب في ضلوعهم على كل المجتمع. ليتهم يقولون للدولة ملكتِ فأسجي، وحكمتِ فاعدلي. فالعدل قديم وليس فيه جديد، والعدل قيمة لا سبيل لنا أن نعدوها.

ليت الشباب من الكُتاب يقولون للناس إذا ضاقت فإلى فرج، إن ادلهم الليل فسوف ينكشف عن صباح.

فإن الأمل بالشباب من الكُتَّاب خليق وبالمؤمنين منهم أخلق. ليت الشباب من الكاتبين يكفُّون عنا تلك السموم التي تموج بها رواياتهم؛ فكلها يأسٌ أسود مرير شديد المرارة، وكلها قاتمٌ داكن القتامة لا فُرجة فيه لأمل.

ليت الشباب يكتفون بما تكرَّر من المعاني السقيمة، التي تثير طبقات المجتمع بعضها على بعض، والتي تفتعل الإحَن والعداوات بين أبناء الوطن الواحد؛ فتلك نغمةٌ يصطنعها الشيوعيون ليُدمِّروا بها المجتمعات؛ لأنهم هم لا يسيطرون إلا على المجتمعات التي تم تدميرها.

ما أبعدَ الثقافة عن اللافتات!

جاءتني باحثةٌ إنجليزية منذ بضع سنوات، وكانت تريد أن تُجري معي حوارًا لأنها تكتب رسالةً جامعية عن الأدب العربي. وعلى عادة المصريين وسذاجة الشراقوة دعوتُها إلى الغداء، ورأيتُ من المُناسب أن أدعو قريبًا لي كل دراسته باللغة الإنجليزية، فهو يتقنها إتقانًا رُبَّما يفوق به أبناءها.

وجلسنا ثلاثتنا، وسألَت الباحثة عن كتاباتي ما حلا لها السؤال، ثم بدأَت مناقشتَها مع قريبي ذي الثقافة الإنجليزية، وراحت تُحادثه عن طه حسين؛ فيحدِّثها عن ديكنز، فإن حدثَتْه عن توفيق الحكيم حدَّثها عن شو. سألته عن العقاد أجابها عن لوك، فإذا هي تنتفض في غضب:

– سيدي لقد بدأتُ أدرس أدبكم بعد أن فرغتُ من دراسة أدبي أنا، فكيف سمحتَ لنفسك يا سيدي أن تدرس أدبي، قبل أن تدرُس أدبك أنت؟! لو لم يكن لك أدب وأدبٌ عظيم لعذرتُك، أما ولكم هذا الأدب فلا عُذر لكم. وقريبي ذو حياءٍ فخجل من نفسه، وخجلتُ له.

تُرى أنجدُ هذا الخجل على وجوه القائمين بشأن المسرح اليوم؟ فقد كنتُ — والله — أُعِد نفسي لحديثٍ غير هذا الحديث، وموضوعٍ غير هذا الموضوع، فإذا بالراديو يُفاجئني في الأمس بحديثٍ طويل عن اتجاه النية في المسرح المصري، أن يعرض مسرحياتِ شكسبير وموليير باللغة العربية البسيطة، كما يقولون، على مسرحٍ من مسارحِ مصر العربية.

وإنه لشيءٌ عظيم أن يتجه المسرح اتجاهًا جادًّا، ولكنه شيءٌ مفجع ومحزن وأليم ومخزٍ، أن يبدأ بأدبٍ غير أدبه، ومسرحٍ غير مسرحه.

إنَّ النية فيما قال الراديو أن تُسجَّل هذه المسرحيات للتليفزيون. تُرى هل يعي هؤلاء الذين يرفعون هذه اللافتات أي مهانةٍ يُلقون فيها بأدبهم؟

أيُّها الأساتذة الأجلاء من رافعي اللافتات هل سجَّلتم رواياتِ شوقي كلها للتليفزيون؟ هل سجَّلتم رواياتِ عزيز أباظة كلها للتليفزيون؟ هذا إنْ شئتم شعرًا، فإن أردتم نثرًا فهل سجَّلتم رواياتِ توفيق الحكيم كلها، كلها، كلها للتليفزيون؟ وهل سجَّلتم رواياتِ باكثير كلها للتليفزيون؟ فإن لم تكونوا قد فعلتم، وأنتم لم تفعلوا، فما هذا العبث الذي تُذيعونه على الناس؟!

ما أعظمَ أن نرى شكسبير! ولكن بشرطٍ واحد أن نكون قد رأينا شوقي جميعه، وعزيز أباظة جميعه، الشعر صعب على الممثلين، ولكن من قال إنَّ الثقافة عبثٌ ولافتات؟ ادفعوا للممثلين أجرًا يُرضيهم يصبح الصعب هينًا لينًا. وما أروع أن نرى موليير! بل وكورني وراسين وميلر وغيرهم، وكل من شئتم من أعلام الغرب، ولكن ليس قبل أن نرى أعلامنا وروائعنا وإنْ رغمَت من الأنوف أنوف.

وأخرى، ما مسألة اللغة المبسَّطة هذه؟ ما هذه اللهجة المضحكة؟ من قال لكم إن الشعب شكا من اللغة الحلوة؟ إنَّ هذا الشعب الذي تغلب عليه الأمية ذو حساسيةٍ في اللفظ الأدبي، يندر أن يرقى إليها كثيرٌ من دعاة الثقافة، وبهذه الحساسية الرَّهيفة أقبَل على روايات شوقي وهو شوقي وعزيز وهو عزيز، وأقبَل على تراجمِ مطران لشكسبير وهما مطران وشكسبير.

فما هذا الجهدُ والكدُّ والمالُ المبذول في الترجمة؟ وهذه المسرحيات ترجمَها واحدٌ من معالم الشعر العربي الحديث.

إن كانت هناك لفظةٌ صعبة أو تركيبٌ عسير، فما أيسر أن يسهُل الصعب ويلين! فما ترجمها الشاعر الكبير شعرًا، وإنما ترجمَها بالنثر، وما أطوعَ النثر في الاستبدال والتغيير! وما أعظم ثراء اللغة العربية، وما أكثر المترادفات فيها!

يا أيها اللامن المسئولين لقد غشاكم من أيام الطغيان ضلال اللافتات المرفوعة على الهواء، والشعارات الهلامية المُشهرة على فراغ. وليست الثقافة، ولن تكون، لافتاتٍ وشعارات، وإنما هي جهدٌ وبحث وعناء، لتكون مُتعة وزادًا وغناء.

أنا لن أخاف ولن أرتعد إذا أطلقتم في الهواء أسماء شكسبير وموليير. ولن يخاف أحدٌ ولن يرتعد أن يُعارضكم ويصيح بكم: مِلتم عن الحق فعودوا، وتركتم الطريق فاستقيموا.

وإن كان نطق شكسبير، وموليير، وراسين، وكورني، وبرنارد شو، وإبسن، يعزف في قلوبكم وعلى ألسنتكم نغمًا تهفو له نفوسكم، وترتاح له أفئدتكم أنكم صرتم مثقفين،

فجرِّبوا المتنبي والبحتري، وشيخ المعرة، وأبا تمام، وشوقي، وعزيز، وتوفيق الحكيم، وعلي باكثير، ربما استجابت لهذه الأسماء قوميتكم، واستقام بها لسانكم. وإن كان لا بد أن تذكروا الأسماء الغربية وتمثِّلوا رواياتها، فمازجوا على الأقل بين مصر العربية والغربيين، مُمازجة العادلين لا الظالمين، والمُقسطين لا القاسطين. وسلامٌ عليكم في المثقَّفين المتفرنجين ولا أقول الهازلين.

هنـــداوي